قادة ورُوّاد الحدود

في العالم الجديد

تأليف : دوروثى هيدرستاد

ترجمة : لجنة دائرة المعارف العامة



مكتبة « الأعلام وأبطال التاريخ »
(٥)

قادة ورُوّاد الحدود

فى العالم الجديد

تأليف : دوروثى هيد رستاد

ترجمة : لجنة دائرة المعارف العامة

الناشر

دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع

عمارة رمسيس . ميدان رمسيس . القاهرة

(١٩٦٥)

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
تليفون ٩٠٥٢٩٦

هذه ترجمة كتاب

FRONTIER LEADERS & PIONEERS

تأليف

Dorothy Heiderstadt

●

●

Arabic edition published by
arrangement with :
David Mc. Kay Co. Inc.

« دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع »
عمارة رمسيس — ميدان رمسيس — القاهرة

محتويات الكتاب

الموضوع | صفحة

الموضوع | صفحة

هـــذا الكـــتـــاب

ليس ثمة شك فى أن الباحث فى تاريخ أى شعب من الشعوب يستهويه دائما أن يقف على حقيقة الأسباب التى حدت بذلك الشعب إلى اختيار الرقعـــة الجغرافية التى اتخذ منها موطناً أصيلا لنفسه ، كما يستهويه الوقوف على حقيقة البواعث التى حدت بذلك الشعب إلى اصطناع العادات والتقاليد التى يأخذ بها ويرثها من بعده الأبناء والأحفاد ، فضلا عن الوسائل والطرق التى توسل بها هذا الشعب لتوسيع رقعة بلاده وتنمية خيراته ومصادر ثروته .

ولعل تاريخ توسيع حدود العالم الجديد (أمريكا) هو أكثر ما يستهوى أمثال هؤلاء الباحثين . فالعالم الجديد لم يكن فى بادئ الأمر — كما هو معروف — سوى رقعة فسيحة من الأرض الجرداء يقطنها عدد قليل من الهنود الحمر ، وتسرح فيها وتمرح قطعان من الجاموس والحيوانات البرية .

وجاء المستوطنون الجدد فأصلحوا تلك الأرض الجرداء القاحلة ،واستأنسوا الحيوانات البرية ، ثم عكفوا على توسيع رقعة الأرض التى اتخذوا منها موطناً لهم ، وتلفتوا حولهم فوجدوا مساحات شاسعة من الأرض غير المأهولة،فأصلحوها واتخذوا منها مناطق جديدة للاستيطان . غير أن إصلاح تلك المساحات الشاسعة من الأرض لم يكن بالأمر السهل ، كما أن العداوة بين المستوطنين الجدد والهنود الحمر الذين كانوا يعيشون فى تلك المناطق كانت تبلغ فى بعض الأحيان حـداً من العنف والمرارة يستحيل معه على المستوطنين الجدد أن يعيشوا فى سهولة ويسر .

ومن هنا كان توسيع رقعة الأراضى الأمريكية عملا شاقاً مضنياً فى بادئ الأمر ، ولـكنه لم يلبث أن أصبح أمراً مألوفاً بعد أن وجد المستوطنون الجدد

أنفسهم مضطرين اضطراراً إلى البحث عن مناطق جديدة يقطنونها ويعيشون فيها ويستثمرون مصادرها وخيراتها .

وقد حفل تاريخ توسيع الأراضي الأمريكية ببطولات رائعة ، وجهود فذة فدائيـة ، جعلت من ذلك التاريخ قصة شائقة تستهوى الباحثين فى تاريخ الأمة الأمريكية .

ويروى هذا الـكتاب الذى يسعدنا أن نقدمه للقراء العرب الـكرام فصولاً منوعة من تلك القصة الشائقة . . . وهى فصول تسجل قصصاً رائعة من قصص البطولة والفداء والـكفاح المضنى الفذ ، صيغت بأسلوب سهل أقرب إلى « الرواية » منه إلى « التأريخ » .

ولا تقتصر أهمية الـكتاب على أنه عرض شـائق ممتع لبطولة رواد الحدود وقادتها ،ذلك أن هذا العرض ذاته يكشف لنا عن جوانب خفية مستورة من الحياة القديمة فى أمريكا ، كما يكشف عن حقائق تاريخية هامة ضاعت فى زحمة الانشغال بالتاريخ الحديث المعاصر .

ونحن ، إذ نقدم هـــذا الـكتاب للقارئ العربى ، نأمل أن يساعده على فهم حقبة قديمة من حقب التاريخ الأمريكى ؛ وهى حقبة تأثر بها حاضر الولايات المتحدة الأمريكية تأثراً بالغاً يحسن بالباحثين فى تاريخ الأمة الأمريكية أن يقفوا عليه ، وأن يدرسوه دراسة عميقة تتيح لهم فرصة إدراك الترابط الحى الفعال بين ماضى أمريكا وحاضرها .

كما نأمل أن يشغل هذا الـكتاب المـكان اللائق به فى المـكتبة العربية . . والله — سبحانه وتعالى — ولى التوفيق ؟

« دار الـكرنك للنشر »

كلمة تمهيدية

عندما اتحدت المستعمرات الثلاث عشرة فى أمريكا الشمالية ، وأصبحت تكوّن الولايات المتحدة لأول مرة كان الرجال يتجهون بأفكارهم نحو الغرب.

وتوجه « الصيادون الطوال » — وكانوا يعرفون بهذا الاسم بسبب طول بنادقهم التى يحملونها — إلى جبال الأليجانى وإلى ما وراءها للحصول على الفراء، ثم لحق بهم فيما بعد أولئك الرجال الذين يحبون أقاصى المعمور من البلاد ، وقام هؤلاء القوم ببناء أكواخ بدائية على الحدود ، وأمضوا معظم أوقاتهم فى الصيد والتجارة ومحاربة الهنود ، ثم جاء بعد هؤلاء المزارعون الأوائل ، وكانوا فى الغالب من أصحاب الأسر ، فأخذوا يعملون فى قطع الأشجار ، وبناء المنازل والاصطبلات وتمهيد الأرض لزراعة غلاتهم ، كما راحوا يقيمون الأسوار والحواجز لحماية ممتلكاتهم ، وبالتعاون مع جيرانهم أقاموا مجتمعاً ، وسنوا القوانين ، وشيدوا المدارس ، والكنائس ، وورش النجارة ، والمطاحن ، والمخازن .

وكان هؤلاء الرواد يتعرضون دائما لحملات الهنود الهجومية ، فقد كان الهنود يمانعون فى قدوم البيض بسبب مطاردتهم لحيوانات وطيور القنص التى كانت مصدراً هاماً من مصادر معيشتهم . . وكان البيض يقومون فى بعض الأحيان بإقناع الهنود بأن يعقدوا معهم معاهداتهم ويتنازلوا لهم عن بعض المساحات من الأرض ، ولكن الهنود كانوا يعتقدون أن أحداً لا يستطيع أن يمتلك أرضاً ، لأن الأرض هى ملك للإله العظيم ، الذى يسمح

للانسان بأن يستفيد منها . وهكذا كانت أى معاهدة تعقد مع الرجال البيض إنما تعنى لدى الهنود استغلال البيض للأرض وليس امتلاكها .

وراح الرواد يشقون طريقهم غربا فى عربات « الكونستوجا » ، وكانوا يأخذون معهم ممتلكاتهم ، وكان أول من صنع هذه العربات الكبيرة المغطاة رواد ألمان استوطنوا وادى « كونستوجا » الذى يقع فى الجزء الشرقى من إقليم بنسلفانيا .. وكانت هذه العربات ذات عجلات ثقيلة ، عريضة تستطيع السير بحمولتها بسهولة على طرق وعرة موحلة .

وكانت كل موجة من المهاجرين تجعل منطقة الحدود تمتد إلى الغرب ، ففى بواكير العقد الثامن من القرن التاسع عشر تم استيطان وادى نهر أوهايو ، ومع ذلك لازال المهاجرون يواصلون قدومهم حتى وصلوا إلى نهر المسيسيبى ، ثم واصلوا المسير غربا ، وعقد الحاكم معاهدة مع الهنود تنص على أن يتنازلوا عن أراضيهم فى شرقى نهر المسيسيبى مقابل مبلغ من المال ومساحات قبلية جديدة من الأرض تقع إلى الغرب من نهر المسيسيبى ، وكانت البرارى المنبطحة ، حيث لم يكن يتوقع أى إنسان للأمريكيين أن يستوطنوا فيها ، هى الإقليم الجديد الذى خصص لاستيطان الهنود . . وكانت ترعى فوق السهول قطعان ضخمة من الجاموس كافية لتوفير الطعام للجميع .

ولكن ما إن جاء منتصف العقد الثامن من القرن التاسع عشر حتى كان المستوطنون يشقون طريقهم عبر درب الأوريجون إلى قلب الإقليم المخصص للهنود ، كما كان عدد آخر من المستوطنين بلغ حوالى ثلثمائة وتسعين شخصا يعبرون البرارى فى طريقهم إلى كاليفورنيا . وفى عام ١٨٩٠ كان المزارعون الأوائل يستوطنون على جانبى الطريقين المؤديين إلى سانتافى والأوريجون

بالإقليمين المعروفين الآن بولايتي كانساس ونبراسكا ، وكان من أثر صدور القانون عام ١٨٦٢ الذي يخول منح الأراضي الحكومية في قطع قوام كل منها ١٦٠ فدانا لكل رب أسرة مقابل الإقامة عليها والعمل فيها مدى خمس سنوات أن شجع الكثيرين من المستوطنين على الاستيلاء على مساحات من الأراضي الخصبة في السهول . وفي ١٠ مايو عام ١٨٦٩ تم إنفاق مبالغ كبيرة من الذهب والفضة من أجل إقامة خط سكة حديد في « يوتا » يربط بين الخطين الموجودين الذين يصلان الإقليم الذي يقع بين مدينة أوماها بولاية نبراسكا ومدينة ساكرمنتو بولاية كاليفورنيا ، وهذان الخطان هما خط « اليونيون باسيفيك » الذي أقيم إلى الغرب من مدينة أوماها ، وخط « السنترال باسفيك » الذي أقيم إلى الشرق من مدينة ساكرمنتو .

وبعد أن أصبحت السهول مأهولة ، كانت قطعان الجواميس تطارد منها ، أو تساق إلى الذبح ، وكانت المعيشة على طريقة الهنود تقترب من نهايتها بسرعة ، فحارب الهنود هذه التغييرات بمرارة ، بالهجوم على قوافل البضائع والمستوطنين ، بل بالهجوم على السكك الحديدية والانقضاض على المزارع والمستعمرات والمراكز التجارية المنعزلة ، وجاء الجنود وبنوا القلاع لحماية المستوطنين ، كما اشترك رجال الجبال والرحالون والمساحون ورسامو الخرائط في هذا النزال مع الهنود . . لقد كان البيض المغامرون في ذهابهم إلى الغرب يضعون حياتهم على أكتافهم حتى في أوائل القرن العشرين ، وذلك لأن هنود قبيلة الأباش ، كانوا لا يزالون معادين لهم .

ويبرر البيض محاربتهم للهنود بقولهم إن : الهنود الحمر أثناء القرون التي

كانوا يسرحون فيها ويمرحون فى جميع أنحاء البلاد ، لم يفعلوا إلا القليل فى سبيل تحسينها أو النهوض بها ، ولـكن الهنود لم يدركوا شيئاً من هذا فحاربوا بضراوة — لا فى سبيل المحافظة على حياتهم فحسب ، بل للمحافظة على طريقة معيشتهم . وكسب البيض المعركة، واستولوا على جميع القارة التى تمتد من المحيط إلى المحيط ، والتى كانت ذات مرة ملـكا للهنود الحمر .

وكان هناك عدد لا يحصى ممن ساعدوا على امتداد الحدود غرباً ، أو ممن تركوا أثراً لهم فى ميدان تاريخ التخوم .. لقد كانوا جماعة متنوعة فى مشاربهم تدعو إلى الاهتمام .

فمعظم هؤلاء الرواد لم يكونوا حائزين إلا للقليل من التعليم ، بل إن البعض منهم كانوا يستطيعون كتابة أسمائهم بصعوبة ، ومع ذلك فإن «الثقافة» كانت تعنى فى حقبة من الزمن شيئاً، وربما تعنى فى حقبة أخرى شيئاً آخر ففى عصرنا الحاضر ينبغى لرواد الفضاء أن يتثقفوا فى شتى الوسائل الحديثة التى لم يكن يهتم الشباب بها منذ حوالى خمسين سنة أو خمس وعشرين خلت . فلا بد لهم أن يتلقوا دروساً فى العلم والملاحة ، وغيرها من المواد ، وأن يقضوا فترات تدريبات قاسية . وعلى ذلك فالرواد لم يكونوا جهلة بحق ، بل كانوا متثقفين بطريقة أخرى : طريقة كانت مطلوبة فى ذلك العصر . لقد تعلموا فنون البرارى ، واستخدام الأسلحة النارية ، وفن البقاء فى ظروف لم تعد تواجه الأمريكيين . . لقد شقوا الطرق ، وفتحوا البلاد ، وأسسوا الولايات ، وأصبحوا حـكاماً وسياسيين ، بالرغم من افتقارهم إلى الثقافة النظامية . .

وهذا الكتاب يحكى قصصاً لعدد قليل من هؤلاء الرواد الذين كان البعض منهم صيادين وجنوداً ورجال جبال ، بينما كان البعض الآخر أناساً هادئين كالرسامين والكتاب ، وكان من بين هؤلاء القوم رجل ظفر بشهرة عظيمة لأنه قام بزراعة شجر التفاح ، كما كان من بينهم ثلاثة رواد ممن حظوا بشهرة واسعة ومع ذلك لم يتناول هذا الكتاب سوى ذكر أسمائهم ذكراً عابراً فى مجال حكاية قصص الرجال الآخرين ، وهؤلاء الثلاثة هم : دافى كروكيت ، وكيت كارسون ، وبافالو بيل . ويستطيع القارىء أن يجد سير حياتهم فى العديد من الكتب ، وربما يكون هناك آخرون ممن غفلنا عنهم ومن كان يجب علينا أن نجعل هذا الكتاب يشتمل على سير حياتهم ، ولكن أى كتاب لابد له أن يقف عند حد معين . لقد قام ببناء أمتنا رجال متحمسون ، وما زال البناء مستمراً ، والتخوم الجديدة لاتزال فى حاجة للتغلب عليها فى جميع الأوقات والأزمنة .



لقد فضل هذا الرائد أن يظل منفرداً . . لقد أحب « دانيال بون » النحيف الجسم ، الخروج في « رحلات صيد طويلة » إلى الغابات ، واستطاع أن يكون صديقاً للهنود ، وكان صائداً » ماهراً ببندقيته ، ولكنه لم يكن يجيد تهجية الكلمات . . ومما يدل على ذلك وجود شجرة بلوط قديمة جداً في تينسي حفرت عليها بعض الكلمات بتهجية خاطئة .

لقد أحب « دانيال بون » المجالات الرحبة . وقال ذات مرة لزوجته إنه ينبغي لهما أن يتنقلا من منزلهما لأن الجيران أصبحوا يسكنون في منازل قريبة جداً ولم يعد يفصلهما عنهم سوى خمسة أميال فقط .

وافتتح « دانيال بون » طريقاً أصبحت تعرف « بطريق البرية » يسرت للمستوطنين الأمريكيين عبور جبال كامبرلاند إلى إقليم كنتكي . . وهذه الطريق أصبحت الآن جزءاً من الطريق العامة رقم ٢٥ للولايات المتحدة الأمريكية .

الفصل الأول

دانيال بون

حامل البندقية ومحارب الهنود

(١٧٣٤ — ١٨٢٠)

فى يوم مشرق من خريف عام ١٧٣٤ ، وبعد مرور سنتين على مولد جورج واشنطون ، تطلع «سكواير بون» وزوجته سارة من بنسلفانيا بفخر إلى سادس طفل فى الأسرة ولد لهما من بين أحد عشر طفلا .. وكان الطفل ذا وجه يطفح بشراً فأسمياه دانيال ، وجعلاه ينشأ إلى حد ما بالطريقة التى يريدها هو ، ولم يرغماه على الذهاب إلى المدرسة ، وكانت عمته ، كلما تستطيع أن تمسك به تقوم بتعليمه بعض الكتابة والقراءة. ولم يهتم دانيال كثيراً بتعلم القراءة من الكتب ولكنه كان أحسن رام بالبندقية فى جميع أنحاء بنسلفانيا . . لم يكن يخطىء هدفاً قط ، ولما بلغ الثانية عشرة قام بحمل بندقيته الخاصة .

وكان «سكواير بون» يعمل حائكا ، ولكن ولده «دانيال» اعتقد أن مهنة الحياكة ليست أهلا لكسب رزقه ، وكان مولعاً بحب الاستطلاع والاستقصاء ، فتعلم كيف يعمل على النول .. وإذ كانت توجد بجوار نهر سكايلبكيل على جانب الطريق المؤدى إلى كوخ آل بون ورشة حدادة أثارت اهتمامه أيما إثارة فقد أخذ يراقب الحداد فى عمله فتعلم كيف يقوم بإصلاح العربات وحذاء الخيل .

وكان أهم ما أثار اهتمامه أكثر من نار الحداد وكوره وسندانه ، الهنود الذين جاءوا إلى المستعمرة الموجودة في البرية ليبادلوا الفراء بالسكاكين واللعب، وسرعان ما أصبح دانيال صديقاً لهم يذهب معهم للصيد في الغابات ، وإذ كان ذا عينين تتقدان ذكاء وتشوقاً للصيد ، وهادئاً كالقطة وهو يتتبع خطوات الصيادين ، فقد تعلم كيف يقتفي أثر الحيوانات البرية كما لو كان صبياً هندياً .

وعندما كان دانيال لا يزال فتى عنيد المراس في سن السادسة عشرة رحلت أسرة بون إلى حدود كارولينا الشمالية ، واستوطنت أحد روافد نهر « يادكين » . وكانت وقتئذ تسود الهنود حالة من الاضطراب ، لأن الفرنسيين والإنجليز كانوا في قتال بسبب المنطقة الواقعة بمحاذاة حدود بنسلفانيا ، وكانت نقطة الخلاف الرئيسية بين الطرفين تتمثل في حصن « ديكوسن » الواقع عند ملتقى : نهر مونونجا هيلا ، ونهر اليجانى ، ونهر أوهايو ، وذلك لأن الانجليز حينما شرعوا في بنائه انتزعه منهم الفرنسيون وهم يريدون الآن أن يستردوه .

وحينما كان دانيال في الحادية والعشرين من عمره في عام ١٧٧٥ قام القائد البريطاني إدوارد برادوك بقيادة حملة لاسترداد الحصن ، فانضم إليها دانيال الشاب النحيف كسائق عربة لنقل البضائع . وكان يوجد في نفس الفرقة التي يعمل بها دانيال شاب برتبة ملازم يدعى جورج واشنطن ، كما كان يوجد فيها تاجر فراء يدعى « جون فينلي » حظى بالاهتمام الأوفر من جانب دانيال الذي كان مولعاً باكتشاف الغابات ، وكان « جون فينلي » يعرف الكثير من القصص عن بلاد عجيبة تدعى كنتكي تقع غربي جبال كمبرلاند ، فاتفق الاثنان على أن يقوما في يوم من الأيام بزيارتها ومشاهدة معالمها .

وكان القائد براداوك جندياً عظيماً، ولكنه لم يكن يعرف وسائل الحروب في البراري، فأوقع جنوده أثناء زحفهم في كمين أعده لهم الهنود وهزم شر هزيمة. وظل حصن ديكوسن في يد الفرنسيين، وتوجه «دانيال بون» إلى إقليم يادكين ليتزوج من حبيبته «ربيكا بريانت» التي حققت له بعد زواجهما ثلث ما كان يصبو إليه من سعادة تتمثل في بندقية جيدة وحصان جيد وزوجة جيدة. ولم تختلف ربيكا مع دانيال طوال حياتهما الزوجية اختلافاً بيناً سوى مرة واحدة، وكان ذلك بعد مضي سبع سنوات على زواجهما حينما تخلى عن إحدى رحلات الصيد وذهب إلى فلوريدا حيث وقع في غرام هذه البلاد وعاد إلى ربيكا ليقترح عليها الذهاب إليها للاقامة فيها وكسب الرزق منها.

قالت له ربيكا والكآبة تبدو على محياها: أعتقد أنني لا أستطيع الذهاب إلى مكان بعيد عن مسقط رأسي.

وأطال دانيال التفكير في الأمر ملياً، ولكن ربيكا ظلت مصممة على رأيها، وفي تلك الفترة جاء «جون فيندلي» لزيارته مرة أخرى، ولم يكن دانيال قد رآه منذ انتهاء حملة برادوك، لأنه كان قد أصبح بائعاً متجولاً ولم ينجح في مهنته هذه، وكان جون مع ذلك لا يزال يتحدث عن كنتكي وأراضيها الخصبة، وحيوانات الصيد الموجودة فيها، فعزم دانيال على أن يشاهد هذه البلاد، وشرع بصحبة فريق من الكشافة في التوجه إلى جبال كامبرلاند لاستقصاء معالمها.

وكانت كامبرلاند بلاداً عظيمة بحق! إذ كانت تحتوي على العشب الأخضر النضر والتلال المنحدرة، والكثير من الأسماك وحيوانات القنص،

بالإضافة إلى العزلة التي كانت أفضل شيء بالنسبة لدانيال! صحيح إن هنوداً كانوا يتجولون في المكان، ولكن دانيال لم يجزع منهم .. لقد أصبح بحق معجباً بكنتكي ونسي كل شيء عن فلوريدا .

وفي عام ١٧٧٥ عرضت على دانيال وظيفة.. فقد كان أحد القضاة — ويسمى ريتشارد هندرسون — من إقليم بالكين، قد عمل على تأسيس شركة تعرف بشركة ترانسيلفانيا تهدف إلى استيطان البلاد التي كانت تدعى كنتكي، وكذلك إلى استيطان جزء من البلاد التي أصبحت تنيسى فيما بعد . فاستؤجر دانيال ليفتتح أفضل طريق عبر ممر كامبرلاند إلى ضفاف نهر كنتكي . . . وكانت المهمة تنطوي على بعض القتال مع الهنود ، وإذ كان دانيال شجاعا ومعروفا لدى رجال الغابات كمنافس داهية ، فقد اصطحب فرقة من ثلاثين رجلا بكامل معداتهم وأسلحتهم ، وقاموا بفتح طريق ، متتبعين أثر جاموسة قديمة وممراً للهنود . . طريق جيد لدرجة عظيمة حتى أنه مازال يستخدم حتى وقتنا الحاضر . . طريق عمومي يسمى « طريق البرية » ، وكان قد قام بإنشاء معظم هذا الطريق عبر أراضي البرية حتى أنه ليمكن القول بأن رجاله كانوا يعملون وهم يمسكون فأسا بيد ،وبندقية باليد الأخرى، وفي عام ١٧٧٥ كان لابد للمرء أن يتحلى بالشجاعة حتى يستطيع القيام بفتح الطرق العامة .. ولكن مما لاشك فيه أن دانيال كان قد اختار لهذه المهمة رجالا يتصفون بما يتطلبه الموقف ، وكان رجال قبيلة «الشونى» المتعطشين للدماء يتجولون في الإقليم ، ويكرهون الرجال البيض ، ويضيفون الكثير من الجماجم البشرية إلى مجموعتهم .. ولكن فاتحي طريق البرية احتفظوا بجماجمهم،وأصبحت هذه الطريق من أعظم الطرق العمومية الهامة في عهد الرواد الأوائل . وفي خلال

منتصف الخمسين سنة التالية ازداد السيل المتدفق من المستوطنين الذين جاءوا في أعقاب الثورة الأمريكية عبر هذه الطريق الصخرية الجبلية إلى كنتكى . وكان حوالى ثلاثمائة ميل من هذه الطريق من أشد الأميال التي واجهها الرواد خطورة .. وفى عام ١٧٩٠ — بعد أن أصبحت كنتكى ولاية — تم تمهيد طريق البرية هذه بحيث كانت عربات النقل تستطيع السير فيها ، وما أن جاء عام ١٨٠٠ حتى بلغ عدد المستوطنين الذين سافروا عليها أكثر من ٢٠٠ ألف شخص . . . وكانت ريبكا زوجة دانيال بون وابنته « جيميا » من بين الفوج الثانى من المستوطنين الذين قادهم بون بنفسه عبر هذه الطريق ، كما كانتا أول سيدتين من البيض تطآن أقدامهما ضفاف نهر كنتكى .

ولم يثق دانيال قط برجال « الشونى » . . فقد حدث ذات مرة أن اختطفوا « جيميا » وفتاتين أخريين معها ، ولكن سرعان ما هب « دانيال بون » ورجاله يطاردونهم بسرعة الزوبعة حتى تمكنوا من إنقاذهن سالمات ، وحدث مرة أخرى أن تمكن رجال هذه القبيلة من أسر دانيال نفسه ، بينما كان يقوم بحملة خاصة باستخراج الملح ، ففرحوا بالغنيمة أيما فرح ، وساقوه إلى ديترويت ليبيعوه للقائد هاملتون ، ذلك الضابط البريطانى السيء السمعة الذى كان يجزل لهم العطايا السخية إذا ما جاءوا إليه بجماجم الأمريكيين ، ولما وصل « الشونى » إليه به سألوه : كم من المال يساوى هذا الرجل ؟ ولكن رجال « الشونى » وقعوا فى متاعب مع بلاكفيش زعيمهم الذى أحب دانيال ورفض أن يبيعه بالرغم من أن القائد هاملتون عرض عليه مائة جنيه استرليني ثمناً له ، أو ما يوازى حوالى خمسمائة دولار ، وشكر « بون » فضل بلاكفيش ، ولكنه لم يرغب فى أن يظل هندياً إلى الأبد ، فصمم على الرحيل فى آخر المطاف ... وكان صائباً

فيما عزم عليه ، لأن قبيلة « الشونى » كانت تدبر أمر غزو مستعمرته « بونزبورو » بإقليم كنتكى !

ولم يكن من العسير عليه أن يهرب لاسيما وقد أظهر أنه يتمتع بالحياة معهم لدرجة كبيرة حتى سمحوا له بقدر وافر من الحرية ، واستطاع أن يقطع الرحلة الطويلة المليئة بالمخاطر ويبلغ طولها مائة وستين ميلا إلى « بونزبورو » فى أربعة أيام سيراً على الأقدام تارة ، ومستقلا زورقاً صغيراً تارة أخرى ، ولما وصل الأربعمائة محارب « الشونى » إلى المستعمرة بعد ذلك وجدوها فى انتظار قدومهم . . لقد وجدوا أربعين مواطناً من أهل كنتكى يحملون بنادقهم ويقفون على أهبة الاستعداد فى مراكزهم داخل سور من الخشب لمواجهتهم .

وظلوا تسعة أيام بذلوا فيها كل حيلة حذقوها للاستيلاء على الحصن . . لقد أطلقوا سهاماً مشتعلة من فوق الأسوار ، وأشعلوا النيران فى أسطح الأكواخ ، ولكن المستوطنين حملوا المياه وقاموا بإطفاء ألسنة اللهب ، وحاول الهنود أن يحفروا خندقاً ويضعوا فيه لغماً من البارود تحت الحصن ، ولكن سكان كنتكى اكتشفوه وقتلوا الهنود الذين قاموا بوضعه ، وكان النساء يساعدن الرجال فى تعبئة البنادق وجر الجرحى إلى الوراء وتضميد جراحهم وفى النهاية هبت زوبعة مع المطر اضطرت الهنود إلى التراجع داخل الغابة .

وفى فترة طويلة عمل دانيال مرشداً ، فكان يقوم بقيادة جماعات من المستوطنين عبر طريق البرية ، وأصبح مهذباً لدرجة كبيرة حتى أنه عمل عضواً فى المجلس التشريعى لفرجينيا فترات طويلة . (قبل أن تصبح كنتكى ولاية تابعة لإقليم فرجينيا) ، بيد أن دانيال كان فى قرارة نفسه محباً لحياة

العزلة ، وما مضت بضع سنوات حتى قرر الرحيل غربا للمرة الثانية ، وكان أحد أولاده الناشئين قد زار ميسورى وعاد إلى كنتكى مسقط رأسه ليتحدث عما شاهده فى مقاطعة «فام أوساج» التى تقع على نهر يحمل نفس الاسم إلى الغرب من المسيسبى وتشتهر بالصيد .

وحينما بلغ دانيال الخامسة والستين انتقل بأسرته إلى ميسورى . وكانت وقتئذ تحت حكم الأسبانيين ؛ فمنحته الحكومة الأسبانية مساحة من الأرض غربى مدينة سانت لويس ، وعينته حاكماً عسكرياً للمنطقة ، ولكن الإدارة المسئولة عن شراء لويزيانا حرمته من ملكية الأرض بعد أربع سنوات ، لأن الفرنسيين كانوا قد استولوا على المقاطعة من الأسبانيين وباعوها للأمريكيين فى عام ١٨٠٣ .

وبالرغم من أن دانيال كان يمتلك مساحات شاسعة فى حياته إلا أنه كان رجلا فقيراً حتى أصبح بدون مأوى ، ولما سمع كونجرس الولايات المتحدة بالمحنة التى يعانيها رجل الحدود العجوز ، أعاد له جزءاً من أرضه فى إقليم ميسورى مكافأة له على افتتاح طريق البرية ، طريق الملايين من أبناء وطنه . وقصة دانيال بون نشرها لأول مرة «جون فيلسون» فى عام ١٧٣٤ فى كتاب بعنوان : « اكتشاف مستعمرة وولاية كنتكى الحالية » وكان فيلسون مدرساً . . ويعتقد أن كتابه هذا كان أول وصف وضعه أول رحالة عن إقليم كنتكى ، أما الفصل الذى يدعى « مغامرات الكولونيل دانيال بون » فقد جاء فى ملحق أصبح فيما بعد أعظم جزء من الكتاب يحظى بشهرة واسعة ، وكان فيلسون صديقا لبون ، فوصف القصة بصيغة المتكلم ... وبالرغم من أن جميع

محتوياته لا تصلح أن تكون مرجعاً تاريخياً يوثق بصحته ، إلا أنها كانت مثيرة للغاية حتى أن الناس كانوا مولعين بقراءتها ، كما كان « بون » نفسه مولعاً بها لدرجة عظيمة جعلته يقسم بأن كل كلمة منها إنما تعبر عن الحقيقة !

وحينما نشبت الحرب فى عام ١٨١٢ ، كان دانيال فى الثانية والسبعين من عمره . . فتطوع للقتال ، ولكنه لم يقبل لكبر سنه ، فاحتار وغضب وفكر فى الأمر كثيراً ، ومع ذلك لم يستطع أن يفعل شيئاً . . وبعد ذلك بأربع سنوات — وكان فى الثانية والثمانين من عمره — شوهد وهو يصطاد وحيداً فى نبراسكا ويسير مترهلا قانعاً ، بينما كانت بندقيته معلقة فى كتفه .

وفى العام الذى سبق وفاة دانيال ، زار رسام رحالة يدعى تشستر هاردنج ، ولاية ميسورى مسقط رأسه ، . وكان دانيال فى الخامسة والثمانين لا يهتم كثيراً بعمل صورة زيتية له ، ولا يحب الجلوس هادئاً أثناء الرسم . . ولكن هاردنج استدرجه إلى الكلام عن مغامراته ، بينما أخذ يرسم صورة زيتية للرائد العجوز وهو يحدق بجرأة فى العالم بعينيه السوداوين اللامعتين اللتين يكسوهما الشيب .

وبينما كان يقوم الفنان هاردنج بالرسم سأل دانيال مستفسراً : « لقد قطعت الكثير من الأميال فى أسفارك ، أفلم تضل طريقك فى يوم من الأيام ؟ » .

وأجاب دانيال : « كلا ! » ولكنه استدرك قائلا بأمانة : « ولكننى تهت ذات مرة مدة استغرقت ثلاثة أيام » .

لقد كان دانيال ينصب فخاخ الصيد ، ويكسب مالا وفيراً من ذلك ،

وفى بعض الأحيان كان يبيع من الفراء ما تتراوح قيمته بين أربعمائة وثمانمائة دولار فى فصل الشتاء الواحد مما يسر له ولزوجته حياة مريحة فى شيخوختهما.

وذات مرة حاول بعض الهنود من قبيلة « أوساج » أن يسرقوا ذلك الرجل العجوز الذى يبدو يائساً.. ولما لم تكن لديهم أية فكرة بأنهم إنما كانوا يهاجمون أعظم محارب هندى فى العالم يتصف بضراوته ودرايته لم يسعهم سوى الفرار بطريقة تتسم بالسرعة أكثر من عزة النفس حينما انقض عليهم ببندقيته .

وتوفى دانيال فى منزل ابنه « ناثان » فى ٢٦ سبتمبر عام ١٨٢٠ بينما كان فى السادسة والثمانين من عمره ، ولم يمهله المرض سوى ثلاثة أيام أسلم بعدها الروح بكل وداعة دون نزع أو ألم . وحزن عليه أولاده المحبون وأحفاده المعجبون به ودفنوه على قمة هضبة تطل على نهر الميسورى ، ولكن أهل كنتكى ادعوا أنه ينتمى إلى ولايتهم ، فطالبوا بجثمانه ونقلوه فى آخر المطاف مع جثمان زوجته ربيكا إلى كنتكى ليدفن فى ضريح تحت نصب مهيب فى مدافن فرانكفورت .

وفى عام ١٩١٥ تم مشروع يتمثل فى وضع علامات تبين خط السير الذى اجتازه « بون » عبر ولايات كارولينا الشمالية وفيرجينيا وتنيسى وكنتكى ، فوضعت العلامة الأولى على ضفة نهر يادكين حيث كان دانيال قد دبر أموره ليفتتح طريق البرية العامة ، ووضعت العلامة الأخيرة فى نهاية الطريق عند لونزبورو . ومما لا شك فيه أن المشروع كان بمثابة اعتراف مناسب بفضل رجل على البلاد هو « دانيال بون » الذى يعد من أعظم وأشهر رواد الولايات المتحدة الأمريكية الأوائل .



هذا الرجل كان قائداً بالمولد .. لم يكن جورج روجز كلارك ذو الساقين الطويلتين، والشعر الأحمر يشعر بسعادة قط فى حياته مثلما كان يشعر بها حينما كان يسير على رأس حملة عبر أراضى نهر «وباش» لكى يستولى على حصن «فينسن» من البريطانيين فى عام ١٧٧٩ .. ذلك الاستيلاء الذى كان بداية لفتح الإقليم الشمالى الغربى — شمالى أوهايو — لاستيطان الأمريكيين .

وتوجد الآن بالقرب من نهر «وباش» فى مدينة «فينسين» بولاية إنديانا قبة من الرخام مقامة على ستة عشر عموداً لتخليد هذا النصر المبين . وفى داخل القبة توجد على الجدران سبع لوحات زيتية تصور بعض مشاهد معارك الانتصار ، كما يوجد فى وسط الردهة الفسيحة تمثال من البرونز للقائد العظيم كلارك . وبالقرب من هذه الذكرى الخالدة توجد كاتدرائية سانت فرانسيس اكسافيير القديمة وفى خلفها توجد المدافن التابعة لها حيث يرقد المبشرون والمستوطنون الفرنسيون والهنود والجنود الذين كانوا ذات مرة أصدقاء لجورج روجرز كلارك .

الفصل الثانى

جورج روجز كلارك

بطـل فينسن

(١٧٥٢ — ١٨١٨)

كان جورج روجز كلارك فى طفولته رشيق الحركة ، جريئاً ، يصعب على ذويه السيطرة عليه ، وجعله ينكب على الدراسة .. وكان جورج كلارك الطفل الثانى لوالديه من بين عشرة أطفال أنجباهم فى مزرعة بالقرب من مدينة شارلوتسفيل بفرجينيا .. وكان من المألوف أن يرث شقيقه البكر المزرعة ، فترك جورج ذو الشعر الأحمر ليفعل ما يشاء .

فماذا سيختار له من مهنة حينما يكبر ؟ لقــــد أحب الصيد و نصب الفخاخ ، واكتشاف الغابات ، كما أحب الحيوانات لدرجة بات معها يفكر فى بعض الأحيان فى أن يصبح طبيباً بيطرياً ، وأحب أيضاً الحدادة واعتبرها مهنة مناسبة لـكى يمارسها .

وفى النهاية استقر رأيه على أن يكون مساحا للأراضى، فيقوم بتحديد مساحتها وشكلها وموقعها وحدودها ، وكانت مهنة تخطيط الأراضى حرفة يمارسها عدد كبير من الشبان فى عهد الاستعمار ، ذلك لأنها جعلتهم يتوجهون إلى البرية بصحبة جماعات من المـكتشفين، ونمت فيهم حب المغامرة .. صحيح إنه كان

هناك فى بعض الأحيان اشتباكات بينهم وبين الهنود ، ولكن كان هناك أيضا الوقت الكافى لصيد الحيوانات والأسماك ، والمغامرة الجميلة فى عبور أقاليم جديدة .

وبينما كان جورج فى إحدى رحلاته للقيام بمسح الأراضى ، عرض عليه دافيد جونز – وكان مبشراً للهنود من مورافيا — أن يرافقه فى السفر بنهر أوهايو ، فاستقل الاثنان زورقا تجاريا ضخما يبلغ طوله ستين قدما وعرضه أربع أقدام ، وكان المبشر رجلا مثقفا فتعلم منه جورج الكثير عن مسايرة الهنود ، كما تعلم منه قدرا وافرا من التاريخ . ومع أن جورج لم يكن مولعا كثيرا بالدراسة ، فإنه كان شغوفا بدروس التاريخ فى المدرسة .. لقد كان معلمه يلقى دروس التاريخ عن طريق قص الحكايات ، وكان لكل قصة بطل ، ولكن جورج لم تكن لديه أية فكرة بأنه سيصبح بطلا فى يوم من الأيام ، يدون اسمه فى كتب التاريخ الأمريكى .

وظل جورج يمارس مهنة مسح الأراضى حتى بلغ الرابعة والعشرين من عمره ، وأصبح أكثر شغفا باكتشاف بلاد جديدة لاسيما أن الأهالى كانوا يتحدثون عن وجود أراض فى الغرب ، وأن الكثيرين من المستوطنين يهاجرون إلى كنتكى .

وحينما بدأت الثورة الأمريكية كانت المستعمرات فى كنتكى تتعرض لخطر محدق من جانب الحصون البريطانية فى الشمال والغرب ، وحرض البريطانيون الهنود على غزو المستعمرات ، فانتشرت قصص مخيفة عن معازل أحرقها الهنود عن بكرة أبيها ، وعن مستوطنين — من بينهم النساء والأطفال — جمعوا

جماجمهم بعد أن قتلوهم ذبحـــا . ولكى يشعر المستوطنون — الأمريكيون بالطمأنينة كان لابد لهم من الاستيلاء على الحصون البريطانية .

وكان «باتريك هنرى» حاكم فرجينيا، فذهب إليه جورج وطلب منه السماح له بأن يتوجه على رأس حملة لمهاجمة أخطر ثلاث قلاع بريطانية هى : كاسكاسكيا وكاهوكيا فى إقليم إلينوى، وفينسن على نهر وباش فى المنطقة التى أصبحت تعرف فيما بعد بإقليم إنديانا . وكان جورج وقتئذ قد اكتسب دراية عظيمة فى فن الحرب، لأنه ساهم فى حملة «لورد دنمور» ضد الهنود فى عام ١٧٧٤ وسافر فى ربوع إقليم كنتكى لحساب شركة أوهايو ، واشترك فى بعض الاشتباكات هناك ، وأرادت شركة أوهايو أن تمتد مستعمرات فرجينيا غرباً ، ولم تفت أحد ملاحظة تصميم الناس إذ ذاك على الهجرة نحو الغرب.. لقد كانت الولايات المتحدة آخذة فى التوسع، وكان كلارك الشاب يشغل وظيفة مندوب كى يمثل كنتكى فى المحادثات التى ستسفر فى النهاية عن فصلها عن إقليم فرجينيا وجعلها دولة مستقلة ، فقال الحاكم هنرى : « ألا تعلمنى بعض الشىء عن هذه القلاع الثلاث؟» قال جورج : « لقد نشأت القلاع الثلاث منذ زمن بعيد كمستعمرات فرنسية . . وكان الذى أنشأها هم بعض المرسلين من الآباء اليسوعيين .

وفى أثناء الحروب التى دارت رحاها خلال العقد السادس من القرن الثامن عشر ، انتزعها البريطانيون من يد الفرنسيين وبنوا فيها الحصون .. وأعتقد أنه إذا ما أعطيت لى قوة صغيرة من الرجال فسأستطيع الاستيلاء عليها. والبريطانيون لا يتوقعون متاعب من جانبها لأننا بعيدون كثيراً عنهم ، كما أن القلاع محصنة بقوات صغيرة » .

... وسأله الحاكم : « كم جندياً ستحتاج ؟ » .

فأجاب جورج : « حوالى مائتى جندى » .

وزوده بالمال والمعدات والمؤن .وفى عام ١٧٧٨ تم لجورج كلارك الاستيلاء على القلاع البريطانية الثلاث ، وكان جورج قد توجه على رأس قوة تتألف من حوالى مائة وخمسة وسبعين جندياً .. وكان يتميز بموهبة القيادة ، وبمقدرة فائقة على تكوين أصدقاء له ، وبالصلابة وقت الشدة ، وبالاستقامة ، وبمعاملة جميع الجنود معاملة تتسم بالاحترام وإمعان النظر . . وهب لنجدته ثلاثة زعماء فرنسيين ذوى نفوذ عظيم هم:فرانسيس فيجو،وفرانسوا بوسيرون تاجرا الفراء الشهيران ، والقس اليسوعى المحبوب الأب بيير جيبو .

وحينما انتهى القتال وتم لجورج كلارك روجرز الاستيلاء على القلاع الثلاث وتحصينها بالجنود الأمريكيين انصرف الزعماء الفرنسيون الثلاثة بعد أن قالوا لصديقهم : « لاتتردد فى طلب أى شىء تكون فى حاجة إليه . » وكان الأب جيبو يقضى فصل الشتاء فى كاسكاسكيا فعزم جورج على أن يقضى هو الآخر فصل الشتاء هناك، لأنه أراد أن يظل قريباً من الحصون لمراقبتها ،ولأن يغتنم الفرصة ليكون على معرفة أفضل بالأب جيبو الذى أعجب به كثيراً .

وعندما أشرف النصف الأول من فصل الشتاء على الانتهاء جاء رسول إلى كاسكاسكيا يحمل معه أنباء سيئة . . قال الرسول لجورج كلارك : « لقد استولى القائد هاملتون المشترى للجماجم مرة أخرى على فينسن ! » ثم تنهد وواصل كلامه قائلا: « وهو يقول لك :إنك لن تستطيع استردادها ! ومعه عدد

كثير من الجنود البريطانيين .. وهم يقومون الآن برشوة الهنود لكي يتحركوا ضد المستوطنين الأمريكيين » .

وكان جورج كلارك يستمع إلى الرسول وعيناه تقدحان شرراً .. لقد كان يعرف أنه لن يستطيع التأجيل حتى فصل الربيع ، وأنه ينبغي له أن يجرد قوة في الحال ويزحف للقتال ضد البريطانيين . ووعده أصدقاؤه الأقوياء فيجو وبوسيرون والأب جيبو — بمد يد العون له .. فقام فيجو وبوسيرون بتزويده بالمال والمؤن والذخيرة والمعدات ، وقام الأب جيبو بالمساعدة في تجريد قوة من الفرنسيين تقوم بالزحف مع الأمريكيين .

وكانت فينسن على بعد مائتي ميل . . وكان فصل الشتاء على أشده كما كانت مساحة كبيرة من الإقليم الذي يتحتم على الجيش أن يقطعه مغطاة بالثلج ، وبالإضافة إلى ذلك كانت توجد على بعد مسافة خمسة أمثال من فينسن منطقة مليئة بالمستنقعات ، وبعدد وافر من الجداول الضحلة . وهذا يعني أن على الجيش الأمريكي أن يجتاز بعناء خمسة أميال من هـــذه المستنقعات حتى يتمكن من الوصول إلى الحصن . . يعني كذلك أن هـذه الأميال الخمسة ستكون أسوأ ما في الرحلة ، لأن الأمطار التي تهطل خلال شهر فبراير تغرق المستنقعات المتجمدة فتزيد الطين بلة حينما يقوم الجيش الأمريكي بالسير عليها .

وفي ٧ فبراير عام ١٧٧٩ قاد جورج حملته التي تتألف من عدد يقل عن مائتي جندي من كاسكاسكيا .. وحدث أن قال بعد ذلك : « كنت أتمنى أن أعمل سبع سنوات مثل العبد في سبيل الحصول على جيش يتكون من خمسمائة جندي لمواجهة البريطانيين » .

وحدث أيضا أن سأل بعضهم أحـد الجنود عقب ذلك بسنوات : « هل كنتم خائفين ؟ »

أجاب الجندى : « كلا . . لقد كنا على استعداد أن نتبعه إلى أى مكان . لقد عرف دائماً ما يجب عليه أن يفعله ، كما أنه لم يطلب قط من أى جندى أى شيء لا يعمله هو بنفسه . . لقد كان دائماً أول من ينزل إلى طريق مظلمة ، وأول من يضع قدمه فى جدول . . لقد كان سباقا فى الذهاب من أجل اختبار الخط ، كما كان يفاخر « بأنه غير هياب من أى شيء ! » .

وكانت بداية الرحلة عبر «إلينوى» تشتمل على منطقة مرتفعة صلبة متجمدة تحت الثلوج ، وكان المشى عليها سهلا بالرغم من أن الجنود كانوا بطبيعة الحال يشعرون بالبرد والإنهاك فى الليل حينما كانوا يجتمعون حول نيران معسكراتهم :

ولـكن الأرض المغمورة حاولت أن تتحمل ثقلهم بشدة . . وكانوا قد أمضوا أربعة أيام فى عبور الأميال الخمسة من المستنقعات ، بينما الأمطار القارسة تلفح وجوههم وهم يجتازونها ويدفعون مؤنهم ومعداتهم أمامهم فى زوارق الهنود . . وكانوا أثناء الليل ينامون على تلال صغيرة موحلة تبرز فى المياه المتجمدة . . ولأنه لم تـكن توجد أماكن جافة يستطيعون أن يقيموا عليها ناراً لمعسكراتهم فإنهم لسوء حظهم كانوا ينامون على أفضل وجه يستطيعونه بملابسهم المبتلة ، بينما كانت معدهم تؤلمهم من البرد والجراية الزهيدة المخصصة للعشاء .

وهنا قال كلارك فى قرارة نفسه : « ينبغى لى أن أحافظ على روحهم المعنوية عالية » . وحاول جهده فى سبيل ذلك . . فقد كان يمازحهم وهو

يتعثر أمامهم فى الوحل والمياه، ويقفز القفزات ليجعلهم يضحكون ، ويلوث وجهه بمزيج من الوحل وكحل البارود، ويصرخ صراخاً عالياً مثل الهنود ، وكان الجنود يقلدونه فى ذلك مثل الاطفال، ويتبعونه حيثما يسير . وفى بعض الأحيان كانوا يغنون معاً أغانى قومية ومدائح الرواد وأناشيد قديمة ينشدها الجيش. إن هؤلاء الجنود لن ينسوا أبداً زحفهم عبر الأراضى المغمورة بالمستنقعات، كما أنهم لن ينسوا طوال حياتهم ذلك الجندى العملاق ذا العينين الزرقاوين والشعر الأحمر الذى شجعهم على مواصلة سيرهم بإغرائهم على الضحك وغناء الأناشيد .

وفى ٢٣ فبراير لاح لهم حصن « فينسن » ، وكاد صياد فرنسى كان مختبئاً فى الأجمة ليصطاد البط — يفقد صوابه حينما رأى نفسه محاطاً فجأة بجنود ملطخين بالوحل ذوى أعين متعبة ولحى منفوشة ، وقاموا بمخاطبته بلغة غريبة لم يفهمها ثم توجه إليه من بين أفراد الجيش بعض الجنود الفرنسيين وتحدثوا إليه بلغته . لقد حدثوه بأن يحمل رسالة إلى الشعب الفرنسى فى « فينسن » يبلغهم فيهــــا أن الجنود الأمريكيين باتوا على بعد قريب منهم .

وقالوا له : إن الذى يقودنا هو القائد « كلارك » ، وهو صديق حميم للأب جيبو الذى كلفنا بأن نعلمكم بوجوب إطاعة أوامره » .

وأومأ صياد البط برأسه لأنه كان قد فهم حديثهم على ما يبدو .

ثم قالوا له : « وكذلك قم بإبلاغ أفراد الشعب أن يظلوا فى منازلهم حينما يأخذ الأمريكيون والفرنسيون بحصار المدينة والاستيلاء عليها مرة ثانية » ، ووعدهم الصياد بأن يفعل ذلك بينما كانت عيناه تضطربان ، ثم توجه راكضاً لإبلاغ الرسالة .. وهكذا قام المستوطنون بإطاعة هذه الأوامر كلها حرفياً .

وفى نفس تلك الليلة حاصر « كلارك » وجنوده الحصن وفتحوا نيران بنادقهم عليه .. واعتقد البريطانيون فى الظلام أن القوة المهاجمة كانت أكبر مما كانت عليه بالفعل .. وكان الرصاص المنطلق من بنادق الأمريكيين يصيب الجنود البريطانيين إصابات دقيقة وقاتلة ، فلم يسع « هاملتون » إلا أن يسلم فى النهاية .

ومنذ ذلك الحين لم يسقط حصن « فينسن » فى يد البريطانيين قط .. ولا يزال الكثير من المعالم القديمة شاهداً على ذلك فى البلدة التى تدعى الآن « فينسن » بولاية إنديانا .. كما لا تزال توجد كنيسة الأب جيبو وكاتدرائية القديس فرانسيس أكسافيير القديمتين ، وفى المدافن الفرنسية لا تزال تشاهد بضعة آثار قديمة تدل على ذلك ، كما يوجد فى المكان نصب جميل أقيم تخليدا لذكرى البطل الراحل جورج روجرز كلارك .

وقد عين جورج روجرز كلارك مفوضا لدى الهنود ومنح مساحة من أرض إنديانا وكان يأتى إليه فى بعض الأحيان زوار غريبو الأطوار ، وذات مرة زاره شاب يدعى جون جيمس أو ديبون وطلب إليه السماح له بدراسة الطيور فى مزرعته، كما زاره أخوه الأصغر وليام كلارك وكان فى طريقه إلى الغرب مع صديق له يدعى ميريويذر لويس فى رحلة استقصائية للرئيس الأمريكى جيفرسون . وفى عام ١٨١٢ منحته ولاية فرجينيا معاشا سنويا قدره أربعمائة دولار عاش به قانعا فى منزل بمفرده .. ولعله كان يستطيع العيش مع شقيقته فى منزلها المريح فى مدينة لويسفيل بولاية كنتكى ، ولكنه فضل أن يكون وحيداً .

وذات يوم نزلت بلية بالجندى العجوز ، إذ زلت قدمه وسقط مغشيا عليه ،

بينما كان يقوم بإصلاح نار الموقد فأصابته حروق شديدة بسبب الجمر ؛ وحدث أن زاره آنذاك أحد جيرانه ووجده على هذه الحالة فاستدعى له فى الحال طبيبا قال له حينما رآه : « ينبغى لنا أن نبتر لك إحدى ساقيك ، وستكون العملية مؤلمة للغاية فلا بد لك من أن تتشجع » .

ولم تكن المخدرات موجودة فى عهد كلارك ، فطلب أن يقوم أحد نافخى القرب وأحد ضاربى الطبل بالسير حول منزله مراراً وهما يعزفان على آلتيهم ، بينما يقوم الجراح ببتر ساقه، ثم شد على أسنانه واستلقى على ظهره ليتحمل الألم. وعاش جورج سنوات حياته السبع الأخيرة فى مقعد ذى عجلات . وفى ١٣ فبراير سنة ١٨١٨ توفى عن عمر يناهز السادسة والستين فى منزل شقيقته، فدفن فى مقبرة أسرتها الخاصة بمدينة لويسفيل .

وحينما قررت له ولاية فرجينيا معاشاً منحته أيضاً سيفاً قبضته مرصعة بنسر ذهبى ونصله محفور عليه :

« تقدم ولاية فرجينيا هذا السيف اعترافاً بجميل ابنها المحبوب جورج روجرز كلارك الذى بفتحه لولاية الينوى واستيلائه على حصن فينسن قد جعل امبراطوريتها تمتد ، وساعد فى الدفاع عن حرياتها » .



طالما فكرنا فى هذين الزعيمين معاً ، ولعلهما يحبذان ذلك . وكان أحدهما مرحاً أنيساً ، والآخر هادئاً منعزلا ، وهما ميريويذر لويس ووليام كلارك ، قائد الحملة التى أرسلها الرئيس توماس جيفرسون فى عام ١٨٠٤ ، لاكتشاف الأراضى الواقعة غربى نهر المسيسبى .

وكان لويس الذى يصغر كلارك بأربع سنوات هو القائد الرسمى للفرقة ، ولكنه كان دائماً يعتبر الملازم كلارك شريكا له فى القيادة ، ويناديه بالقائد كلارك كما كان يفعل سائر الرجال . .

وكانت حملة لويس وكلارك منظمة تنظيماً ممتازاً ، وتم تنفيذها بدقة ونظام أى مشروع حربى . . وكانت العلاقة بين القائدين قائمة على الاحترام والصداقة المتبادلين ، كما كان تصرفهما نحو رجالهما ، ونحو الهنود الذين قابلوهما يدعو إلى الإعجاب التام . . ولقد كانا يؤمنان بمشاركة الجميع فى المرح والمسئولية والفخر بنجاح حملة كان من شأنها أن تفتح البلاد بين نهر المسيسبى والمحيط الهادى لاستيطان الأمريكيين وتجارتهم . . لقد كان لويس وكلارك أول رجلين من البيض يعبران القارة ويصلان إلى شواطىء المحيط الهادى .

الفصل الثالث

ميريو يذر لويس

(١٧٧٤ — ١٨٠٩)

ووليام كلارك

(١٧٧٠ — ١٨٣٨)

قائدا حملة عظيمة

ليس كل تلميذ يدرس التاريخ يجد اسم شقيقة مطبوعاً على صفحات الكتاب الذى يدرس فيه .. ولكن وليام كلارك وجد ذلك ، وفى بعض الأحيان كان يتساءل عما إذا كانت هذه المصادفة تنطوى على الحظ الذى يعتقد به بعض الناس أم لا ؟ لقد كان وليام كلارك ذا شعر أحمر مثل شقيقة جورج روجرز كلارك ، وولد حينما كان أخوه فى الثامنة عشرة ... وهكذا بات التلاميذ الآخرون الذين كانوا يقرأون عن فتح القائد كلارك للاقليم الشمالى الغربى — ينظرون إلى وليام نظرة حسد .

وكان أعضاء الأسرة الكبار يتغنون بقول مأثور هو : « إن الأخوين كلارك سيظل اسماهما يذكران بعد عهديهما » ، وكان هذا مما يضايق وليام الشاب ، لأنهم سينظرون دائماً إلى كوخه الأحمر المشرق نظرة ملؤها الإكبار .. لأن اسمه أن سيظل يذكر بعد عصره ؟ لقد كان وليام تلميذاً عادياً مولعاً بالصيد تماما مثل معظم التلاميذ الودودين المسالمين ، أما فيما يتعلق بالشجاعة ،

فقد كان يعتقد أنه يمتلكها كأغلب الأولاد ، كما كان مولعا بقصص الهنود والمغامرات ، شأنه فى ذلك شأن الآخرين .

وحينما كان وليام فى سن المراهقة ، اشترك فى بعض الغزوات ضد الهنود ، فأبدى مقدرة فائقة وأصبح ضابطا فى الجيش وهو لايزال فى سن التاسعة عشرة . وكان من بين الزعماء الذين عمل تحت قيادتهم الجزال أنطونى وين الذى كان يتشاجر مع زملائه من الضباط ويأمرهم بالتفانى فى خدمته ، وكان وليام يعمل كشافا له . . وذات مرة قام بحراسة قافلة تتألف من سبعمائة حصان محملة بالمؤن من نهر أوهايو إلى حصن جرينفيل .

وبينما كانت القافلة فى مسيرها ، قتل هنود ميامى الحارس الأمامى للقافلة وحاولوا أن يبثوا الذعر بين الخيول . . ولكن وليام كلارك اندفع بصحبة الحارس الخلفى من خلال الأجمات وأنقذ المؤن .

وفى عام ١٧٩٥ كان وليام فى مدينة جرينفيل عقب معركة «فولين تيمبرز» ينظر إلى الهنود وهم يتخلون للولايات المتحدة عن جميع الأراضى التى تنحدر مياهها إلى نهر أوهايو ، فشاهد رؤساء القبائل العظام « ليل تارتل » و « ليذر ليبس » و « بلاك هوف » و « بلوجا كيت » و « تارهى ذا كرين » ودهش لأسمائهم الغريبة .

وكان « ليل تارتل » و بلوجا كيت » قد قادا الهنود ضد الجنرال وين ، ولكن « تارتل » أصبح الآن يحث شعبه على عقد صلح مع هذا « الزعيم الذى لايعرف للنوم طعماً » ، وبينما كان يوقع على المعاهدة قال : « إنى آخر رجل يوقع على هذه المعاهدة ، وسأكون آخر رجل يخالف نصوصها » .

ولم يبد على « بلوجا كيت » مثل هذه الملاحظة المطمئنة ، ولكنه ظهر متجهم البأس فحسب ، وكان « ليذرليبس » — وهو من مواليد مدينة هيرون ، مسالماً للبيض ، فحافظ على السلم بإخلاص بعد توقيعه على المعاهدة .

وكان « كاتا هيكاسا » أو « بلاك هوف » أحد زعماء قبيلة « شونى » العظام الذين شهدوا هزيمة برادوك فى عام ١٧٥٥ ، فلم يقم بشىء يخل بالسلم عقب المعاهدة مع أنطونى وين .

ولاحت على محيا « تارهى ذا كرين » طلعة السلم ، وعمل جاهدا من أجل جعل توقيع المعاهدة أمرا ممكنا .. وكان لجميع الهنود بما يتشحون به من دثار وريش وطلاء ، أثر عظيم فى نفس كلارك الشاب وهم يقفون بوقار فى مواجهة الهزيمة . . لقد كان يكن احتراما لهم كرجال لم يفقدوه إطلاقاً .

وكان من بين الضباط الذين يعملون أيضاً تحت قيادة «أنطونى وين » الملازم « ميريوذر لويس » الذى كان صديقا لويليام كلارك منذ أيام طفولتهما، وكان ميريوذر ، شأنه فى ذلك شأن كلارك ، قد ولد من أسرة ريفية فى ولاية فرجينيا والتحق بالجيش صغيراً ، وساهم بنصيبه فى القتال ضد الهنود . وفى عام ١٧٩٤ انضم لويس إلى فرق المتطوعين التى هبت لتخمد ثورة الويسكى حينما تمرد المستوطنون الأسكتلنديون والإيرلنديون فى المقاطعات الواقعة غربى بنسلفانيا ضد الضريبة الجمركية التى فرضها ألكساندر هاملتون ، واستطاعت هذه الفرق التى أنشأها الرئيس واشنطون أن تخمد الثورة، وبذلك أثبتت مقدرة الحكومة الفيدرالية على تطبيق القانون .

وكان «توماس جيفرسون» جارا من ولاية فيرجينيا لأسرة لويس، فقام عقب

انتخابه رئيساً للولايات المتحدة بتعيين لويس سكرتيرا خاصا له . وكان الرئيس جيفرسون يفكر منذ زمن بعيد فى تجريد حملة تتجه إلى الغرب ، فشرع الآن يتحدث عن المشروع جديا . وفى عام ١٨٠٣ تمكن من الحصول على موافقة الكونجرس الذى خصص ٢٥٠٠ دولار من أجل القيام بهذه المغامرة .. وطلب لويس الشاب السماح له بالانضمام إلى الحملة ، فعينه جيفرسون رئيسا لها، وفى ذلك كتب يقول : « إنه يتمتع بشجاعة غير هيابة ، ويمتلك عزيمة وصلابة من أجل الوصول إلى الهدف الذى يسعى إليه ، ولا يمكن لأى شىء سوى المحال أن يثنيه عن تحقيقه » . وطلب لويس أن يصحبه فى هذه الحملة «وليام كلارك» كشريك له فى القيادة ، فكتب إلى صديقه «وليام» بأسلوب من الأدب المعهود فى ذلك العصر يقول :

« إذا ما كان يوجد أى شىء فى هذا المشروع يحملك على مشاركتى فى متاعبه ومخاطره ومفاخره ، فصدقنى إن قلت لك إنه لا يوجد أى إنسان على وجه الأرض أستطيع أن أشعر معه بالبهجة المتساوية لمشاركتى فيها مثلما أشعر بها حينما ترافقوننى . وإنى لأكتب إليك هذه الرسالة بالاتفاق مع الرئيس الأمريكى الذى يعرب عن رغبة أكيدة فى أن تقبلوا الانضمام إلىّ فى هـذا المشروع » .

وأجاب كلارك الشاب على الرسالة بكلمة قصيرة قال فيها : « عزيزى لويس ، إنى أنضم إليك قلبا وقالبا » .

وكانت الحملة التى يرأسها «لويس وكلارك» ترمى إلى تحقيق هدفين : أولهما : الكشف عن ممر برى إلى المحيط الهادى ، وثانيهما : جمع المعلومات عن الأحوال

فى أقصى الغرب . وقبل أن يبدأ الزحف الطويل كان قــــد تم شراء ولاية لويزيانا ، وبذلك تضاعف حجم الولايات المتحدة ، وأصبحت مسألة تخطيط الأراضى الغربية أمراً ينطوى على أهمية أعظم شأنا . لقد كان من شأن شراء الـ ٨٧٥,٠٠٠ ميل مربع من نابليون بونابارت ، امبراطور الفرنسيين ، بمبلغ خمسة عشر مليون دولار ، أن ضاعف وضخم من الأسئلة التى يتحتم على الحملة أن تجد أجوبة لها .

فما الشكل الذى كان عليه الإقليم وقتئذ ؟ لقد كان يمتد تقريبا من لويزيانا إلى كندا ، ومن نهر المسيسبى غربا إلى جبال الروكى . . ولكن ما مدى المسافة إلى المحيط الهادى ؟ وما النهر الذى يقودهم إلى هناك ؟ وهل يمكن للمستوطنين البيض أن يعيشوا فى جميع أنحاء هذه البلاد ؟ وهل كان الهنود يكونون خطرا عليهم ؟ وهل الأرض خصبة ؟ وماذا عن الجو ؟ وهل توجد فيها نباتات وأشجار ومياه وحيوانات برية وحيوانات قنص ؟

لقد كان هناك الكثير من الأسئلة التى تحتاج إلى ردود .. وهكذا كان على هذين القائدين أن يقوما أيضا برسم الخرائط وكتابة المذكرات الدقيقة ..

والواقع أن لويس وكلارك أعدا للحملة بعناية فائقة . . فلم يكن من الصعب عليهما وجود الرجال لأن هذين الضابطين الشابين ذوى القامة الطويلة ، والعينين الثاقبتين ، كانا يتمتعان بشهرة عظيمة واحترام كبير بسبب عدالتهما وشجاعتهما .. وقاما باختيار خمسة وأربعين رجلا من الكثيرين الذين رغبوا

الانضمام إلى الحملة .. وفى شتاء عامى ١٨٠٣و١٨٠٤ توجهوا إلى الجنوبى من سانت لويس عبر نهر المسيسبى ليقوموا بالتمرينات والتدريبات اللازمة . وكان يجب على الحملة أن تقود أى مشروع حربى منظم .. فتم تزويد الرجال بالأسلحة ، كما تم بناء القوارب وشراء الحلى لمبادلتها بعد ذلك بخيول ومؤن مع الهنود .

وفى ربيع عام ١٨٠٤ شرعت حملة لويس وكلارك فى المسير عبر أعالى نهر الميسورى . وفى أواخر فصل الصيف وصلت إلى قرى ماندان بالقرب مما يسمى الآن بمدينة بسمارك فى ولاية داكوتا الشمالية ، حيث أمضوا فصل الشتاء هناك ، وانضم إلى الحملة من بين أهل ماندان الدليل الفرنسى «توسان شاربونو» وكان شاربونو دليلا كفئا ، ولكن قائدى الحملة كانا أكثر إعجاباً بزوجته الهندية البارزة [ساكا جاويا] الهاوية للطيور التى أسموا نهراً باسمها تكريماً لها . . وتدل على ذلك المذكرة التى كان يحتفظ بها لويس وكتب فيها : «لقد أسمينا هذا النهر نهر ساكا جاويا . . المرأة الهاوية للطيور . . تكريما لمترجمتنا السيدة [سنيك] ، وكانت كلمة [سنيك] لفظة أخرى لكلمة : [شوشونى] القبيلة التى تنتمى إليها ساكا جاويا، وقامت بعملها كمترجمة للحملة خير قيام ، بينما كانت ترعى طفلها « بابتست » الذى كانت تحمله إذ ذاك فى مهد على ظهرها .

وقد دون كل من القائدين مذكرات يومية تشجع على القيام بنفس المهمة، وأصبحت بعض المذكرات تحظى بشهرة لا سيما تلك التى كتبها الجاويشان: « باتريك جاس» و«جون أوردواى» وكان أهمها تلك التى كتبها «لويس وكلارك».

لقد كتب هذان القائدان مذكراتهما بضمير حي .. ودونا مذكرات دقيقة عن النباتات والحيوانات والأنهر والجبال لاطلاع الرئيس جيفرسون عليها ، كما كتبا عن البعوض الذى أقض مضاجع الفرقة ، وعن الأوز الذى يتغذى على أعشاب البرارى ، وعن الأزهـــــار ، وشجر العرعر الذين ينبتان على سفوح التلال .

ومع أن هـــذين القائدين كانا يطبقان النظام العسكرى ، فإنهما كانا يرحبان بمقابلة أى الرجال الذين تلم بهم شدة ، وأيضا كانا يعالجان القروح والبثور ، فكتب كلارك يقول : « لقد عالجت المرضى » .. ثم يذكر نوع الأدوية أو الكمادات التى يستعملها ، وقد حظى الهنود الذين قابلوهما بعناية ، ورعاية ودية ، فكتب يقول :

« لقد عالجت أعين الجميع بالقطرة ، فاعتقد جميع أولئك القوم المساكين أنهم استفادوا كثيراً بذلك . » وذات يوم مرضت « سا كا » وطفلها فكانا محل رعاية وعناية فائقين حتى تم شفاؤهما .

واشتد الجو برودة ، وكان لا بد من بذل المزيد من العناية ، فكتب يقول: « لقد تجمدت المياه على المجاديف هذا الصباح ، بينما كان الرجال يجدفون » وذات مساء من أيام شهر أبريل دون فى مذكراته يقول : « حوالى العاشرة صباحا اشتد هبوب الرياح فاضطررنا أن ننبطح أرضا . »

وحتى « أسكانون » ـ كلب القائد لويس الضخم من سلالة « نيوفاوندلاند » ـ الذى جلب السعد للفرقة ـ كان بطلا فى كثير من المغامرات ـ جاء اسمه فى سجل المذكرات .. لقد كتب لويس فى نفس اليوم من شهر أبريل الذى تجمدت فيه

المياه على المجاديف يقول : « لقد كان كلبي غائبا الليلة الماضية ، وكنت أخشى أن نكون قد فقدناه تماما .. ولكنه ما لبث أن انضم إلينا فى الساعة الثامنة من صباح هذا اليوم .. فطربت جداً »

وذات مرة سرق الهنود « اسكانون » ولعلهم سرقوه ليعدوه وليمة فى أحد أعيادهم ، ولكن أصدقاء لويس أعادوه إليه فى الحال .

ولم تقتصر رعاية القائدين لرجالهم على معالجتهما البثور والجروح فحسب . فكتب القائد لويس بعد أن قام بدوره كطاة للجماعة يقول : « لقد جمعت الحطب والماء ثم أسقطت كمية كبيرة من لحم الجاموس الجاف وعملت فطيرة كبيرة لكل رجل احتفاء بهم » .

وواصلت الحملة رحلتها فى نهر ميسورى عبر إقليم « بلا كفيت » إلى بلاد [شوشونى] وعند ما وصلت إلى روافد النهر الثلاثة — أو ما يعرف الآن بولاية مونتانا ـ أطلقوا عليها أسماء ثلاثة سياسيين هم : جيفرسون وماديسون وجلاتين ، ثم واصلوا السفر فى نهر جيفرسون قدر ما استطاعوا من مسافة . . وبمساعدة « كاسا جاويا » قاموا بمساومة هنود قبيلة شوشونى وكان من بينهم شقيقها « كامهوايت » ، على شراء خيول ثم ملئوا زوارقهم بحجارة وأغرقوها فى النهر لتكون فى انتظارهم واستخدامها فى رحلة عودتهم . والآن وقد توفرت لهم الخيول الكافية لحمل الرجال والمؤن والعتاد فقد قاموا بشق طريقهم عبر جبال الروكى حتى وصلوا إلى المنطقة التى منها تبدأ الأنهر تتدفق غرباً . وحينما كان من المتيسر لهم السفر ثانية بالقوارب ، أخذوا يقطعون الأشجار ويبنون الزوارق .. ثم قاموا بترك خيولهم عند هنود أصدقاء لهم ، وركبوا الزوارق ومعهم

أمتعتهم وشرعوا يجدفون فى مياه نهر « كليروونر » إلى نهر « سنيك » الذى أوصلهم إلى إقليم كولومبيا . . وفى إحدى أمسيات شهر نوفمبر من عام ١٨٠٥ استطاع كلارك أن يكتب فى مذكرته :

« إن فرحاً عظيماً يسود المعسكر ، لأننا أصبحنا نشاهد مياه المحيط : مياه المحيط الهادى الذى طالما اشتقنا لرؤيته » .

أجل ، لقد كان المنظر خالداً .. لقد كانت المياه الداكنة ترغى وتزبد وهى تتحطم على الصخور الشهباء . وكان المطر يتساقط مدراراً والرجال جائعين لا يملكون شيئاً يأكلونه فياعدا بعض الجذور والأسماك المجففة ، فأرسلوا للصيد فريقاً منهم عاد بلحم الإبل والغزلان . وبعد ذلك أقام المستكشفون عيداً احتفالاً بالمناسبة ، فأخذ أحد الرجال — وكان فرنسياً يدعى جروزيت — يعزف على الكمان ، كما أخذ « يورك » الخادم الزنجى للقائد كلارك ، يرقص على نغماتها ، وسرعان ماشرع جميـــع الرجال يقفزون فرحاً احتفاء بالعمل العظيم الذى حققته الحملة .

وفى ربيع من عام ١٨٠٦ بدأت الحملة عودتها متجهة إلى الشرق ، وحينما وصلوا إلى المكان الذى أغرقوا فيه زوارقهم انقسمو إلى فريقين ، وساروا فى طريقين كلاهما يؤدى إلى نهر ميسورى عند مصب نهر « يللوستون » ومن هنالك واصلوا رحلتهم مع تيار نهر ميسورى إلى حصن ماندان .

وكان القائد كلارك قد أصبح مولعا بالفتى « بابتيست » بن شاربونو ، وساكا جاويا فقال لشاربونو بطريقته المستقيمة الأنيسة : « حينما يبلغ بابتيست السن

المناسبة أرسله إلى وسأقوم بالإنفاق على تعليمه . » وكانت صلات كلارك بالهنود طوال الرحلة تمتاز بأعظم ما تكون عليه من صداقة بالرغم من أنه كان لزاماً عليه في بعض الأحيان أن يستعمل الشدة والحزم مع هنود قبيلة سيوكس، وكان أن أحبه أحد زعماء قبيلة « والا — وألا » ويدعى « يلبيبيت » لدرجة عظيمة جعلته يهديه « حصاناً أبيض اللون جميلا جداً » ويتمنى لو كان في استطاعة القائد أن يهبه إناء بدلا منه .. وحينما قيل للزعيم إن الحملة لم يعد فيها أي إناء يمكن لها الاستغناء عنه ، أجاب بأنه سيكون مقتنعاً بأي شيء يرى القائد كلارك أنه مناسب لتقديمه له ، وفي هذا كتب كلارك في مذكرته يقول: « . . . لقد وهبته سيفي ومائة رصاصة وكمية من البارود ، كما وهبته بعض الأدوات الصغيرة التي جعلته مسروراً تماماً حسب ما ظهر من ملامحه . »

أما فيما يتعلق بعرض كلارك الودي الخاص بتعليم بابتيست ، فقد تم قبوله فيما بعد .. ويقال إن ذلك الهندي الشاب أصبح دليلا وصياداً مشهوراً كما أصبح من أخلص الأصدقاء لابن كلارك .

وفي ٢٣ سبتمبر عام ١٨٠٦ وصلت حملة لويس وكلارك إلى مدينة سانت لويس بعد أن قطعت مسافة ثمانية آلاف ميل ، فاستقبلها المستوطنون بالهتاف والتهليل ، واعترفوا بأهميتها اعترافاً تاماً . صحيح إن الكساندري ماكنز — وهو رحالة كندي من أصل بريطاني — كان قد نجح في قيادة حملة عبر الخط القاري الفاصل في كندا عام ١٧٩٣ ، ولكن حملة لويس وكلارك كانت أول حملة استطاعت عبور القارة الأمريكية من شرقها إلى غربها .

وفي عام ١٨٠٧ عين القائدان في وظيفتين هامتين ، وكان مقر عملهما

فى مدينة سانت لويس .. لقد عين القائد لويس حاكما لإقليم لويزيانا ، وظل يشغل هـذا المنصب عامين تقريباً .. ولقى حتفه بطريقة غامضة وهو فى طريقه إلى واشنطون العاصمة فى مهمة رسمية .. ووجدت جثته فى إحدى حانات ولاية تينيسى،فاعتقد الناس أنه كان ضحية عصابة ، لأن نقوده وساعته كانت مفقودة .

أما القائد كلارك فقد عين مديراً لشئون الهنود ، وبعد ذلك اشترك فى حرب عام ١٨١٢ ، فقاد حملة ضد البريطانيين والهنود فى وادى الميسيسبى . وبعد أن وضعت الحرب أوزارها عين حاكما لإقليم ميسورى ، فساعد فى المفاوضات الخاصة بعدد من المعاهدات الهامة مع الهنود وكان دائماً يحاول أن يفوز بشروط تضمن لهم معاملة لائقة وإنسانية . . وفى عام ١٨٣٢ ساهم فى إخماد الثورات التى قامت بها قبيلتا « وينيباجو » و« بلاك هوك » . . لقد كان القائد كلارك مشهوراً بين الـكثيرين من قادة الحدود حتى أنه حينما توفى عن عمر يناهز الثامنة والستين حزن عليه البيض والهنود على السواء . . لقد كان حقا رجلا ذا شهرة عظيمة ، وأحد أخوين ذوى شعر أحمر لأسرة كلارك أصبح اسماهما خالدين .

ولعله لم يتذكر هذه النبوءة القديمة ، لأنه كان رجلا وديعاً ولديه الـكثير من المشاغل . وحينما فـكر فى الحملة التى قادها لويس وكلارك — وهى حدث ذو أهمية عظيمة فى التاريخ الأمريكى — كان يتـــذكرها بسرور وسعادة تامين . لقد كانت هذه المغامرة بالنسبة له مجرد رحلة قام بها فى أيام شبابه مع صديقه الطبيب « ميريويذر لويس » .



هذا القائد أحب المغامرة .. فهل كان دخوله بلاد المكسيك التى يمتلكها الأسبان مصادفة أم هى خطة موضوعة ؟ لقد كان يزعم دائماً أن دخوله كان مصادفة .

إنه « زيبلون بايك » الذى عثر على قمة جبل سميت باسمه ، واكتشف الامريكيين مدينة سانتافى الاسبانية التى أصبحت فيما بعد أحد المراكز التجارية الهامة لبلاد الغرب القديم .

الفصل الرابع

زيبلون بايك

رحالة ومغامر

(١٧٧٩ — ١٨١٣)

من ذا الذى كان يتوقع من فتى فى الخامسة عشرة من عمره أن يصبح جندياً أمريكا ؟ لقد انضم زيبلون إلى الجيش الأمريكى وهو صغير وما إن بلغ عامه العشرين حتى أصبح يشغل رتبة ملازم أول فى الجيش الأمريكى للولايات المتحدة . وكان زيبلون ابنا لضابط فى الجيش الأمريكى فى الرابعة عشرة من عمره حينما صدرت الأوامر لفرقة والده بالزحف إلى البلاد الواقعة فى وادى نهر أوهايو لحماية مستعمرات الحدود من الهنود . . وهكذا انتقلت أسرة بايك من منزلها القديم فى نيوجيرسى إلى أوهايو . . وفى العام التالى قبل زيبلون فى فرقة والده كجندى ، وظل يحرز نجاحا حتى أصبح محاربا قديراً يعتمد عليه

وحينما نشب القتال بين الجيش الأمريكى والهنود فى شمال أوهايو ، أرسل زيبلون بالمؤن والمعدات اللازمة إلى الخطوط الأمامية . ولم يشترك زيبلون حينئذ فى القتال ، ولكنه أثبت كفاءته فى نقل المهمات والذخائر إلى الجنود المقاتلين ، فاستحق ثناء خاصا من الجنرال أنطونى دين .. وكان زيبلون يتميز بذكاء مفرط فى شحن سفن التموين وتوجيهها ، وبذلك استطاع أن يجعل

الحصون الأمريكية الواقعة على نهر أوهايو مزودة باستمرار بالمواد الغذائية والذخائر .

وكان زيبلون الضابط فى الجيش شاباً نحيفاً متوسط القامة ، ذا عينين زرقاوين وشعر خفيف متجعد ، وطبع جيد ، فأعجبت به الفتيات . وحينما أصبح فى سن الحادية والعشرين تزوج من ابنة عمه كلارا براون التى كانت فى سن الثامنة عشرة بالرغم من أن والدها لم يوافق على الزواج ولم يصفح عن كلارا إلى بضع سنوات .

وفى عام ١٨٠٥ عين الجنرال جيمس ويلكينسون الملازم الشاب « زيبلون بايك » مسئولا عن حملة أرسلها لاكتشاف أعالى نهر المسيسيبى ، كما زوده بتعليمات لكى يكشف منبع نهر المسيسيبى إذا ما استطاع إلى ذلك سبيلا ويكون أصدقاء له من بين الهنود .

قال له الجنرال ويلكينسون : « قل للهنود إنه يجب عليهم أن يخضعوا للحكم الأمريكى . . إن الرئيس جيفرسون يقول لنا : إنه يتحتم علينا أن نعاملهم بطريقة ودية . . ولكننى أعتقد شخصيا أنه ينبغى لنا أن نمحوهم عن وجه الأرض » .

وقام زيبلون بتركيب أشرعة ومجاديف صندلين وملأهما بالدقيق وطعام الذرة ولحم الخنزير والملح والتبغ والبارود وبعض الأقمشة والسكاكين لتقديمها كهدايا للهنود ثم ركب بصحبة عشرين جندياً ، وغادر مدينة سانت لويس فى أوائل شهر أغسطس متوجها عبر نهر المسيسيبى إلى قرية هندية تقع فى المكان الذى توجد عليه مدينة كيوكوك الحالية بولاية أيوا .

وما إن وصلت الحملة إلى القرية حتى وجدت جماعة من هنود قبيلة

« سوك » يقفون على ضفة النهر دون اكتراث بهم ، وأخذوا يتفرسون فيهم . وحينما خاطبهم زيبلون أجابوه بالفرنسية التي تعلموها من التجار الفرنسيين ، وكان زيبلون قد درس الفرنسية فاستطاع أن يتحدث معهم ثم أعطاهم علما أمريكيا وقال لهم إن أباهم الأبيض الجديد الرئيس جيفرسون قد أرسله إليهم .

واستطاع زيبلون أن يكون صداقة مع هؤلاء الهنود ثم واصل رحلته مع تيار النهر ، ولم يواجه أية صعوبة مع الهنود الآخرين الذين صادفهم . لقد كان زيبلون ذا أخلاق حميدة ، فعامل الهنود برفق ، كما عامل أصدقاءه من البيض . لقد تناول الطعام الذى قدمه له الهنود دون أن يبدى أية ملاحظة ، ونام فى خيامهم ، ومنحهم الهدايا باستمرار ، واستطاع أن يكون أصدقاء له من هنود السوكس الذين كان من الصعب جداً التعامل معهم ، كما استطاع أن يشترى منهم بعض الأرض فى مدينة مينيابولس الحالية ، حيث أقيم فيما بعد حصن « سفلنج » لحماية مقر شركة الفراء الأمريكية .

وحدد زيبلون خطأ إحدى البحيرات كمنبع لنهر المسيسبى مع أن بحيرة « ايتاسكا » التى تبعد قليلا عنها كانت هى المنبع الحقيقى للنهر ، ثم عاد إلى سانت لويس ، وفى عام ١٨٠٦ اكتشف نهر أركانساس .

ثم صدرت إليه الأوامر بأن يستقصى ما تكون عليه الأحوال فى الجزء الشمالى الغربى من إقليم لويزيانا التى كان الأمريكيون قد اشتروها من الفرنسيين ، فتوجه هو وجماعة تتألف من ثلاثة وعشرين رجلا فى قوارب ، واستطاعوا أن يصلوا إليه فى النهاية . . ولكنهم صادفوا مصاعب كبيرة لاسيما وقد كانوا يرتدون ملابس خفيفة للرحلة عبر ما يسمى الآن بولاية

كانساس . . وجاء الخريف فوجدوا أن معظم حيوانات القنص التي كانوا يعتمدون عليها قد هاجرت إلى الجزء الجنوبي لتقضي فصل الشتاء فيه ، ولأنهم لم يأخذوا معهم طعاما كافيا فقد كان الرحال يواجهون خطر المجاعة في بعض الأحيان .

ومع ذلك فقد نجحوا في الوصول إلى المكان الذي يطلق عليه الآن مدينة « بيوبلو » بكولورادو .. فضربوا فيها معسكراً لهم ، وتمكن الصيادون من صيد القليل من حيوانات وطيور القنص ، وشاهد زيبلون بعض الجبال الزرقاء — جبال الروكي — التي كانت تبدو كأنها تبعد عنهم مسافة سفر يوم ، فذهب إليها للاستقصاء . . وفي يوم عيد الشكر من عام ١٨٠٦ تم له اكتشاف القمة التي سميت فيما بعد باسمه تكريما له.. وحاول أن يصعد إلى الجبل ولكنه ضل سبيله فاضطر إلى العودة . وبعد ذلك بأربعة عشر عاماً ؛ أي في عام ١٨٢٠ ، تمكنت جماعة بقيادة الضابط « ستيفن هاريمان لونج » من الصعود إلى القمة فوجدوها مكتظة بغابات الصنوبر المكسوة بالثلوج ومرتفعة عن سطح البحر بحوالي ١٤٠١٠٨ أقدام . . إن قمة « بايك » تعتبر من أشهر معالم ولاية كولورادو .

وبالقرب من المكان الذي توجد فيه مدينة « كانون » الحالية بولاية كولورادو شيد « زيبلون بايك » حصناً من كتل الخشب الضخمة ترك فيه عدداً قليلا من رجاله الذين يعانون شدة البرد ليقضوا دور النقاهة ويستردوا صحتهم . . ثم واصل رحلته مع سائر الجماعة نحو الجنوب .

وفي أواخر يناير من عام ١٨٠٧ وصلوا إلى نهر كبير ، فصاح زيبلون : « ها هو نهر رد » .

ولكن أحد الرجال قال له : « كلا .. ليس هذا هو نهر رد . . وإنما هو نهر ريوجراند .. والبلاد الواقعة على الضفة الأخرى منه هى بلاد المكسيك التابعة لأسبانيا » .

وعاد زيبلون يردد قوله: « إنى لا أزال أقول : إنه « نهر رد » . وأخذت عيناه تتقادحان ، ثم قال : « دعنا نجتازه » .

قال أحد الرجال : « ولكن الأسبانيين لن يسكتوا على ذلك » . ومرة أخرى أخذ زيبلون يقول بإصرار : « إنه نهر رد ولا شأن للاسبانيين به » . واجتازت الجماعة النهر ثم أمرهم بأن يقيموا حصناً يستطيعون فيه حماية أنفسهم ضد غارات الهنود الفاحشة . وعندما تم تشييد الحصن رفع زيبلون العلم الأمريكى عليه .. ثم أرسل فريقاً منهم شمالا ليأتوا بالرجال المرضى من مدينة « كانون » .

ولم يتخلف عن الذهاب سوى تسعة رجال بما فيهم زيبلون نفسه .

وما إن مضت فترة وجيزة حتى كانت مدينة « سانتافى » الصغيرة الواقعة فى البلاد التى تعرف الآن بنيو مكسيكو تهوج وتموج لمنظر الأسرى الأمريكيين التسعة الذين كانوا يرتدون ثياباً مهلهلة ويرغمون على السير فى شوارعها بجانب مائة جندى أسبانى كان الحاكم الانكاستر قد أرسلهم لإحضارهم إليها من الحصن الذى استهجن بناءه من قبلهم على أرض أسبانية .

وكان أهل المدينة المكسيكيون يشيرون إلى هؤلاء الرجال الذين كانوا قد تركوا ملابسهم الرسمية فى مدينة كانون وارتدوا بدلا منها ثياباً

خشنة خاصة بالاستكشاف عندما توجهوا فى رحلتهم الاستقصائيـــــة نحو الجنوب .

وكانوا يستهزئون بهم ويتساءلون قائلين : « هل هذه هى الطريقة التى بها يرتدى الأمريكيون ثيابهم ؟» إنهم يبدون كالهنـود ، إنهم يلبسون ثياباً من الجلد . أليس لهم منازل يسكنون فيها ، وهل يرحلون من مكان إلى آخر كما يفعل الهنود ؟

وكانوا بذلك يقصدون قبائل هنود « بليتز » الرحل الذين كانوا يأتون إليهم للمتاجرة معهم ، لأن الهنود المحليين التابعين لهم كانوا يعيشون فى قرى خاصة بهم بالقرب من مدينة سانتافى .

وكان يبدو أن الأسرى لم يكونوا خائفين بتاتاً .. إذ قام قائدهم — وكان يرتدى حلة زرقاء وحذاء من جلد الإبل ومعطفاً من قماش البطاطين وقبعة من جلد الثعلب — برفع رأسه عالياً وأخذ ينظر إليهم باستغراب ..فرأى مدينة صغيرة منازلها من الطوب اللبن ، مسترخية تحت أشعة الشمس ، مدينة مبانيها متناثرة حول ميدان ريفى ، كذلك كان قصر الحاكم الذى اقتيد إليه مشيدا من اللبن وإن كان أكبر من المدينة قليلا .. فأخذت جماعـة من الهنـود ذوى الشعر المسترسل وقمصان الصيد الزاهية تتفرس فيه ، ولكنه التفت إلى الضباط الأسبان المرتدين زيهم الرسمى الذين ينظرون إليه بازدراء وتمنى لو أنه لم يتخل عن بزته الرسمية .

واستقبل الحاكم الانكاستر القائد «زيبلون بايك» ورجاله ببشاشة فى القصر

المقام من اللبن . . . وحاول زيبلون ألا يحدق بالسجاد الفاخر المفروش على أرضه واللوحات الزيقية المعلقة على جدرانه . . فمن ذا الذى كان يعتقد أنه سيجد حضارة قائمة فى هذه البرية ؟ .

وقال الحاكم لزيبلون بايك بالفرنسية : « إنكم تعتدون على أملاك غيركم » . . ثم طلب أن يؤتى إليه بأوراق «بايك» فوجدها تحتوى على مجرد مذكرات عن النباتات والتربة والهنود والأنهر .

وهنا قال زيبلون : « إننا أمريكيون . . وقد قام رئيسنا توماس جيفرسون فى الآونة الأخيرة بشراء مساحة كبيرة فى أراضي المغرب من فرنسا . . إننا فريق من الرحالة أتينا من قبل الرئيس لنعقد صلحاً مع الهنود » .

قال الحاكم : « ولكن هذه البلاد ليست بلاداً فرنسية ، إنها بلاد تابعة لأسبانيا » واعتذر زيبلون بايك عن اجتياز الحدود . . وقبل الحاكم اعتذاره ولكنه قال : إنه ينبغى للأمريكيين أن يمثلوا أمام القائد العام الجنرال دون نميسيو ساسيد وفى تشيهواهوا ويحصلوا على عفو لإطلاق سراحهم .

ووافق بايك على ذلك فى الحال . . وقام الحاكم الانكاستر بدعوته ليكون ضيفه فى حفلة عشاء تقام فى تلك الليلة ، وألقى بايك نظرة ملؤها المرارة على ثيابه الرثة المتسخة بسبب السفر ، وابتسم الحاكم وقدم له قميصاً من الكتان جميلا مطرزا وقال له : « خذه هدية منى » ، وضحك بايك وقبل الهدية وأمضيا ليلة جميلة . لقد قص الانكاستر على الرحالة الأمريكى الكثير عن مدينته ، وكيف تم تأسيسها فى عام ١٦٠٩ من جانب الأسبانيين على أطلال خرائب هندية قديمة — هذه المدينة التى يبلغ عدد سكانها نحو الى

أربعة آلاف وخمسمائة نسمة ، منهم الكهنة والجنود والتجار ، والتى تمارس مع غيرها من المدن فى جنوب بلاد المكسيك تجارة عن طريق نقل بالات من الجلود والفراء على ظهور الخيل والبغال ومبادلتها بالفضة هناك .

واقتادت بايك ثلة من الحرس إلى مدينة «تشيهوا هوا» حيث استجوبه سالسيدو ، القائد العام الأسبانى ، ثم أطلق سراحه عند حدود إقليم لويزيانا .. ولكن مذكراته بقيت فى المكسيك .

ولما وصل إلى أرض الوطن علم بأن صديقه الجنرال ويلكينسون كان فى مأزق ، وأن أرون بير كان مسجونا بتهمة الخيانة والتآمر لتنصيب نفسه أمبراطورا على المنطقة الغربية . لقد كان متهما بتجنيد جيش خاص لانتزاع الوطن من الولايات المتحدة والمكسيك ، كما كانت هناك إشاعات بأن الجنرال ويلكينسون قد يرأس ذلك الجيش . . وحيث أن زيبلون بايك كان صديقاً لو يلكينسون فقد اتهم باشتراكه فى المؤامرة والتجسس فى بلاد المكسيك .

ولم يكن لدى زيبلون مايثبت براءته ، لأن جميع أوراقه كانت قد أخذت منه فى المكسيك ، فذهب فى الحال إلى واشنطون العاصمة ليواجه التهمة ، وطلب أن يقابل وزير الحربية ونجح فى إثبات براءته . وكان الرئيس جيفرسون مهتماً بخبرته ، فاستدعاه لمقابلته وعرض عليه بأسلوب ودى أن يؤلف كتاباً لأن مثل هذا الكتاب قد يشجع المستوطنين على الذهاب والاستيطان فى المنطقة الواقعة غرب نهر المسيسبى .

وكان لمدينة « سانتافى » وقع كبير على زيبلون فلم تذهب قط من مخيلته .

ألم يشاهد فيها السيدات الفاتنات ذوات العيون السوداء ، والثياب الجميلة ، والمجوهرات الفاخرة ؟ ألم يشاهـــد فيها النقود الفضية والأسبانية تشخشخ في جيوب الرجال استعداداً لشراء المزيد من الممتلكات ! يالها من مدينة عظيمة للتجارة !

ونشر «زيبلون بايك» كتابه في عام ١٨٠٨ بعنوان « قصة الحملة إلى منابع نهر المسيسبي والأطراف الغربية لإقليم لويزيانا » وفيه وصف مدينة « سانتافى » .. وصف لـكنائسها وقصر حاكـمها وشعبها ، والمدنية والثقافة العظيمتين اللتين تتمتع بهما .

وقرأ التجار على حدود ميسورى الـكتاب باهتمام عظيم ... فلم تمض سنوات قلائل حتى كانت جماعة من تجار المستوطنين فى طريقها إلى «سانتافى» بحيواناتهم التى تحمل البضائع للمتاجرة بها مع الأسبانيين مقابل فضتهم وذهبهم ، وكان من بين هؤلاء التجار فريق يمثل نفس الشركات التى ساهمت فى جعل مدينة « سانت لويس » أعظم مركز لتجارة الفراء فى العالم .

وكان «زيبلون بايك» قد اشترك فى الحرب التى نشبت عام ١٨١٢ ، وأصبح يشغل فى عام ١٨٢٣ رتبة « زعيم » ، فقاد هجوما على مدينة « يورك » الهامة التى تعرف الآن بمدينة « تورونتو » بكندا . . وكان « الزعيم » زيبلون بايك على ظهر السفينة الأمريكية « ماديسون » التى كانت واحدة من ثلاث عشرة بارجة أمريـكية تحمل الجنود الأمريكيين عبر بحيرة « أونتاريو » ، فلم يسع البريطانيين سوى أن يسلموا للأمريكيين . . وبينما كان « الزعيم » زيبلون وأركان حربه يبحثون شروط تسليم المدينة حدث انفجار مخيف فى مخزن

بريطانى للبارود ، ولم يعلم أحد ما إذا كان هذا قد حدث مصادفة أم كان خطة مبيتة فقد راح ضحيته بضعة جنود بريطانيين واثنان وخمسون جندياً أمريكياً .

أما «الزعيم» زيبلون بايك فقد أصابه كسر كبير فى ظهره بسبب انهيار كتلة حجرية ضخمة من مخزن البارود عليه ، ولقى حتفه فى اليوم التالى يوم ٢٧ أبريل عام ١٨١٣ . . ولم يكن زيبلون بايك قد جاوز حينئذ الرابعة والثلاثين من عمره ، ولكنه احتل مكانا عظيما فى التاريخ كأحد الأبطال المغامرين الشجعان فى عصر رجال الحدود .



هذا الرائد كان جوالا يشبه إلى حد ما بعض المبشرين المتنقلين . ولقد كان يبدو محيراً للرجل البسيط العاقل المجد المادى .. لقد قدم إلى نهر أوهايو فى عام ١٨٠٦ فى زورقين مليئين ببذور التفاح لزراعتها فى الغابات ، فلقبه الرجال باسم « جونى أبلسيد » .. ولمدة أربعين عاماً ظل يهوى زيارة الأشجار والعناية بها .. وإليه يرجع الفضل فى زراعة وادى نهر أوهايو ببساتين التفاح التى تدخل البهجة كل ربيع على قلوب المستوطنين بأزهارها الوردية اللون التى يفوح شذاها فى الأجواء الهادئة .

وأحب الأطفال والحيوانات « جونى » وتبعوه أيان ذهب .. وتوفى عام ١٨٤٧ بالقرب من حصن « وين » بولاية أنديانا . وكان رجلا غريب الأطوار ، هادئا ، دمث الأخلاق، فلم يطلب أن يمنح أى شىء مقابل ما وهبه من خيرات .. إن ذكرى جونى أبلسيد لمن الذكريات التى تفوح بالعطر، كما أن قصته تعتبر أسطورة عظيمة يجب على الأمريكيين ألا يتركوها تخبو أو تنطفىء شعلتها .

الفصل الخامس

جونى أبلسيد الجوال

(١٧٧٤ — ١٨٤٧)

ما كاد أعز وأهم إنسان تعرف عليه فتى وفتاة الحدود ، وأعظم صديق لهما يطل من الغابة ويطأ بقدميه حافة أرض منطقة أوهايو المهدة ، حتى أخـذا يصيحان « هاقد جاء جونى أبلسيد . » ثم شرعا يجريان بحماس ليجدا والديهما. وكان جونى أبلسيد رجلا قصير القامة نحيفاً ، حافى القدمين ، يرتدى فوق سرواله المهلهل جراباً من الـكتان كقميص ويضع « حلة » على رأسه .

وكان على مدار السنة تقريبا يتجول بعيداً عن مسقط رأسه ، لأنه أحب السفر ومشاهدة معالم جديدة ، وتـكوين أصدقاء جدد له . وكان فى الليل ينام أينما يجد مكاناً للنوم .. كان ينام على سقف أحد الأكواخ ، أو فى حجرة فوق اصطبل ، أو فى مغارة،أو فى تجويف جذع شجرة ، وكان ذا شعر مسترسل، لأنه فى ذلك الزمن لم تـكن توجد صالونات حلاقة على حدود إقليم أوهايو .. ولذا فإنه لم يكن من المستهجن أن يرى المرء رجلا بشعر مسترسل بالرغم من أن معظم رجال الحدود كانوا يحلقون ذقونهم .

ولم تـكن الأعمال التى يرتديها « جونى» مستغربة فى ذلك الزمن . . . فإ

غالباً ما كان الرجال الذين يعيشون على الحدود يلبسون ثياباً باهتة مرقعة ، لأنه كان لديهم الكثير من العمل الذى يجب عليهم القيام به ، كقطع الأشجار ، والحراثة ، والبناء ، ولذا فإن الزى لم يكن بالأمر الهام بالنسبة لهم. أما فيما يتعلق بقدمى جونى الحافيتين ، فطالما كان العديدون من رجال الحدود يسيرون حفاة القدمين فى فصل الصيف ، بل إن بعضهم كانوا يمشون على هذا النمط أثناء فصلى الربيع والخريف ، ويلبسون أحذية مصنوعة من جلد الإبل فى فصل الشتاء .

كذلك لم يكن من الأمور الشاذة أن يرتدى « جونى » حلة على رأسه لأن «حلة» الطهى كانت جزءاً حيوياً من معدات الرائد ، لاسيا وأنه لم يكن لديه حصان يحمل أجهزته . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن ارتداء « الحلة » على رأسه كان يمثل نوعاً من المزاح الذى يشارك به الأطفال ، ويترك يديه طليقتين لاستخدامهما فى إزاحة أغصان الأشجار من طريقه وحمل أمتعته التى كانت غريبة فى نوعها . وكان معظم رجال الحدود يحملون فى تجوالهم بندقية، ولكن جونى أبلسيد كان يتنقل بين أنحاء الريف دون أى سلاح ، وكل ما كان يحمله من أشياء كان يتألف من كيس ملىء ببذور التفاح ، وكراسات دينية يوزعها على الناس الذين يصادفهم فى طريقه، لأنه كان رجلا تقياً جدا ، ويحب أن يتحدث عما يقرؤه فى الكتاب المقدس .

لقد آمن «جونى أبلسيد» بمحبة جميع الجنس البشرى، وبالطيور، وبالحيوانات، وبالحشرات الهائمة على البر أو الدندنة .. إنه لم يأكل لحماً قط ، لأن ذلك

بالنسبة له كان يعنى قتل بعض الحيوانات التى كان يدعى أن ليس لأحد الحق فى قتلها .

وأحب الأطفال لأنه كان وديعاً حليماً ، وكان دائماً لديه الوقت للجلوس معهم والتحدث والاستماع إليهم بانتباه ، فإذا ما كان الشىء الذى يقولونه هاماً بالنسبة لهم ، كان هاماً بالنسبة له أيضاً .

وكانت الحيوانات تحب « جونى » أيضاً .. فإذا وقف عند كوخ فسرعان ما يأتى كلب الأسرة وقطتها ويمكثان بجانبه أو يتبعانه أينما ذهب . ولقد قيل إن حيوانات الغابة المفترسة لم تحاول قط أن تؤذيه ، وأن الحيوانات الأكثر ألفة كانت تتبعه لتجد له طريقاً ، حينما يمر فى الجزء التابع لها من البرية .

ولد جونى أبلسيد فى عام ١٧٧٤ ، بولاية ماساشوستس ، وأطلق عليه والده اسم جون تشابمان . وكان والده أحد رجال الثورة الأمريكية . أما جونى فقد نشأ قلقاً فى عصر كان فيه الشباب التواقين للمغامرة يسافرون نحو الغرب .

وهكذا غادر جونى منزله فى مدينة ليومينستر بماساشوستس وتوجه إلى الغرب : إلى مدينة بيتسبرج بإقليم بنسلفانيا ليعمل عند صاحب مشتل . وكان يعشق زراعة الأشجار وتربيتها . وحينما ادخر المال الكافى اشترى مزرعة وغرس فيها أشجار التفاح . وكان الرواد المسافرون عبر مدينة بيتسبرج فى طريقهم إلى أوهايو يقفون عند مزرعته ، ويستريحون فى ظل أشجار بستانه ، ويطلبون منه شراء غراس يأخذونها معهم ، لأنهم كانوا يرغبون فى

زراعة بساتين التفاح بتلك الأوطان المجهولة التى كانوا يزمعون أن يقيموها على الحدود .

وكان « جونى» يسألهم عما تعلموه أو سمعوا به عن أوهايو ، فلم يستطيعوا أن يجيبوا على أغلب أسئلته . . كان يسألهم عن نوع التربة الموجودة فى الإقليم وعن مناخه ، لأنه كان يريد أن يعرف ذلك لكى يستطيع أن يزود المسافرين بالتعليمات المناسبة الخاصة بالعناية بأشجارهم ، وكان جونى أيضاً يهتم بمعرفة نوع الحياة الدينية التى يعيشونها . . . هل يطالعون الكتاب المقدس بإخلاص ؟ هل هناك مبشرون وكنائس فى إقليم أوهايو ؟

وعزم «جونى أبلسيد» فى آخر المطاف على أن يذهب إلى هناك بنفسه ليرى الإقليم على الطبيعة . . وحمل على ظهره كيساً مملوءاً ببذور التفاح بعد أن كلف شقيقه بإدارة المزرعة ، ثم سافر إلى أوهايو . . وكان ذلك فى عام ١٨٠٠ ، ولم يكن « جونى » إذ ذاك يتجاوز السادسة والعشرين بعد . . وحينما وصل إلى الإقليم قام ببيع بذور التفاح للذين يستطيعون شراءها ، أما أولئك الذين لم يستطيعوا شراءها ، فقد منحها لهم دون مقابل .

وبعد مرور ستة أعوام ، أى فى عام ١٨٠٦ ، عاد إلى أوهايو ، وكان فى هذه المرة قد جاء ومعه زورقان مليئان بأكياس بذور التفاح ، وهكذا كان جونى أبلسيد يوزع بذور التفاح على السكان مضافة إلى عمله فى غرس البساتين فى البرارى .

وكان من الغريب على المرء أن يرى هذا الرجل يهب الأشياء بلا مقابل

فى الوقت الذى كان فيه الرجال الآخرون ينتزعون الأرض بحماس ويطردون الهنود منها .

صحيح إنه حينما وصل « جونى » إلى إقليمى أوهايو وإنديانا وجد أشجار التفاح التى غرسها أوائل المستوطنين الفرنسيين منذ مائتى عام نابتة فيها . بيد أنه بفضل الجهود المشكورة التى بذلها « جونى » أصبح يوجد فيها المزيد من أمثال هذه الأشجار . . أصبحت توجد فيها بساتين التفاح تغطى سفوح وقمم التلال ، وتملأ الجـــــو بعبير أزاهيرها فى فصل الربيع ، وثمارها الناضجة فى فصل الخريف .

ياله من عمل عظيم ذلك الذى حققه «جونى» فى الحياة المنعزلة على الحدود ! لقد كان طيلة أربعين عاماً يقوم بزرع الأشجار وبالرحلات العديدة ذهاباً وإياباً من مسقط رأسه بينسلفانيا إلى أوهايو وإلينوى ليتفقد مشاتل التفاح فى الغابات ويشذب الأشجار ويعتنى بها، ويساعد المئات من المستوطنين فى إنشاء بساتين خاصة بهم .

وكان «جونى» رجلا على درجة كبيرة من دماثة الخلق والوداعة ، حتى أن الهنود الذين كانوا ينظرون نظرة مريبة إلى البيض رحبوا به فى منازلهم وعاملوه كصديق لهم . وكانوا يعتقدون أنه طبيب فسمحوا له بمعالجة آلامهم . ولم يمارس «جون» نشاطاً يختلف عن نشاطه العادى سوى مرة واحدة فى حياته ، وكان ذلك فى حرب سنة ١٨١٢ حينما عدا مسافة ثلاثين ميلا ليحصل على مساعدة من الجيش الأمريكى لمدينة مانسفيلد بولاية أوهايو التى كانت مهددة بغزو من جانب الهنود .

لقد عاش « جونى » سبعين عاماً و نيفا يتجول دائماً من مكان إلى آخر لايستقر فى منزل خاص به قط . وتوفى عن عمر يبلغ الثالثة والسبعين تقريباً بينما كان بمفرده فى كوخ مهجور بسبب إصابته بالتهاب رئوى ، كان يطلق عليه سكان الحدود « الحمى الرئوية » . وحينما كان مريضاً كانت سيدة من جيرانه تعتنى به قدر استطاعتها ، ولكن الأشخاص الذين كانوا يصابون « بالحمى الرئوية » قلما كانوا يشفون منها فى تلك الأيام .

وتوفى «جونى» بالقرب من حصن« وين» بولاية إنديانا فى ٢٢ مارس ١٨٤٧ وتوجد فى مركز الحراسة التابع لحصن وين لافتة كتب عليها « توفى بالقرب من هذا المكان عن عمر كبير مستر (جون تشابمان) الشهير بجونى أبلسيد » .

وقبل وفاة «جونى أبلسيد» انتشرت الأساطير عنه : عن شذوذه الخير ، وعن كراهيته لامتلاك العقارات ، وعن عادة ممارسته لإلقاء العظات القصيرة ، وعن سلوكه مع الحيوانات .

وحزن عليه الأطفال حزناً شديداً . . ذلك لأنهم علموا أنه لن يأتى قط ثانية من الأحراش إلى كوخ مشيد مكان أشجار فى الغابة مصحوباً بشبل ثعلب، أو بديك برى ، أو بظبى صغير . . لقد أصبح يرقد فى هذا المكان ذلك الرجل الذى زرع بذور التفاح ، وعرف كيف يعتنى بالأشجار الصغيرة ويحافظ عليها حية سليمة ، كما عرف الشىء الكثير عن الأعشاب البرية وغيرها من الحشائش والنباتات التى تشفى المرضى من عللهم . . أما الأمهات فقد كن ينعينه بقولهن : لقد كان رجلا عجوزا مسكيناً » .

وسمع الأطفال هذه الكلمات الرثائية، فأمنعوا التفكير فى جونى الذى زرع البساتين ، وأحبته الحيوانات فتبعته ، والذى عرف الكثير من الأغانى والقصص ، وكانت لديه دائماً قصة جديدة .

لقد كان جونى يقول دائماً : « إنى أرتدى ثياباً مهلهلة هنا فى هذه الحياة الفانية حتى أستطيع أن أرتدى حلة ذهبية فى الحياة الأبدية » .



كان هذا الرجل فناناً طاف البرارى الأمريكية ليدرس الطيور ويرسم صورها . . ولكنه فشل فى عمله لسبب واحد هو أنه كانت تستهويه رفرفة أجنحة الطيور والاستماع إلى تغريداتها . . إنه « جون جيمس أودبون » مؤلف كتاب « طيور أمريكا » الذى لا يباريه أى كتاب آخر فى هذا الميدان .

الفصل السادس

جون جيمس أوديبون

رسام الطيور

(١٧٨٥ — ١٨٥١)

كان « جين أوديبون » ربانًا فرنسيًا ، ورجلا موسرًا يمتلك عقاراته في فرنسا وأمريكا ، فتبنى هو وزوجته « آن » في ٧ مارس عام ١٧٩٤ غلامًا أسمياه جون جيمس . وكان هناك تغزطفيف يتعلق بماضي الغلام : فبعضهم ظن أنه ابن الربان أوديبون من زوجة خلاسية توفيت في جزيرة هايتي ، والبعض الآخر ممن لا حظوا أنه لا يشبه الربان ، تناقلوا فيما بينهم أغرب قصة خيالية ، فكانوا يقولون إنه ربما يكون ولي العهد المفقود لعرش فرنسا. صحيح إنه حينما أطيح برأس لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت أثناء الثورة الفرنسية اختفى الابن الأكبر لهما ، وبات الناس يعتقدون أنه تم اختطافه إلى أمريكا ، لأن هذا الابن المرح النحيف الجميل الذي تبناه الربان أوديبون كان قد جيء به من مكان ما من نصف الكرة الغربية ، ولأن ولي العهد الفرنسي كان مغرمًا بالطيور البرية لدرجة كبيرة تماثل غرام جون جيمس أوديبون بها .

ويسر الربان أوديبون لجون ثقافة جيدة ، أملا في أن يصبح ضابطا بحريًا في يوم من الأيام .. ولكن الغلام حبذ التجوال في الغابات ليرقب الطيور

البرية ويرسمها . وتعلم الغلام العزف على الناى وتقليد زقزقة العصافير ..
وكانت توجد غابات بالقرب من منزل آل أوديبون بمدينة نانتس ، فملأ
الكثير من كراسات الرسم بدراسات عن الطيور البرية ، لقد رسم الطيور
وهى محلقة فى الجو أو وهى جاثمة على أغصان الأشجار .. وكان بعض هذه
الصور قد رسمها بالقلم الرصاص أو بالطباشير الملونة،وبعضها الآخر بالألوان المائية
وغالباً ما كان يجعلها تحتوى على ظلال خلفية تتمثل فى مساحة صغيرة من ورق
الأشجار والفواكه أو التوت البرى .

وحينما قارب جون السابعة عشرة أرسله والده إلى أمريكا ليساعد
فى إدارة «ميل جروف» ، من أعمال أوديبون بالقرب من مدينةفيلادلفيا التى
كان يملكها ذات يوم « وليام بن » وقد أسماها جون الشاب « بقعة مباركة
حيث صيد الحيوانات والطيور والأسماك والرسم يشغل كل دقيقة لدى »
ولحسن الطالع كانت المزرعة تديرها أسرة كفء تنتمى لطائفة الكويكرز ،
فسايرت ابن صاحب المزرعة ، وتركته طليقاً ليقوم باكتشاف برارى
بنسلفانيا الجميلة .. وهنا فى هذه البرارى أمضى جون الشاب الساعات
الطوال فى اقتفاء أثر نهر« باركيومن» ومعرفة الكثير عن طيور أمريكا البرية
كالأبوام والصقور والغزلان وطيور البلشون وغيرها من الطيور البديعة
ذات الأجنحة المرفرفة .

وكان « جون » يحب المزاح والرقص ، فكون له أصدقاء بسهولة من
بين الشباب . وكان حينما يذهب إلى الحفلات يرتدى الملابس الفاخرة ..
كان يرتدى قميصا مكشكشاً ، وسترة سوداء مصنوعة من قماش الساتان ،

وسروالا « بنطلوناً » قصيراً ، وحذاء ذا أبزيم فضى .. ووقع فى غرام « لوسى بيكويل » ابنة أحد الجيران ، ولكن والدها لم يعجبه هذا الغرام ، لأنه كان يشعر بأن الشاب الذى يتزوج ابنته لا بد بصورة أن يكون مهتما بالحياة أكثر من رسم الطيور .

ومع ذلك فقد تزوج «جون» من« لوسى» ، وكان زواجهما سعيدا ... وكانت »لوسى» حليمة وعاقلة . تعطف على جون فى تلهفه على رسم الطيور .

ولفترة من الزمن حاول جون الشاب أن يكون ناجحاً فى عمله ، فذهب مع زوجته الشابة ليعيشا بمدينة لويسفيل بولاية كنتكى حيث قام جون وصديق له بالعمل فى مخزن تجارى بالقرب من منزل جورج روجرز كلارك بطل معركة فينسن الشهيرة . وحينما توجه كلارك بعد ذلك ليعيش مع أسرة شقيقته فى لويسفيل ، كان « جون أوديبون » دائماً يستقبل بكل ترحاب للتجول فى الغابات الموجودة بأراضيهم .

ولم يمض وقت طويل حتى كان جون قد أقفل المحل التجارى وأخذ يرقب الطيور البرية .. لأن الرحلات التجارية فى البلاد النائية كانت قد استرعت انتباهه إلى طيور جديدة . وكان فى كل مساء يدون فى يومياته أسماء الطيور التى شاهدها وعاداتها ، مثل طير أبى الحن ، والفراخ الهندية البرية ، وطيرأبى النقار ذى المنقار العاجى اللون .. لقد وجد فى كنتكى بلاداً ساحرة وكان شاباً موهوباً محباً لرسم الطيور البرية .. فأخـــذ يشعر فى بعض الأحيان بما يكون عليه الفردوس من أجنحة مرفرفة وأغان ساحرة وهو جالس على جذع شجرة، أو حجر ضخم ، منهمكا فى وضع الخطوط الأولية لرسوماته .

لقد كان المتجر ـ بما فيه من أقمشة مكدسة وسجلات وطلبات تجارية تستغرق وقته ـ يبدو بعيدا عن تفكيره .. لقد كانت هذه البرارى وهذه الطيور المبهجة المغردة هى كل ما يشغل باله من حقائق واقعية .

وذات يوم جاء رجل يدعى « ألكساندر ويلسون » إلى لويسفيل ليجمع الاشتراكات لكتاب ألفه عن الطيور الأمريكية .. وسرجون أيما سرور للاجتماع بشخص يتميز بالميول التى يتميز بها هو .. وكان فقيرا جدا بحيث لم يستطع شراء الكتاب ، ولكنه اصطحبه فى رحلة صيد وأراه بعض رسوماته وهيأت له زيارة « ويلسون » فكرة : فلماذا لا ينشر كتاباً عن رسوماته للطيور الأمريكية ؟ وكان حتى ذلك الحين قد أنجز عددا كبيرا منها .. فإذا ما احتفظ بأفضلها فسوف تكون كافية لكتاب ينشر فى يوم من الأيام .

ومرة أخرى ، وهو فى رحلة إلى فرانكفورت تتعلق بأعماله ، أقام أوديبون بفندق فى غرفة واحدة مع دانيال بون ، فلاحظ دهشا كيف أن هذا الصياد العجوز رفض أن ينام على سرير وطوى بطانية ونام بها على الأرض . وكان بون قصاصاً ماهرا ، فلم يسع جون الشاب إلا أن يستمع إليه بكل إعجاب ، بينما أخذ يقص عليه مغامراته مع الهنود فى براري كنتكى .

لقد كان المتجر فى لوزيسفيل مشروعا فاشلا ، فهجره جون أوديبون وشريكه وأسسا محلا تجارياً آخر فى مدينة أندرسون التى تبعد مسافة تزيد على المائة ميل عن نهر أوهايو ، وانتقلت أسرة أوديبون : جون ولوسى وابنهما الطفل فيكتور إلى هناك فى قارب يجدفه نوتيان . . واستغرقت الرحلة يومين راقب خلالها أوديبون الطيور البرية والغزلان ورسمها .

وكان « جون» فى ذلك الحين قد كف عن ارتداء الملابس الفاخرة ، وأخذ يرتدى بدلا منها حلة من النوع الذى يلبسه أولئك الذين يسكنون أقاصى المعمور من البلاد : حلة تتألف من قميص وسروال مصنوعين من جلد الغزال وحذاء من جلد الإبل ، وحزام تتدلى منه مدية فى غمدها . ومن محله التجارى بهندرسون كان يقوم برحلات على ظهر حصان إلى الغابات ليتاجر مع صائدى الحيوانات والهنود ، فأصبح صديقاً لقبائل « أوساج » وتعلم لغتهم ، كما علموه كيفية استخدام الحشائش البرية والجذور كعقاقير طبية ، وعلموه صناعة الألوان .

وبعد ذلك بزمن قصير ، بينما كان فى رحلة تجارية إلى ولاية ميسورى عرج على منزل دانيال بون لزيارته وقضى معه وقتاً ممتعاً ، وحينما عاد هذا الفنان إلى مدينة هندرسون رسم من مخيلته صورة لبون وهو يرتدى « كرافاتة » حمراء جميلة . . ثم قام بعد ذلك بنسخ الصورة وأظهر « الكرافاتة » بأبهتها باستخدامه مادة التلوين الثابتة التى تعلم كيفية تركيبها من هنود « الأوساج » .

وكان يرافقه فى معظم رحلاته من أجل الرسم فى الغابات بالقرب من هندرسون كلبه « زفير » ، وهو كلب صيد ماهر ، وكان يحتفظ بحصان يدعى « بارو » من سلالة خيل عربية أصيلة جلبها إلى البرارى الغربية المكتشفون الإسبان .. ومع أن بارو لم يكن جميلا بقدر ما كان أسلافه ، فإنه كان يمتاز بوداعته وبالسماح للوصى بأن تركبه على الطريق الوعرة فى رحلاتها إلى الأراضى المهجورة . . أما الحصان فقد كان ذكياً جداً وقوياً ويستطيع السباحة جيدا ، حينما يكون جون راكباً على ظهره ، ولا ترهبه أو تزعجه طلقات الرصاص الصادرة من بنادق الصيادين . وكان « بارو » يحب أن يأكل بيض الدجاج والقرع ،

مضافين إلى طعامه العادى .. وكانت جبهته بارزة ، ومعرفته متشابكة ، وذيله خفيفاً ومع ذلك فقد كان آل أوديبون يحبونه . . وحينما باعه الرجل لجون أديبون قال له : « إنه وديع مثل الدريئة المتقاطعة ، وماهر مثل حيوان الأبسوم فى البحث عن بيض الديوك الرومية » .

ولم يكن العمل بهندرسون ناجحاً ، فقام بتصفية الشركة بعد مجازفة بولاية ميسورى . وكانت لديه مجموعة تتألف من بضع مئات لرسوم الطيور البرية ، ولكن لسوء طالعه كانت الجرذان قد دخلت فى صندوق يحتوى على الكثير منها فقرضتها وأتلفتها ، فقام بتصوير الرسوم مرة أخرى ، واستغرق فى ذلك ثلاث سنوات .

وانتقلت أسرة أوديبون إلى لويزيانا حيث قام جون برسم الأشخاص ، وأخذ يعطى دروساً فى الرسم والرقص ليكسب المال ، بينما أخذت زوجته لوسى تعلم فى إحدى المدارس . وكان قد رزق منها بعدد من الأولاد ، ولكن لم يعش لهما منهم إلا صبيان ، هما : فيكتور وجون (الابن) . وبالرغم من أن زوجته كانت تدرس فى مدرسة لتعول نفسها وابنيها فإن زوجها لم يكن رجلا خاملا ، لقد كان يعمل بجد فى رسم الطيور ، ويعانى الكثير من الصعاب أثناء رحلاته الطويلة فى البرارى بحثاً عن أشياء جديدة ، وغالباً ما كان يهيم على وجهه جائعاً دون فلس واحد فى جيبه ، ومع ذلك فإنه حاول غاية جهده ، ولكنه فشل فى استمالة الناشرين الأمريكيين إلى فكرته الخاصة بنشر كتاب عنها .

ولما لم يستطع أوديبون أن يجد ناشراً أمريكيا ، توجه فى عام ١٨٢٦ إلى انجلترا وأقام بمدينة ليفربول معرضاً عاماً للوحاته . . وقام جمهور

غفير بدفع رسم الدخول ليشاهدوا الصور الرائعة المليئة بالحياة ، وليحظوا برؤية ذلك الفنان الوسيم الذى نال إعجابهم ، والذى يتسم بأخلاق رفيعة ويتكلم بلهجة فرنسية بالرغم من أنه كان يرتدى معطفاً من جلد الذئاب فوق ثيابه التى يلبسها رجال الحدود . وكان أوديبون فى الحادية والأربعين ولا يزال مليئاً بالنشاط يتدفق بالحماسة ، فأخذ يلقى محاضرات عن الطيور وعن الطرق التى يتبعها فى عمل رسوماته .. ولاحظ الزوار باهتمام شديد عيون الطيور التى رسمها بالألوان ، ولاحظوا تلك المسحة الدقيقة البارزة التى تضفى عليها ذلك المظهر الفطرى المتيقظ الذى يجعل عيون الطيور تبدو مختلفة عن عيون البشر . ولا يزال الناس فى عصرنا الحاضر يجدون عيون هذه الطيور ساحرة . لقد رسم جميع موضوعاته بحيث أضفى عليها مناظر خلفية من أوراق الأشجار والزهور والتوت البرى جعلتها تبدو كأنها تنطق بالحياة وتتأهب للتغريد .

وكانت مغامرات أوديبون أثناء رحلات صيد الطيور تمثل قصصاً جديدة يحكيها إلى مشاهدى معرضه من البريطانيين . وكانت إحدى القصص التى حازت إعجاب المشاهدين بصفة خاصة قصة اصطياد أحد الدببة فى منطقة شونى ، فقد حدث ذات مرة أن قام الفنان وصياد هندى بمتابعة بعض آثار الدببة فى غابة حتى وصلا فى النهاية إلى جذع شجرة ضخم مجوف يمتد على الأرض .. وما إن توقفا عنده حتى قال الهندى للرسام أن يتسلق شجرة قريبة لكى يكون بعيداً عن نظر الدب ، ثم استل مديته وزحف إلى داخل الجذع المجوف ، وما هى إلا لحظات حتى خرج يجر وراءه دباً مذبوحاً ، وكان الهندى يتعرض لخطر كبير أثناء دخوله برأسه فى جوف الجذع حيث كان

أخذ الدببة نائما .. فلو أن الدب كان قد جفل بسبب دخول الصياد الهندى ، أو لو أنه كان مستيقظاً وفى طريقه إلى الخلاء عند دخوله لواجه ضيقاً شديداً .

وكان أوديبون دائماً يختم قصته بقوله : لو أن ماحدث كان مع صياد من البيض لظل يتحدث عن مثل هذا العمل العظيم إلى الأبد . ولكن كل مافعله صديقى الهندى أنه أخذ بجر الدب بعرق دالية معكوف قوى ثم سلخه وعلقه على شجرة لكى تراه النساء ويعتنين به .. ثم قمنا بمواصلة رحلة الصيد .

وقام أحد الناشرين الإنجليز بطبع كتابه « طيور أمريكا البرية » فى أربعة مجلدات تشتمل على الفترة من عام ١٨٢٧ حتى عام ١٨٣٨ وأخذ أوديبون يبيع الاشتراكات لكتابه ، ويقال إن أحد هذه المجلدات الأصلية يساوى الآن أكثر من ألف دولار .. وكانت هذه الكتب ضخمة الحجم يبلغ مقاسها ٤٠ بوصة طولا فى ٢٦ بوصة عرضاً وتحتوى على ٤٣٥ صورة ملونة بالحجم الطبيعى .

وقام بحفر الكليشيهات فنان يدعى روبرت هافيل ، كما قام فيما بعد «وليام ما جيلفراى » بمساعدة صديق من علماء التاريخ الطبيعى وأوديبون نفسه بوضع النص الذى يتناسب مع صور هذه المجلدات .

وأقبل الشعب فى انجلترا وفرنسا على شراء هذه الكتب بحماس ، فأصبح أوديبون رجلا مشهوراً ، ولكنه لم يصبح ثريا . لقد كان يضطر فى كثير من الأحيان إلى رسم بعض الصور لكى يستطيع الحصول على قليل من المال . . لقد

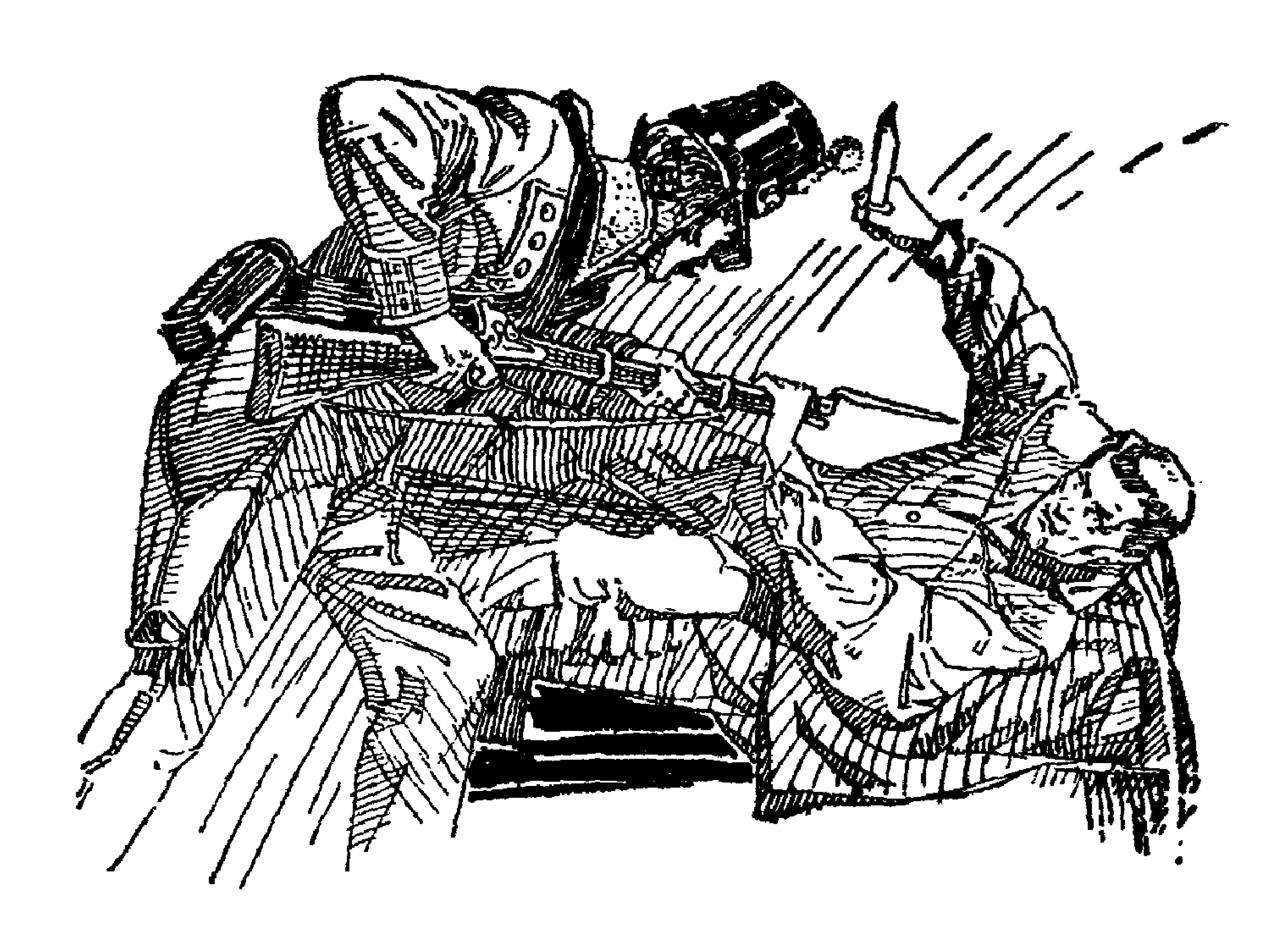
ذهب إلى ولاية فلوريدا ليرسم طيور البجع على الطبيعة .. وبينما كان ذات مرة في رحلة تصويرية فى ربوع تكساس صادف أن تقابل مع « سام هاوستون » بطل معركة سان جا كينتو ، الذى أبدى اهتماماً عظيما برسوماته .

واشترى أوديبون عزبة صغيرة على ضفة نهر هدسون فى الطرف الشمالى من مدينة نيويورك ، فكان له فى النهاية منزل لأسرته . وكانت آخر سنوات حياته مليئة بالسعادة،إذ كان أحفاده يكبرون ويمرحون حوله ويحبون الاستماع إلى موسيقى الناى التى يعزف عليها تلك النغمات الفرنسية القديمة التى طالما أحبها وهو طفل ، وتوفى جون أوديبون فى عام ١٨٥١ وهو يقوم مع صديق له ، بتأليف كتاب عن حيوانات أمريكا الشمالية ، ولكن ولداه فيكتور وجون ساعدا فيما بعد على إنجاز هذا العمل .

ولعل جون جيمس أوديبون كان قد ساهم أكثر من أى إنسان آخر فى إثارة اهتمام الأمريكيين بطيور بلادهم البرية عن طريق نشر رسوماته وأعماله المجيدة فى العديد من طبعات الكتب ، ففى عام ١٩٠٥ أسست جمعية أوديبون وكرست جهودها فى العمل على المحافظة على التربة والمياه والأرض والحياة فى البرارى .. وفى عام ١٩١٠ تأسست للصغار من الفتيان والفتيات أندية أديبون التى ينتمى إليها أطفال عديدون فى أوروبا وأفريقيا واستراليا وفى الأمريكتين ، وتقوم شركة أوديبون للسينما والسياحة بعرض محاضرات وأفلام ملونة تصور حياة ومناظر البرارى الأمريكية فى العديد من المدن الأمريكية ، كما تقوم شركة أوديبون للسياحة فى البرارى بنقل الأشخاص لزيارة المواطن العديدة لهذه الطيور الموجـــودة فى الكثير من الولايات . وفى ولايتى كنتكى

ولويزيانا توجد حدائق سميت بحدائق أوديبون تخليداً لذكرى الرجل العظيم جون أوديبون ، كما أن مجلة أوديبون هى المجلة الرسمية للجمعية التى أطلقت على نفسها اسم ذلك الرجل الفرنسى الوسيم الذى ربما كان — وربما لم يكن — ابن ملك ، ولـــكنه كان من المؤكد أعظم رسام للطيور أنجبتـــــه أمريكا حتى الآن .

أما فيما يتعلق بالسر الخاص بسلسلة نسب جون أوديبون ، الذى كان قد أخبره به الربان « جان أوديبون » ، فقد دفن معه ولم يكشف عنه لأحد . فهل كان هو ولى العهد المفقود أم لا ؟ من الأرجح أنه لم يكن .. بيد أن هذه اللمسة الزهيدة من الغموض حيرت أمريكا المتاخمة للحدود ، كما أنها أضافت ، ولا تزال تضيف ، قليـــلا من الرونق الجميل إلى قصته .



هذا القائد ابتكر سلاحاً مشهوراً هو خنجر باوى الذى استخدم وقلد على نطاق واسع ، وكان يحمله قراصنة نهر الميسيسبى ، ووجده جوالو تكساس الذين كانوا مكلفين بحماية مناطق الحدود سلاحاً مفيداً ، وفى عصرنا الحاضر كانت الخناجر التى استخدمها الفدائيون أثناء الحرب العالمية الثانية منقولة عن خنجر « جيم » وقد ظهر جيم شخصيا مع خنجره آخر مرة فى القتال الذى دارت رحاه بمعركة ألامو .

الفصل السابع

جيم باوى

مبتكر الخنجر

(١٧٩٩ — ١٨٣٦)

صاح جيم باوى ذو الشعر الأحمر : « ها قد آذيت نفسك يارزين ؟ » ثم رمى سكين الصيد من يده وركض ليلقى نظرة على يد شقيقه التى كان الدم يتدفق منها . وكان الصبيان منهمكين فى ممارسة لعبة رجال الحدود المحبوبة ـ لعبة رمى سكين الصيد على هدف معين ـ فانزلقت يد رزين عن قبضة السكين محدثة بذلك جرحاً بليغاً على طول راحة يده .

وبينما كانا عائدين إلى المنزل لإسعافه ، قال رزين لجيم بشىء من الحزن : « ينبغى لأحد الناس أن يقوم بتصميم وسيلة تحول دون انزلاق اليد عن قبضة السكين » .

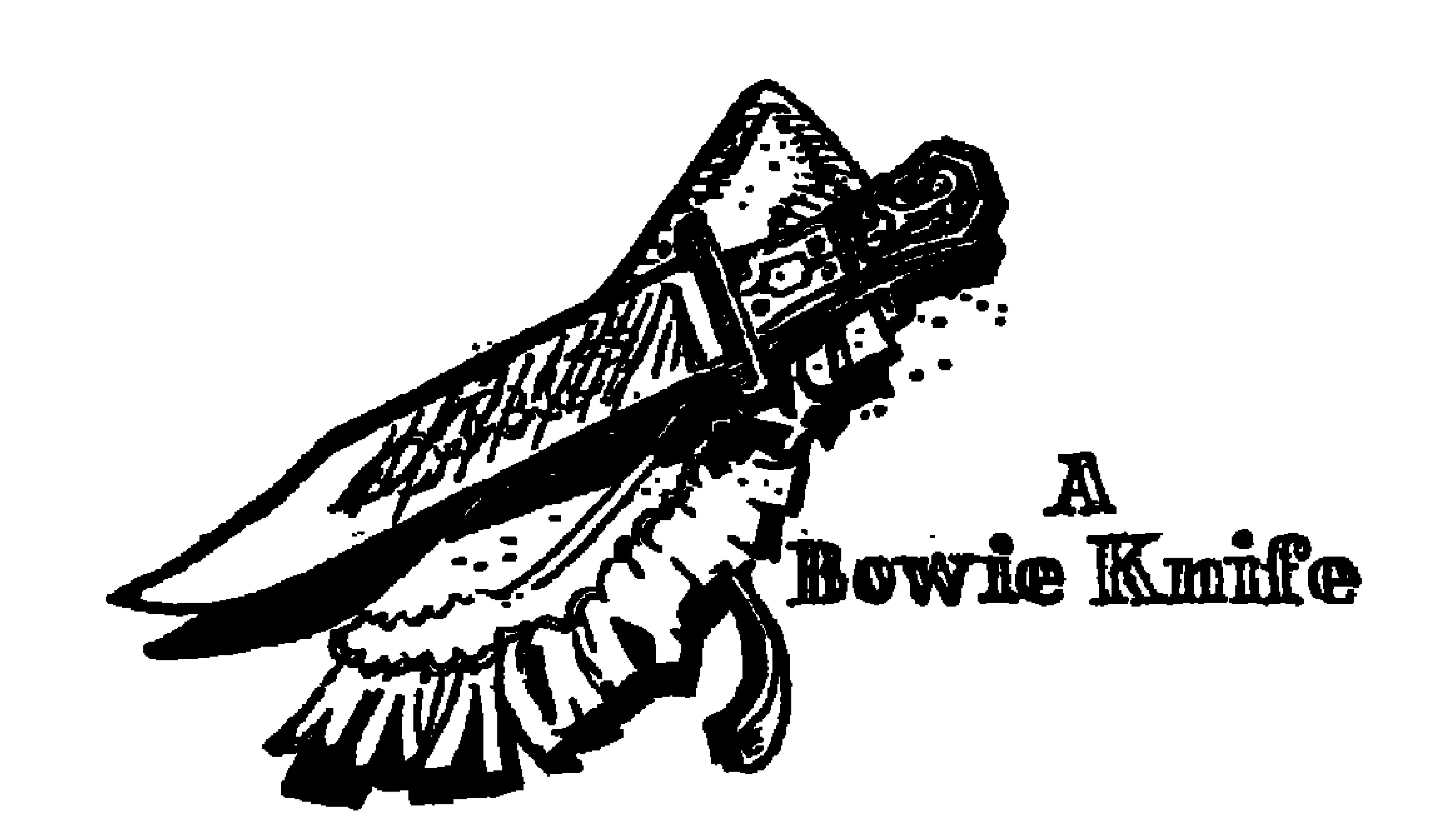
وكان رزين هو الأخ المفضل لجيم . . وكانا مولعين بالصيد معاً ، ولكنهما لم يحبا الدروس التى كانت والدتهما ترغمانهما على مذاكرتها . وكانت والدتهما مصممة على أن يحصل جميع أبنائها الخمسة على قسط من الثقافة ، فأخذت تدرسهما بنفسها الحساب وعلم النحو والصرف واللغة اللاتينية ، وتشجعهم على قراءة الكتاب المقدس وكتاب « سياحة المسيحى » لبانيان ، ومسرحيات شكسبير .

وكان الصبيـة يقومون بمساعدة والدهم فى مزرعته بلويزيانا فيعملون فى زراعة وتربية وجمع القطن والتبغ وقصب السكر .

ولـكن جيم ورزين أصبح يشغل بالهما مشروع جـديد يتمثل فى وضع تصميم لخنجر صيد جيد مأمون الجانب،ولم يكن الأمر سهلا . . وقام حداد المزرعة بصنع عدد من الخناجر وفقاً لإرشاداتهما ، ولـكنهما لم يكونا قانعين بذلك . فقد كان الخنجر يعتبر من أفضل أصدقاء رجل الحدود لأنه كان يستخدمه كأداة من جهة وكسلاح من جهة أخرى .. وكان يضطر أحيانا يسلخ به جلد حيوان برى ، أو يقطع قطعة لحم لعشائه ، أو يزيل حجراً صغيراً عالقاً فى حافر حصانه .. وهكذا كان رجل الحـدود يجب عليه أن يثبت أن خنجر أداة يعتمد عليها كل الاعتماد .

وحينما كان الغلامان فى سن العشرين دخلا معترك الحياة . . وقام جون شقيقهما البـكر بإقراضهما بعض المال فأسسا ورشة نجارة على أحد روافد نهر لويزيانا . . وما إن مرت خمس سنـــوات حتى كانا يمتلـكان ثلاث مزارع يستخدمانها فى زراعة القطن وقصب السكر .. وتزوج رزين، ولـكن جيم أراد أن يقوم بمشاهدة بعض الأشياء التى يمتاز بها الريف قبل أن يستقر قراره

واشتهر جيم — وكان طوله ستة أقدام — ببسالته فى الصيد ، ونصب الفخاخ ، وصولته على الحدود ، ومهارته فى استخدام المدية ، فهابه الناس ولم يجرءوا على التشاجر معه . وفى النهاية استطاع هو وشقيقه رزين أن يضعا تصميماً متقناً للمدية التى طالما كان يتوقان إلى ابتـكارها .. المدية التى تتـكون من نصل من الصلب طولها أربع عشرة بوصة ، وذات حد واحـد حاد جدا يمتد



فى عام ١٨٢٨ توجه جيم باوى إلى مدينة تاكساس وتزوج من أورزليتا دى فيرماندى ذات العينين السوداوين الساحرتين . وكانت أورزليتا ابنة نائب حاكم المدينة ، كما كانت الابنة فى العماد للجنرال المكسيكى أنطونيو لوبيزدى سانتا أنا ، فنعم جيم عامين بحياة سعيدة هادئة .

ثم أصابت الأسرة فاجعة .. فقد حدث أن أخذ وباء الكوليرا الآسيوية ينتشر بمدينة نيو أورليانز ، ولعله كان قد نقل إلى المدينة عن طريق بحارة إحدى السفن القادمة إليها من البحر الأسود . . وما إن مضى أسبوعان حتى راح ضحية هذا الوباء خمسة آلاف شخص .. ثم انتشر الوباء بين الهنود عن طريق تجار الفراء ، فأتى على قبائل هندية بأسرها . . ثم وصلت الكوليرا إلى مدينة تكساس فكان من جملة ضحاياها العديدين زوجة جيم باوى وولداه الصغيران .

وأخذ «جيم باوى» يهاجر من مكان إلى آخر بعد وفاة زوجته .. ولم يقنع أبداً بالبقاء فى مكان واحد مدة طويلة منذ ذلك الحين ، وسمع جيم باوى بوجود منجم للفضة مجهول الموضع فى مكان ما بالقرب من نهر « سان سابا » بمقاطعة أباشى .. وكان يحكى أن الرواد الاسبان هم الذين اكتشفوا هذا المنجم وبدأوا عملياتهم فيه ولكنهم كانوا قد قتلوا بيد الهنود ، وصار منجم « سان سابا » مهجوراً تنبت على مدخله بعض الأعشاب البرية ولقد كانت تنتشر بين الفينة والفينة قصة غريبة عن هذا الكنز ، قصة تجعل أفئدة المستمعين تخفق بسرعة أعظم ، ذلك لأن من يسعده الحظ فيعثر على هذا المنجم القديم سيصبح ثرياً عظيما .

مستقيماً اثنتى عشرة بوصة ، ثم يأخذ فى الانحناء تدريجيا حتى الرأس ، ومؤخره تتألف من قبضة واقية من النحاس الأصفر من شأنها أن تحول دون الانزلاق وقطع يد الإنسان الذى يستعملها .

وكانت أسرة باوى قد سمعت بحداد ماهر جداً فى الصناعة المعدنية يدعى جيمس بلاك . وكان يعمل بمدينة واشنطن بولاية أركنساس ، فأخذ جيم التصميم إليه وهناك فى أركنساس صنع بلاك فى عام ١٨٢٥ تحت إرشاده أول طراز لخنجر باوى ، ذلك الخنجر الذى كان أفضل مدية تم صنعها على الحدود حتى ذلك الحين والذى جلب الشهرة للأسرة .

ومع أن جيم كان رجلا يملك العقارات ، غير أنه أبدى اهتماما بالموضوع وعزم على أن يبحث عن المنجم المفقود . . وقال له جماعة من الهنود الذين تربطهم به صداقة قوية : إنهم يعرفون مكانه ، فخرج ليجده مع شقيقه رزين وتسعة رفاق آخرين .

وفجأة هاجمتهم عصابة من الهنود المعادين ووقعت بين الطرفين فى ذلك اليوم معركة غيرت وجه التاريخ ! لقد استطاع أحد عشر رجلا من رجال الحدود أن يصمدوا للمائة وأربعة وستين هندياً فى معركة حامية طوال يوم بأكمله . . ولما لم يستطع الهنود إحراز أى تقدم ، قاموا بإشعال النار فى العشب الطويل الذى كان بالبرارى محاولين بذلك إحراق رجال الحدود ، ولكن الرجال فوتوا عليهم هدفهم فتغلبوا على بعض النيران وحفروا الخنادق لكى يتمكنوا من أن يدفنوا ما بقى منها تحت التراب . . واستطاعت جماعة جيم أن تقتل ببنادقها خمسين

هنديا وأن تجرح خمسة وثلاثين .. وقتل من رجال جيم رجل واحد وجرح ثلاثة .. وكان هؤلاء الجرحى الثلاثة يحتاجون إلى رعاية طبية ، فكف جيم عن السعى عن منجم الفضة وأخذهم إلى سان أنطونيو . . ومنذ ذلك الحين لم يحاول أبداً أن يجد المنجم المفقود ، كما أنه لم يعلم أحداً قط عن مكان وجوده .. ولما مات جيم مات معه ذلك السر أيضا . والواقع أنه قام عدد كبير من الرجال بالبحث عن « سان سابا » منذ ذلك الحين ، ولكن لم يستطع أحد العثور عليه .

وظل «جيم باوى» بعد ذلك ملازما لإقليم تاكساس ، وأصبح زعيما بين المستوطنين الأمريكيين الذين جاهدوا فى سبيل نيل حريتهم من المكسيك . . لقد كان هو المسئول عن المتطوعين الذين قاموا بمديد العون لوليام ترافيس ولفرقته النظامية يرجع الفضل فى الدفاع عن الحصن الشهير بحصن « ألامو » . و« ألامو » كلمة إسبانية تعنى « شجرة الحور » ، وكان هذا الحصن فى الأصل كنيسة صغيرة ـ تظللها هذه الأشجار ، وقام جيش مكسيكى بقيادة الجنرال «أنطونيو لوبيز دى سانتا أنا» بمحاصرة الحصن بعدد من الرجال يزيد كثيراً على عدد رجال ترافيس ، إذ كان عدد رجال ترافيس مائة وسبعة وثمانين جنديا بينما كان عدد رجال سانتا أنا يتألف من بضعة آلاف .

وكان الجنرال سام هوستون القائد العام للقوات المسلحة لتاكساس ، فطلب إلى رجال حامية الحصن أن يصمدوا للمكسيكيين أطول مدى يستطيعونه ، واستطاع رجال حامية « ألامو » البواسل أن يشغلوا العدو فى

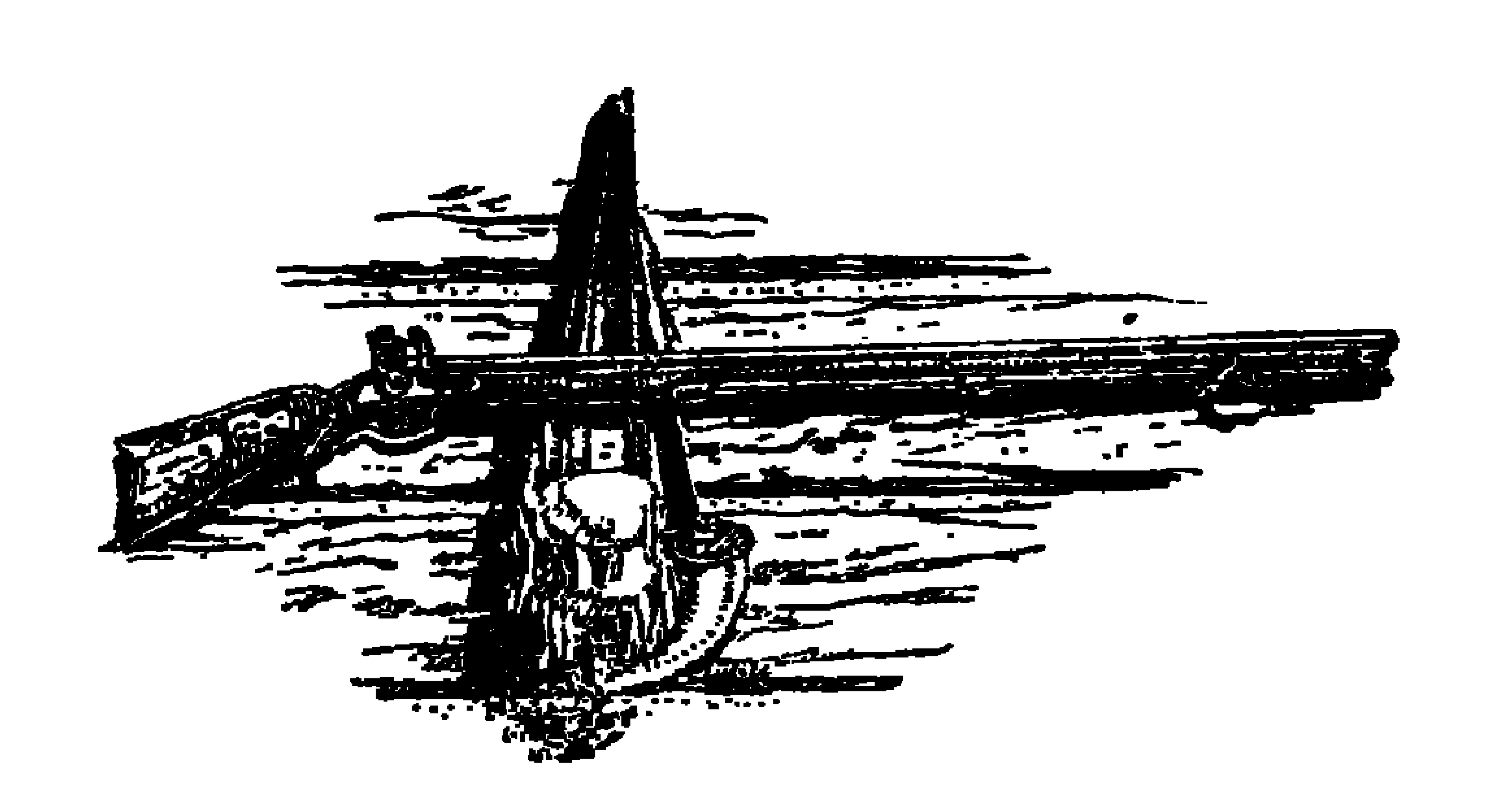
معركة دامت ثلاثة عشر يوما ، وهب للقتال - بالإضافة إلى «جيم باوى» - محارب شهير آخر هو «دافى كروكيت» الذى جعل فرقة المتطوعين من جنود الحدود تعسكر بجانب رجال حامية « ألامو » المنهوكى القوى .

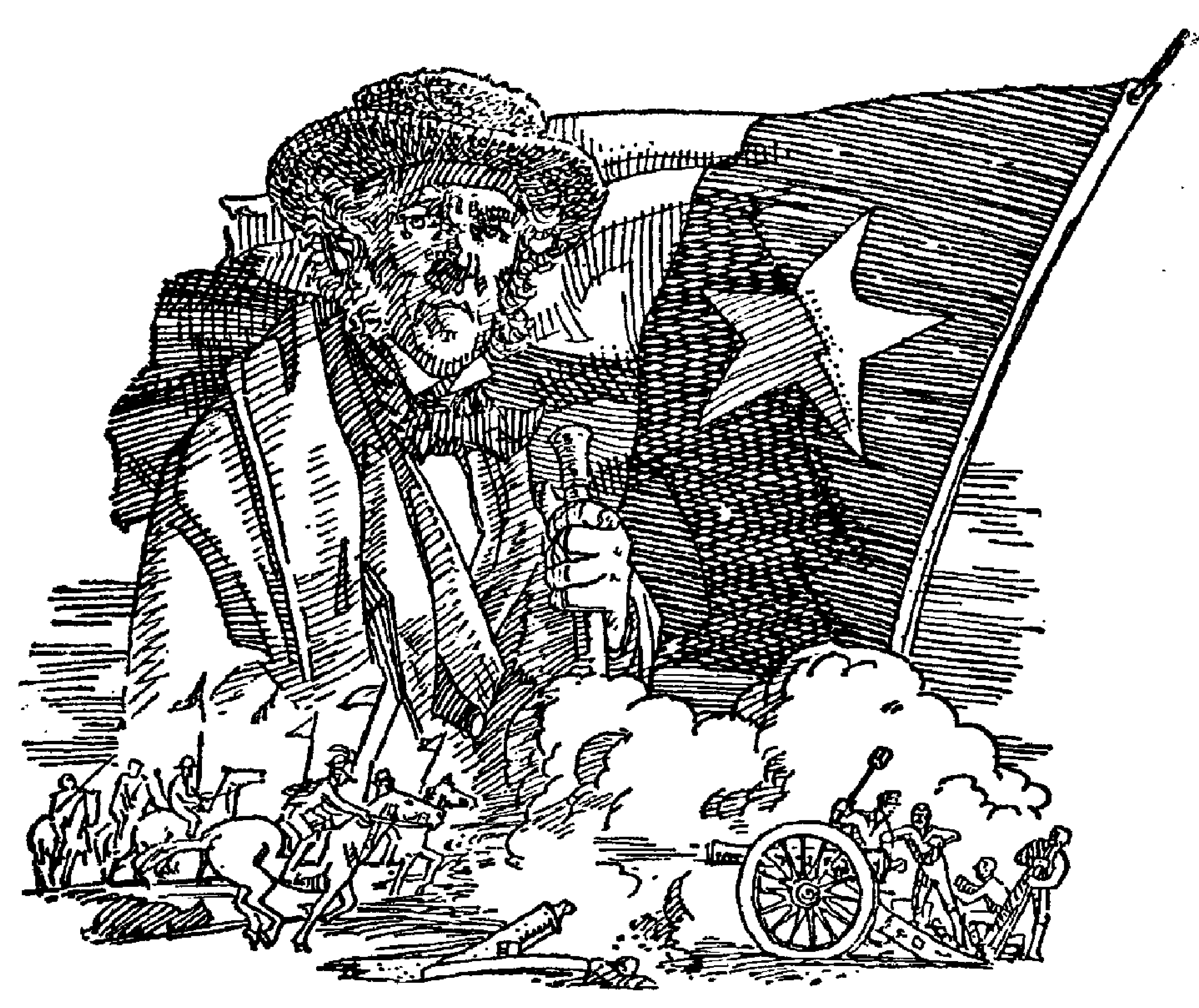
وفى ٥ مارس أدرك ترافيس أنه لم يكن لديه متسع من الوقت . . إذ كان يسمع هدير المدافع وصراخ المكسيكيين الذين ينم عن روح الانتقام خارج الأسوار الشيدة من الطوب . وقام ترافيس برسم خط على الأرض بسنان سيفه ، وأتاح لرجاله الفرصة لكى يحاولوا الفرار .. وكان على الرجال الذين يرغبون فى الهروب أن يقفوا على جانب من الخط ، والذين يرغبون البقاء أن يعبروا الخط ويقفوا بجانبه .. واختار جميع الرجال البقاء فى الحصن .

وقبل بضعة أيام من نشوب معركة « ألامو » الشهيرة وقع جيم باوى عن « سقالة » بينما كان يقوم بالمساعدة فى بناء مركز للمراقبة ، فانكسر عظم ردفيه .. وتم تجبير العظم ، ولكن جيم كان قد عرف أنه يجب عليه أن ينعم بقسط من الراحة حتى يشفى الكسر تماماً .

وحينما تسببت قذيفة من مدفع مكسيكى فى الصباح المبكر لليوم السادس من شهر مارس بخرق فى حائط دار التبشير ، لم يسع جيم سوى أن يفرغ رصاصات مسدسه فى وجه الغزاة .. ثم استل الخنجر المعروف باسمه وأخذ يقاتل من كوخه فأردى به آخر جندى للعدو قبل أن يصاب هو بجرح مميت .. وبعد ذلك قام المكسيكيون بغزو الحصن . . ولم يمض وقت قصير حتى كان جميع من فيه من المدافعين قد لقوا حتفهم . ويقال إنه حينما انتهى القتال توجه

«الجنرال» سانتا أنا للبحث عن جثث ترافيس و كروكيت و باوى .. وحيث انه لم يحظ بمقابلة جيم على الإطلاق ، فقد وقف ينظر إلى جثة ذلك الرجل الأمريكى العظيم ذى الشعر الأحمر الذى أحبته ابنته فى العماد وتزوجته . . أما جيم فقد وجد مستشهداً على ظهر كوخه وبجانبه جثث الجنود المكسيكيين الذين قتلهم، كما وجدت بالقرب منه المدية التى كانت من تصميمه ، وعبارة بخط يده باللغة الأسبانية « تقول حقا لقد كان رجلا شجاعاً جدا » .





كان سام هاوستون جندياً مولعا بالمغامرات ، وبالحياة فى الهواء الطلق ، وتوجه فى مناسبتين ليعيش مع هنود قبيلة « تشيروكى » ، وكان أحد القادة العظام لولاية تكساس ، وإلى جيشه يرجع الفضل فى كسب الأمريكيين لمعركة سان جاسينتو فى ٢١ أبريل عام ١٨٣٦ وتحرير جمهورية تكساس من الاحتلال المكسيكى .

الفصل الثامن

سام هاوستون

بطل معركة سان جاسينتو

(١٧٩٣ — ١٨٦٣)

توقع « سام هاوستون » وهو فى سن الخامسة عشرة أنه سيعيش حياة قاسية . . وكان واحداً من أسرة تتكون من تسعة أولاد يعيشون مع والدتهم المترملة فى مزرعة على الحدود فى تنيسى ، ولأنه لم يحب العمل فى المزرعة ، فقد أرسلته والدته ليعمل فى محل تجارى .

وكان يشعر بالبؤس ويضيق ذرعا بعمله فى المحل التجارى ، لقد كان غلاماً أبياً مستقلا ، مولعا بالتجول فى الغابات ، لا يهتم كثيرا بالدراسة ، ومع ذلك كان لديه كتاب واحد لا يمل مطالعته هو : « تعليقات قيصر على الحروب الغالية »، وقرأ «سام» هذا الكتاب مراراً وتكراراً،وكان فى كل مرة يقرؤه يزداد شغفاً بالطريقة التى وضع بها ذلك القائد الرومانى الشهير خططه لكسب المعارك التى خاضها .. لقد خالجه شعور بالرغبة فى أن يصبح جندياً فى يوم من الأيام ، وربما كان هو يحبذ أن يصبح قائداً ، ولكن الوسيلة التى كانت والدته وأشقاؤه يدفعونه بها ، لم تكن لتبشر بذلك على الإطلاق !

وأخيراً هرب «سام» من المنزل وانضم إلى بعض هنود «تشيروكى» الذين كانوا يعيشون عبر النهر فى قرية تتألف منازلها من أكواخ مستديرة مصنوعة

من غصون الأشجار ، تماثل في شكلها شكل السلال الضخمة المقلوبة رأساً على عقب .. وكان هؤلاء الهنود قوماً طوال القامة ، وسيمى الطلعة ، مغرمين بالصيد وممارسة الألعاب ، لقد كانوا يمثلون تماماً أولئك الذين ينشد العيش معهم . لقد كان الرجال والأولاد منهم ذوى شعر مسترسل يعصبونه بأشرطة مطرزة ، ويرتدون ملابس من جلد الغزال ، وأحذية من جلد الإبل ، ولبس « سام » مثلهم لكنه تعلم ممارسة ألعابهم ، كالعدو ورمى الرمح وإصابة الهدف بالسهام ، كما تعلم منهم ألا يدع عواطفه تخونه إذا لم يرغب فى ذلك ، بل يحتفظ بتعبيرات وجهه الطبيعية وعاش معهم طوال ثلاثة أعوام فأصبح أبناً بالتبنى للقبيلة . وفى عام ١٨١٤ ، حينما بلغ سام سن الحادية والعشرين ، انضم إلى الحملة التى قادها أندى جاكسون ضد هنود « السكريك » الذين أثاروا قتالا مريراً ، ولكنهم غلبوا على أمرهم فى النهاية من قبل قوات القائد جاكسون .. وكان « سام هاوستون » قد أصيب بجرح فى إحدى المعارك ، فعاد إلى ولاية تنيسى وشرع يدرس القانون فى مكتب صديق له .

وأصبح «سام» وهو فى سن الخامسة والعشرين عضواً فى جماعة القانونيين ، ومارس المحاماة فى مدينة لبنان بولاية تنيسى ، كما شغل وظائف حكومية عديدة ، وكان شابا وسيم الطلعة ، ذا قامة تبلغ ستة أقدام وست بوصات ، وعينين زرقاوين ، وشعر أشقر ، يحب أن يرتدى الملابس الفاخرة ، ويتميز بأسلوب مؤثر فى التحدث والتصرف مع الناس . وأصبح مشهوراً بين سكان المدن ، فانتخبه الديمقراطيون فى عام ١٨٢٣ عضواً يمثلهم فى الكونجرس الأمريكى ، وفى عام ١٨٢٥ أعيد انتخابه عضوا فى الكونجرس ، وبعد عامين أصبح حاكماً لولاية تنيسى .

وتزوج «سام» الشاب من فتاة جميلة تدعى «إليز ألن» فبدا مستقبله مشرقاً، وبات انتخابه مرة أخرى لمنصب الحاكم أمرا مؤكدا تقريباً. ولكن عروسه تركته فجأة؟ صحيح إنه كان متمرساً عند الهنود الشيروكي، ولم يدع عواطفه تخونه .. ولكنه استقال من منصب الحاكم وتوجه ليعيش مرة أخرى مع الهنود على الأرض المخصصة لهم فى الإقليم الذى يعرف الآن بولاية أوكلاهوما ، وعاش معهم فترة بوصفه مستشارا ومديراً لمكتب البريد التابع للحكومة، ولم يتحدث قط عن إليزا . . وحاولت إليزا أن تعود إليه بعد مرور سنوات ، ولكن بعض الخطابات كانت قد فقدت فى الطريق ولم يتم التوفيق بينهما .

وفى عام ١٨٣٠ توجه سام إلى واشنطون العاصمة ليناضل ضد مشروع القانون الخاص بالهنود . . وكان يرتدى ملابس « الشيروكى » فقام بالتجول فى شوارع المدينة ليلفت إليه الأنظار ، ثم احتج لدى قائده وصديقه القديم الرئيس جاكسون على قسوة مشروع هذا القانون . لقد كان يدرك أن قانوناً انتقالياً سيكون من شأنه أن يشجع المستوطنين المتحضرين على الذهاب والاستيطان فى البلاد غير المتمدنة الواقعة إلى الغرب من نهر المسيسيبى ، ولكن مشروع القانون الخاص بالهنود تمت الموافقة عليه بالرغم من معارضة سام هاوستون له .

ولم يكن الرئيس جاكسون عدواً لسام هاوستون بقدر ما كان يمكنه لدافيد كروكيت الذى عارض أيضاً المشروع . . وأرسل سام هاوستون إلى الجنوب الغربى ليضع حداً لبعض المتاعب مع الهنود القاطنين على الحدود بين تكساس ومكسيكو، وأخذ يبدى اهتماما بثورة تكساس. وحينما عقد المؤتمر

فى عام ١٨٣٣ لانتخاب حكومة انتقالية ، كان سام هاوستون من بين من حضروا هذا المؤتمر ، وحينما اجتمع المؤتمر للمرة الثانية فى عام ١٨٣٦ ليعلن أن تكساس أصبحت إقليما مستقلا عن مكسيكو ، كان سام هاوستون أحد القادة فعين قائدا عاما للجيوش الثائرة .

وبينما كانت الفرقة الصغيرة من جنود تكساس تدافع دفاع المستميت عن حصن « ألامو » ، جمع سام حوالى ثمانمائة رجل ، ولكنه وجد صعوبة فى تنظيم صفوفهم وتدريبهم كجنود لأنهم كانوا يتميزون باستقلالهم فى الرأى وغير معتادين على تسلم الأوامر ، بيد أن سام أدرك سريرتهم ، لأنه هو نفسه كان رجلا يتميز باستقلال الرأى ، واستطاع فى النهاية أن يعدهم للقتال كجيش منظم تنظيما تاما . وكانوا يحملون راية عليها نجمة وثلاثة خطوط معا مما دعا إلى تسمية تكساس « دولة النجمة الواحدة » .

وكان الجيش المكسيكى بقيادة الجنرال سانتا أنا يفوق جيشه كثيرا من حيث العدد ، وأدرك سام أنه لا يستطيع أن يأمل فى أن يهزم مثل هذه القوة الكبيرة بعدد من الرجال قوامه ثمانمائة جندى ، فأمعن التفكير فى « تعليقات قيصر على الحروب الغالية » .. وكانت خطة قيصر فى القتال تتمثل فى عبارة « فرق تسد » ، فعزم سام على تجربتها . وكان يتعين عليه أن يخدع سانتا أنا فى اللحاق به بجيش منقسم إلى فرقتين .. ولكى ينفذ خطته ، أصدر أوامره إلى جنده الثمانمائة بأن يتراجعوا وأن يواصلوا تراجعهم .

وأفزعت خطط هاوستون الحربية هذه المستوطنين فى تاكساس وتسببت فى توجيه النقد الشديد إليه ، ولكن « سانتا أنا » وقع فى الشرك ، إذ سرعان

حاظن أنه لن تمضي أيام قلائل إلا وتكون تكساس قد استعادها المكسيكيون، فشرع فى نشر جنوده لاحتلال البلاد .

وفى ٢١ أبريل عام ١٨٣٦ ، وبقوة قوامها حوالى ألف وخمسمائة جندى ، وصل سانتا أنا إلى نهر سان جاسينتو .. وكان الجنود المكسيكيون متعبين، فضربوا معسكراً لهم على ضفاف النهر ليأخذوا غفوة فى النهار كما عزم سانتا أنا نفسه على أن يأخذ هو غفوة أيضاً ، ولم يخامر الشك أحدا منهم بأن جيشاً تكساسياً كان موجودا بالقرب منهم .

وكان جنود تكساس فى الجبهة الأخرى يعلمون بوصول الجنود المكسيكين .. ونظر سام هاستون —وكان يؤمن بالخرافات لدرجة كبيرة— إلى السماء ، فرأى نسرا محلقا فوق رأسه ، فاستبشر خيرا به لاسيما وأنه كان منذ نشأته عند هنود التشيروكى يعتبر النسر طائرا شافيا له إذا ما مرض وأكل لحمه ، أو جالبا للسعد إذا ما حدث أن شاهده .

وكان « سام هاستون » من عادته أن يتحدث عن نفسه بضمير الغائب ، وهو تقليد تعلمه من الهنود ، فقال فى قرارة نفسه : « لاشك أنه دواء عظيم ! »

وأمر جنوده أن ينظموا أنفسهم فى صفوف لدخول المعركة ، وإن هى إلا لحظات حتى قال لهم : « سنقضى على العدو فى الحال .. سنأخذهم على حين غرة .. تذكروا واقعة ألامو ! » وتفرس الجنود فى وجوه بعضهم البعض ، وكادوا يرون الغضب والجزع اللذين أثارتهما مذبحة « ألامو » فى نفوس جميع أهل تكساس يتدفقان منها .

وهدر الجنود بصوت واحد مرتفع قائلين : « تذكروا موقعة ألامو » . ثم هجموا على الجنود المكسيكيين النائمين ، وسرعان ما انتهت المعركة وكان المكسيكيون قد وقعوا تماماً فى حبائل الغفلة والإهمال وراحوا يتقافزون فى محاولة منهم للدفاع عن أنفسهم ، ولكنهم ما لبثوا أن هربوا فزعين ، حتى « سانتا أنا » نفسه لاذ بالفرار لكى ينجو من الموت ، ولكنه فى اليوم التالى قبض عليه متخفياً بثوب نسائى أزرق باهت ، وخف أحمر رث .. وراح يتوسل ويتضرع بكل تواضع وبشكل لا يعتد به حتى أن الجنود التابعين لتكساس لم يصدقوا أن هذا الرجل كان هو القائد المكسيكى المخيف .. وفى الوقت ذاته كان بعض الأسرى المكسيكيين يتهامسون بحماس : « إنه الرئيس » .

وأخذ هذا الرجل الصغير المتخفى فى ثوب نسائى يفرك عينيه بغباء مثلما يفعل الفلاحون ، ويغمز بهما للجنرال هاوستون الذى يرتدى معطفاً أسود فاخراً وسروالا أصفر ، وقبعة واسعة الحافة . ولو كان هذا الوضع معكوساً وكان الجنرال سام هاوستون أسيراً للجنرال المكسيكى لأذاقه أمر العذاب وأعدمه رمياً بالرصاص . غير أن كل ما فعله سام لم يزد عن إرغامه على توقيع مستند بالتسليم والوعد بألا يعاود قط غزو تكساس ، ثم أطلق سراحه .

وكانت هذه المعركة هى معركة سان جاسينتو الأخيرة ، بل الخاتمة فى ثورة تكساس ؛ إذ أصبح مكان القتال فيما بعد متنزها للاقليم يتوسطه نصب تذكارى ضخم ، كما أصبح اليوم الحادى والعشرون من شهر إبريل — وهو اليوم الذى ظفر فيه أهل تكساس باستقلالهم عن المكسيكيين — يوم عطلة يحتفل به أهالى تكساس فى كل عام .

وأعترفت الولايات المتحدة وغيرها من الدول باستقلال جمهورية تكساس الفتية ، وانتخب سام هاوستون أول رئيس لهـــا ، وحينما انضمت تكساس إلى الاتحاد فى عام ١٨٤٥ ، كان سام فى مقـــدمة الذين قاموا بتمثيلها فى مجلس الشيوخ الأمريكى ، وظل يمثلها طوال أربعة عشر عاماً .

وكانت الحرب الأهلية على الأبواب . . فقـد كان الشمال يعارض انتشار الرق فى الأقاليم الجديدة فى الغرب ، كما كان الجنوب يصر على أن جيرانهم الشماليين كانوا يحاولون التحكم فى مصائرهم ويقولون إن لهم كل الحق فى أن يأخذوا معهم عبيدهم متى هاجروا إلى الأقاليم الجديدة . وكانت بعض الولايات الجنوبية ، بما فيها ولاية تكساس ، تتحدث عن الانسحاب أو الانفصال عن الاتحاد ، ولـكن «سام» وقف موقفاً مشرفاً ضد هذا الانفصال . . لقد قال فيما قاله : إن الاتحاد أهم من أية ولاية وإنه لايحق لأى ولاية من الولايات أن تنسحب منه ، بيد أن أبناء وطنه من أهل تكساس السريعى الغضب أبوا أن يعيدوه إلى مجلس الشيوخ الأمريكى فى عام ١٨٥٩ .

وكان سام وقتئذ فى منتصف العقد السادس من عمره : كان يتقدم فى السن ، ولـكنه كان لايزال ممشوق القد ، يتدفق نشاطاً وحيوية حينما عاد إلى ولاية تكساس مسقط رأسه ليرشح نفسه للانتخابات كحاكم للولاية . وفى أثناء الحملة الانتخابية عارض بعض منافسيه من الساسة بإحدى المدن فى السماح له بالتحدث إلى الشعب فى ساحة محكمة الولاية ، لأنه لم يدفع ضرائب لها ، فلم يسع « سام » سوى أن يقول للحشد المجتمع للاستماع إليه : « حسنا إنى لا أملك دار القضاء . . والضرائب التى يتحتم على أن أدفعها لن تساعد

فى تدعيمها .. فتعالوا معى إلى شجرة السنديان الموجودة هنالك على أرض تكساس ، إلى هنالك حيث يحق لى أن أتحدث إليكم ، وحيث أرويت تربتها بدمى .

وفاز سام فى الانتخابات كحاكم للولاية ، وظل يتحدث ويجاهر برأيه ضد انفصالها عن الاتحاد بالرغم من أن الولاية كانت مصممة على الانشقاق عنه ، وبينما اقترعت تكساس على الانفصال بالفعل أرغم سام على الاستقالة من منصب الحاكم للولاية ، واعتزل السياسة بعد أن رفض مساعدة أهل الشمال له فى الدفاع عن حقه فى البقاء بمنصبه .

وتوفى سام فى ٢٥ يوليه عام ١٨٦٣ عن عمر يناهز السبعين ، وسميت المدينة المعروفة الآن بهاوستون بولاية تكساس باسمه تكريماً له ، ولا يزال التاريخ يخلد ذكرى هذا الرجل القدير الشجاع .



صانع السلام

هذا الرائد لم يذهب إلى الغرب ، ولـكنه ابتكر مسدسا ساعد على كسب الغرب .. هذا الرائد هو «سام كولت» الذى اخترع مسدساً ذا ست طلقات .

ففى مدينة هارتفورد بولاية كونيكتكت توجد حديقة جميلة تحمل اسمه، ويوجد فى مدخل هذه الحديقة ، التى كانت جزءاً من عزبته فى يوم من الأيام ، تمثال لأحد البحارة وهو ينحت نموذجاً لمسدس . أما هذا البحار فيرمز إلى سام الذى أتقن صنع مسدس ذى ست طلقات وهو يعمل على سفينة فى المحيط الهندى .

وأطلق سام على مسدسه اسم « صانع السلام » ، لأنه ساعد على استتباب القانون والنظام على الحدود القديمة .

الفصل التاسع

« سام كولت »

مبتكر

المسدس ذى الطلقات الست

(١٨١٤ — ١٨٦٢)

انحنى سام كولت البالغ من العمر ست سنوات على ركبتى جندى الحرب الثورية ، المحنك المخضرم وقال : « أخبرنى بالمزيد عن الحرب ياجدى » . ثم راح يلمس بيده كرفانة الغدارة القديمة التى اشتهرت فى الكثير من المعارك .

وسرعان ما قالت له والدته محذرة : « الآن ياسام ستنهك جدك .. فقد قص عليك هذه الحكايات مراراً كثيرة . . فلماذا لا تتعلم أن تقرأ القصص بنفسك ؟ لو استطعت أن تفعل ذلك ، فسأعطيك هدية . . سنذهب معاً إلى المخزن العام للهدايا وأدعك تختار بنفسك الهدية التى تعجبك ! » .

أجاب سام : « حبذا لو تشترين لى بندقية » . ولما لم تكن بنادق اللعب متوافرة فقد اشترت والدته من المخزن العام للهدايا بمدينة هارتفورد بولاية كونيكتكت ، غدارة قديمة تالفة من النوع الذى يحمله الفرسان ، وأخذ سام يتعلم القراءة على

كره منه ، ولـكنه كان يفضل الاستماع إلى قصص جده واللعب بغدارته . . ومرت سنوات وكبر « سام » وأصبح يعرف كيف تعمل الغدارة ، فأصلحها وجعلها تقوم بالوظيفة التى من أجلها صنعت خير قيام .

وكان من شأن مواصلة إصلاح سام لمسدسه على مر السنوات أن اكتسب خبرة بالـكيفية التى تصنع بها البنادق . . لقد كان يحب أن يكتشف كيف تقوم الأشياء بوظائفها ، كما كان يحب أن يقوم بالـكثير من التجارب . وذات مرة نجح فى صناعة بعض البارود باتباعه التعليمات الموجودة فى أحد الـكتب ، ومرة أخرى قام مع صديق له بإجراء بعض التجارب بالغاز المضحك ، وتحدث عن عزمه على إلقاء محاضرات عنه .

لم يكن سام مولعاً بالمدرسة ، فعمل حين بلغ السادسة عشرة على ظهر سفينة صغيرة ذات شراعين تدعى « كورلو » أبحرت فى ٢ أغسطس عام ١٨٣٠ من مدينة بوسطن متجهة إلى مدينة كالـكتا . وكان على البحارة وقتئذ أن يعملوا بجد ، ولـكنهم مع ذلك كانت تتوافر لديهم أوقات فراغ . وكان أمتع وقت فراغ لديهم هو تلك الساعات التى كانوا يقضونها فى النحت ، فتعلم منهم «سام» كيف يقوم بأعمال النحت ، وصنع الـكثير من البنادق الخشبية من بينها مسدس وبندقية ذات « قصبتين » .

وطرأت له فـكرة . . لماذا لا يقوم بنحت بضع « قصبات » تدور على محور وتطلق طلقات متتالية ؟ : . لعله قد يستطيع سبكها من الصلب . وقام بحفر خمس منها وكاد يبدأ فى حفر السادسة عندما أدرك أن مثل هذه الغدارة

ستكون ثقيلة الوزن إذا ما صنعت من الصلب . وطفق فى الضحك ثم عـــدل عن صناعتها ، ولـكن فـكرة تحقيق غدارة تقوم بإطلاق رصاصات متتالية ما زالت تقلق راحته .

وذات مساء بينما كانت السفينة تمخر عباب المحيط الهندى، أخذ سام يراقب البحار الذى يدير العجلة التى توجه مسيرها ، فقال فى قرارة نفسه : « ترى هل أستطيع أن أضع فى بندقيتى عجلة . . دائرة من نوع ماتحتوى على خزانات للرصاصات ، وتستطيع أن تلف كلما أطلقت واحدة منها ؟ إن مثل هذه الدائرة يمكن تثبيتها فى مؤخرة قصبة البندقية بحيث تـكون الخزانة الواحدة منها فى خط مستقيم مع قصبة البندقية وتدور الدائرة عقب إطلاق الرصاصة بحيث تـكون الخزانة التالية للرصاصة الثانية فى وضع مستقيم مع القصبة وهكذا دواليك حتى تفرغ جميع الطلقات قبل أن تعبأ الخزانات مرة أخرى » .

ومرة أخرى أمدته آلة رفع الأثقال فى السفينة بفكرة جديدة .. لقد كانت هذه الآلة تتحكم بتحركات الحبل الذى يرفع البضائع للشحن أو للتفريغ ، فشاهد فيها عجلة بأسنان وجهاز تعشيق يمنع الحبل من الانزلاق إلى الخلف ، فقال لنفسه : « ياله من شىء عظيم . سأقوم بتجربة هذه الخطة فى بندقيتى الجديدة . . سأضع تروساً على الاسطوانات لأتأكد من أنها تتوقف تماماً فى الموضـــع المخصص لإطلاق الرصاصة فى خط مستقيم مع تجويف » .

وبينما كان سام فى طريق عودته إلى مسقط رأسه ، أخذ يحفر أجزاء نموذجية لمسدس ذى ساقية دوارة يطلق ست رصاصات متتالية قبل أن يحتاج حامله إلى

تعبئته . وكان والده يملك مصنعاً للحرير ، فدفع جميع النفقات التى احتاج إليها تحويل النموذج إلى طراز من الصلب، ولكن حينما جربه «سام» لم يقم بعمله جيداً بل انفجر إلى قطع صغيرة . ولكى يستطيع «سام» توفير المال من أجل إجراء المزيد من التجارب على الأسلحة النارية ، عزم على القيام برحلات يلقى خلالها « محاضرات علمية » .

وكان يتوافر له وقتئذ الكثير من الموضوعات التى كان يشعر بأنه أهل للتحدث عنها ، ولكنه عزم فى النهاية على أن يشرح موضوع كنه الغاز المضحك الذى كان يجرى اختبارات عليه مع صديق له . وكان سام عندئذ فى السابعة عشرة من عمره فحسب ، ولكنه كان ذا قامة طويلة تبلغ ست أقدام ، ولحية طويلة جعلته يبدو أكبر سناً ، وكان يتميز بعينين خارقتين ، وبطلعة هيابة ، فكان لمحاضراته وقع عظيم فى المدن الصغيرة بنيو إنجلند ، وكان لمفعول الغاز المضحك تأثير عظيم ، فأصبح يوجد من الناس دائماً من يتقدم ويستنشق القليل منه ويشرع فى الصياح والغناء حالما يأخذ الغاز مفعوله .

وتوسع سام فى رحلاته ، وأخذ يلقى محاضرات فى البلدان الواقعة على نهرى أوهايو والمسيسبى وينفق ما يدخره منها على صنع النماذج ، وفى النهاية تمكن فى عام ١٨٣٥ من صنع مسدس بساقية دوارة يقوم بوظيفته جيداً . واقترض سام ألفى دولار من أسرته وتوجه إلى أوروبا بعد أن سجل اختراعه لمسدسه فى واشنطون العاصمة،ونال امتيازاً به وبينما كان فى جولته فى أوروبا نال أيضاً امتيازاً لاختراعه فى انجلترا وفرنسا وبروسيا ، وقام بزيارات عديدة لمعارض الأسلحة النارية الأثرية القديمة المختلفة ، ودهش سام حينما علم بأن صانعى

الأسلحة فى جميع أنحاء العـــالم ظلوا مئات السنين يحاولون صناعة مسدس أوتوماتيكى يطلق العديد من الرصاصات ولم يفلحوا حتى الآن .. لقد كان سام أول رجـــل استطاع أن يصنع أول مسدس يعمل جيداً ويمكن الاستفادة منه .

وعاد سام إلى وطنه وأسس شركة امتياز صناعة الأسلحة فى مدينة باترسون بولاية نيوجيرسى ، وشرع ينتج الأسلحة النارية .. وكانت المسدسات التى ينتجها تتميز بأنها ذات أجزاء يمكن استبدالها بغيرها ، وهذا بدوره يعنى أن أية قطعة لمسدس يمكن تركيبها بدقة فى مسدس آخر من نفس الطراز. وكانت كل قطعة تدمغ بواسطة الآلات ثم يتم تركيب المسدسات كاملة من هذه القطع .

وحاول «سام» جهده أن يبيع مسدساته إلى حكومة الولايات المتحدة . . فزار واشنطون العاصمة مراراً كثيرة ، ولـكن مكتب المهمات التابع لوزارة الحربية الأمريكية لم يبد اهتماماً فى مبدأ الأمر ، فقال له : « إن هذه الطرازات الجديدة من المسدسات الأوتوماتيكية معقدة لدرجة كبيرة قد تنجم عنها مخاطر عديدة حين استعمالها » .

بيد أن جمهورية تـكساس الفتية طلبت فى عام ١٨٣٩ شراء كية صغيرة من مسدسات «كولت» فأرسلها سام فى الحال ، وبعد ذلك بوقت قصير لم يصادف عمله هذا نجاحاً فأغلق أبواب شركة امتياز الأسلحة التى كان قد أسسها ، ولـكنه احتفظ بالامتياز الخاص بصناعة المسدسات . ولم تمض عشر سنوات حتى كان سعيداً جدا بما فعله ، لأن مجرى حظه فى الحياة بدأ يتحول . . لقـــد أثبتت مسدسات «كولت» أنه يمكن الاعتماد عليها فى تـكساس وأصبح الناس يتدحونها

بدرجة عظيمة . . وأرسلت الحكومة المحلية طلباً بشراء ألف مسدس لاستخدامها فى الحرب المكسيكية التى درات رحاها بين عامى ١٨٤٦و١٨٤٨ بسبب استياء المكسيك من ضم تكساس للولايات المتحدة الأمريكية التى ما كادت تنتهى حتى كانت المكسيك قد تنازلت مرغمة عن كاليفورنيا وجميع أجزاء الغرب الجنوبى للاتحاد .

وحينما وصل الطلب الخاص بشراء المسدسات كان سام فى حيرة من أمره لأن مصنعه كان قد أفلس وأغلق أبوابه ، ولم يعد لديه سوى مبلغ زهيد من المال . وكان له صديق يدعى إيلى ويتنى « الصغير »، وهو ابن مخترع آلة القطن الشهيرة ، يملك مصنعاً ، فعرض عليه سام أن يقوم بدفع النفقات الخاصة بتركيب آلات خاصة إذا ما وافق على أن يقوم مصنعه بإنتاج مسدسات أوتوماتيكية من طراز كولت لحسابه . وكان له ما أراد ، واستطاع أن يفى بطلب حكومة تكساس ، فأمدها بالمسدسات ذات الست طلقات ، ثم عزم على أن ينقل آلاته الخاصة إلى هارتفورد حيث أسس شركة كولت لامتياز إنتاج الأسلحة النارية .

وأخذ « سام » يبيع مسدساته بمجرد إنتاجها . . لقد كان الجنود الذين استخدموا مسدسات الكولت فى الحرب المكسيكية يشيدون بها ، وآخرون يريدون شراءها ، كما كان الرواد المتجهون إلى الغرب فى عربات مغطاة يشترونها لحماية أنفسهم ضد غارات الهنود . وأرسل جوالة تكساس الطلبات لشرائها وأصبح الطلب على مسدسات كولت فى كاليفورنيا يحظى بإقبال عظيم حتى بات المسدس الواحد منها الذى يتكلف ٢٥ دولاراً يباع بحوالى ٥٠٠ دولارا .

وكانت جميع دول أوروبا تقريبا تحتفظ بجيوش لها بالفعل ، فتسلم «سام» طلبات من هذه الدول لشراء مسدسه ، كما تسلم من سلطان تركيا وحده طلبا بشراء ٥٠٠٠ مسدس ، وقام سام بزيارة أوروبا مرة أخرى وعرض مسدساته فى ذلك المعرض العظيم الذى أقيم فى قصر كريستال بلندن عام ١٨٥١

وكان سام قد أصبح عندئذ رجلا فى السابعة والثلاثين ، وسيما ، طويل القامة ، وأخذ يلقى محاضرات مشوقة عن أسلحته النارية . وحينما تناول مسدساً من مسدساته ليشرح أجزاءه وكيف يعمل قال الإنجليز : أجل إنه ذلك المسدس ذو الست طلقات . . لقد أصبح كل إنسان يسمع بمسدس كولت الشهير . »

وأعجب سام أيما إعجاب بالتماثيل العديدة الجميلة التى شاهدها منتشرة فى كل أرجائها أثناء الرحلة التى قام بها فى أوربا لمشاهدة معالم بلادها . لقد كان آنذاك رجلا ثريا ، مشهورا فى الأربعين من عمره ، فتزوج مس اليزابيث ه . جارفيس ، ابنة أحد القسس وتوجها إلى أوروبا لقضاء شهر العسل . وفى أوروبا حضر كولت وعروسه حفل تتويج قيصر روسيا ، الكسندر الثانى الذى قام بإهداء سام «علبة نشوق» ذهبية محلاة بتاج مرصع بالماس .

وكان « سام » قد أصدر أوامره بأن يشيد له فى مدينة هارتفورد قصر من الحجارة ذو أورقة مزخرفة بالنقوش ، وقبة ذات زجاج يتميز بألوانه الفاخرة ، وأبراج مزينة بالذهب . وكانت منتشرة هنا وهناك فى حديقة القصر نسخ مقلدة من التماثيل التى حازت إعجابه فى أوربا وأطلق « سام » على قصره هذا اسم « آرمزمير » أى مرج الأسلحة النارية .

وكانت الطواويس تمرح فى ساحة قصر « آرمزمير » كما كانت توجد فيه مستنبتات ذات أبراج ذهبية تزرع فيها أنواع كثيرة من الخيار والفراولة والأزهار . . واستورد سام أشجار الصفصاف من هولانـدا ، كما أحضر من ألمانيا عدداً كبيرا من المتخصصين بأخشاب الصفصاف ليقوموا بصناعة الأثاث الفاخر لقصر « آرمزمير » . . ولقد قام ببناء منازل لهم تشبه تلك التى كانوا يعيشون فيها فى الريف القديم .

أما بالنسبة لعمال مصنعه ، فقد شيد لهم سام منازل عديدة من الطوب ، ودفع لهم أجرا جيدا ، وجعلهم يتمتعون بظروف عمل مثاليـة بالنسبة للعصر الذى كانوا يعيشون فيه . . لقد كانت الورش التى يعمـلون فيها صحية يدخلها الهواء النقى والشمس ، باردة فى فصل الصيف ، وتدفأ بالبخار فى فصل الشتاء ، أما المصنع فقد كان يتألف من مبنى فخم من الحجر الرملى ظهرت على سطحه علامـة سام التجارية لمسدس كولت ، وهى رسم مهر متحفز للوثب .

وفى أعظم مربط مريح من المرابط الموجودة فى ساحة «آرمزمير» الفاخرة عاش « شامروك » . وهو حصان كبير فى السن كان سام يمتلكه منذ سنوات عديدة ، وكان « لشمروك » هذا مرعى خاص به ، ولم يكن يسمح لأحد أن يمتطى ظهره أو يسوقه . لقد كان سام يعتبره صديقاً له وغالبا ما كان يزوره ، بل فى بعض الأحيـان كان يتحدث معه . وذات مرة سمعه بالصدفة خـادم يتحدث معه فأسرع ذلك الرجل القلق ليقول لإليزابيث كولت إن زوجهـا لابد أن تعتل صحته، لأنه كان يتحدث إلى حصان ، وابتسمت اليزابيث للخادم

لأنها كانت هى أيضاً مغرمة بالحيوانات وتتحدث معهم فى كثير من الأحيان وهى عادة تعلمتها من زوجها .

وتسببت الحرب الأهلية فى ضيق كثير لسام . . ولم يتوقع أبداً أن يزود البلاد بالمسدسات التى بها يقوم بنو وطنه بإطلاق النيران على بعضهم البعض وأصبح مريضاً من كثرة العمل والإهمال لصحته فتوفى فى ١٠ يناير من سنة ١٨٦٣ دون أن يعلم أن مسدساته ساعدت كثيراً فى المحافظة على الاتحاد .



هذا الرجل كان فناناً اشتهر برسم الهنود . إنه جورج كاتلين ، أول رجل أبيض استطاع أن يرسم بالألوان هنود البرارى على الطبيعة ويصور رقصاتهم الدينية وألعابهم ومنازلهم وثيابهم إنه الرجل الذى استطاع أن يرسم كل شىء جعلهم يختلفون به عن البيض ، إنه الرجل الذى استطاع أن يكون صداقة عظيمة مع الهنود ويعلم الكثير عن طريقة معيشتهم على الطبيعة ثم ينقلها جميعاً فى لوحات ليستمتع بها الآخرون .

الفصل العاشر

جورج كاثلين

رسام الهنود

(١٧٩٦ — ١٨٧٢)

لم يتذكر « جورج كاثلين » الصغير زمناً لم يكن فيه مهتماً بالهنود ... وكانت أحب القصص إليه تدور حول « برانت » زعيم الموهاك الذى عاش فى الإقليم التابع لمنطقة « بروم » التى يمتلكها بولاية نيويورك . وحينما كان جورج طفلا أمضى أوقاتا سعيدة يتجول فى الغابات بالقرب من مزرعة أبيه ويدعى أنه محارب هندى .. وحينما اشتد ساعده كان مولعاً بصيد الديوك البرية والسمان والسناجب التى تعيش فى نفس الغابة .

وبينما كان جورج يصطاد ذات مرة صوب بندقيته على غزال . . ولكنه قبل أن يستطيع أن يطلق العيار النارى عليه رآه يجندل بواسطة سهم آخر سدد إليه . . وسرعان ما فوجىء بمشاهدة رجل هندى يخرج من الأكمة ، وحمل الهندى الغزال ليأخذه ثم استدار وشرع يحدق نحو الصخرة الكبيرة التى كان يقف عليها الصبى الأبيض ويتفرس فيه . . وما كاد جورج يلمح وجه الرجل الأحمر حتى شعر بصدمة مفاجئة تنتابه .. لقد رأى أمامه إنساناً وليس وحشاً خرافياً ، كما كان يعتقد .. لقد رأى رجلا له عينان وأنف وفم مثل سائر الرجال.

وكان ذلك الهندى — ويدعى « اونوجونجواى » من أونيد — يعسكر مع أسرته بجوار مزرعة آل كاتلين ، فتكونت صداقة بين الأسرتين ، وقام « انوجونجواى » بتدريب جورج على كيفية رمى فأس « التمهوك » التى يستعملها الهنود فى الحرب بحيث تغرس نصلتها فى جذع الشجرة . . وذات مرة كان جورج وبعض الصبية يتدربون على هذا السلاح ، ارتدت رمية من جذع الشجرة وأصابت العظم الوجنى لجورج فأحدثت به تشوهاً لم يختف مدى الحياة . وبالرغم من هذه المصيبة التى حلت بجورج فإنه ظل يحب تقاليد الهنود وعاداتهم ولم ينس قط « انوجونجواى » وأسرته .

ولما كبر جورج درس القانون، ثم ذهب إلى فيلادلفيا ليعمل فيها ، ولكن فؤاده لم يمل إلى المحاماة بل كانت لديه موهبة للرسم ، فأنفق وقتاً أكثر على رسم الناس الذين كانوا يحضرون جلسات المحاكم مما أنفقه على الانتباه إلى قضاياه . وفى النهاية اعتزل المحاماة وافتتح فى عام ١٨٢٠ ستوديو صغيراً واثبت على بابه لافتة كتب عليها : « جورج كاتلين : رسام الصور الصغيرة » .

وفى العام التالى عرض جورج بعض لوحاته بأكاديمية بنسلفانيا للفن وأخذ يزور بين الفينة والفينة متحف بيل بفلادلفيا لصاحبه الرسام المشهور «تشارلز ولسون بيل» .. وكان بيل قد عمل برتبة يوزباشى فى الثورة الأمريكية وسمح له برسم صور لقائده الجنرال جورج واشنطن وغيره من القادة المشهورين، كما قام برسم الكثير من أحداث الحرب .. وكان له ثلاثة أبناء على قدر كبير من الموهبة كفنانين هم : روفائيل ، وريمبراندت ، وتيتيان .

ووجد جورج كاتلين هذا المتحف مكاناً ساحراً . . وكان من بين كنوزه

الثمينة مجموعة شهيرة من الأشياء التي جمعها «لويس» و«كلارك» أثناء رحلتهما إلى منطقة المحيط الهادى ، ونماذج فاخرة من الأشغال اليدوية الهندية كان قد حصل عليها بيل نفسه ، وصور للهنود من رسم بيل استحوذت على إعجاب كاتلين أكثر من أي شىء آخر .

وأخذ جورج كاتلين يتردد على المتحف لزيارة هذه الصور الرائعة . وبينما كان واقفاً ذات يوم ينظر بإعجاب شديد إليها ، قدم لزيارة المتحف بعض الهنود الحمر الحقيقيين ، وكانوا جماعة من رؤساء قبائل البرارى مرتدين لجميع أدوات الزينة الخاصة بهم من رياش وزخارف .. لقد كانوا فى طريق عودتهم إلى مسقط رأسهم بعد أن قاموا بزيارة لواشنطون العاصمة . وشرع كاتلين ينظر إليهم نظرة إعجاب ، لاسيما وأنه كان قد عقـــد العزم فى يوم من الأيام على زيارة الغرب ، وربما يستطيع عندئذ أن يرسم صورهم . وأخذ كاتلين يدرب نفسه على العمل بسرعة ويرسم صوراً تمثل الحجم الطبيعى . وما إن مرت ثلاثة أعوام وهو يعمل بجد حتى أصبح يعد من أحسن رسامى الأشخاص فى عصره .

كان هذا الفنان الشاب الأديب الوسيم الطلعة مسالماً محبوباً لدى الجمهور .. كان الناس يحبون الجلوس أمامه ليرسم صورهم ويستحسنونها عند إتمامها . . وكان يمتاز بإضفاء لمسة موفقة عند رسم تعبيرات الوجوه وتفاصيل الملابس ، فأصبح زائراً يرحب بمقدمه فى كثير من المنازل . . لقـــد كان أمامه مستقبل زاهر لـكى يصبح رساماً مثالياً ، فتزوج فى عام ١٨٢٩ من فتاة جميلة ذات شعر أسود تدعى كلارا جريجورى ، وحسدتها على ذلك الـكثيرات من الفتيات الأخريات اللواتى كن يتطلعن إليه ويطمعن بالزواج منه .

ولم يكن أحد يعلم أن كاتلين لم يعتزم أن يصبح رساماً عصرياً للأشخاص لأنه كان مولعاً برسم الهنود ، وينوى الذهاب إلى الغرب بمجرد أن تسمح له الفرصة بذلك. وكانت « كلارا » تعلم ذلك،فلم تبد أى اعتراض . لقد كانت تثق ثقة تامة بمواهب زوجها الفنان الشاب وتشجعه على المضى قدماً فى كل مشروع يعقد العزم على تنفيذه .

وسرعان ما أتم جورج إحدى المهام الخاصة برسم المنـدوبين المجتمعين بمدينة ريتشموند لوضع دستور لولاية فيرجينيا حتى توجه إلى الغرب ، وحز فى نفسه أن يضطر إلى الذهاب دون صحبة زوجته لأنها كانت قد أصيبت بحمى فى مدينة ريتشموند وتمضى فترة النقاهـة فى منزل والديه . وكان جورج قد توجه إلى مدينة سانت لويس فى قارب مخصص لنقل البريد وزار « وليام كلارك » القائد المشهور الذى كان يعمل هناك مديراً لقسم شئون الهنود ، الذى دون الحصول على تصريح منه لم يكن يسمح لأى شخص من البيض أن ينتقل بين الهنود .

وعرض جورج بعض لوحاته ليشاهدها ذلك القائد العجوز الممشوق القامة القوى البنية ، وكان من بينها بضع لوحات لصور الهنود . . وألقى « كلارك » نظرة فاحصة عليها ثم تفرس فى الفنان ودعاه أن ينزل عنده ، وكانت وفود الهنود تزور مكتب « كلارك » كل يوم تقريباً ، فأتاح ذلك لـكاتلين الفرص الـكثيرة ليقوم برسم أى عدد من الهنود يرغبه.وذات يوم اصطحبه « كلارك » ليشاهد متحفه الخاص بالقطع الأثرية للهنود ، وكان من بينها عدد كبير من اللوحات الممثلة لرؤساء قبائل الهنود والمحاربين منهم معلقة على الجدران بين

دروع من جلد الثيران ورءوس الإبل والجاموس، فقال له كلارك: إن الرسامين قد صوروا جميع الهنود الحمر بحيث يبدون متشابهين فى مظهرهم . . ثم أضاف قائلا : « إن الهنود مختلفون فى شكلهم وملامحهم ودهائهم مثلنا نحن البيض ، ولكن ريشتك أيها الشاب هى أول ريشة استطاعت أن ترسمهم كما يبدون على حقيقتهم .

وشرع كاتلين يرسم الهنود أثناء النهار ويدرسهم مع كلارك أثناء الليل . . وكان كلارك العجوز يعرف عن وسائل حياتهم وأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم أكثر من أى رجل أبيض قابله الفنان على الإطلاق ؛ فأخذ كاتلين يزور بصحبته القبائل الهندية المختلفة ويعمل بجد عظيم فى رسوماته حتى أن الأطفال الأشقياء فى العادة كانوا يرهبونه ولم يتجاسروا على إغاظته بلمس لوحاته أو الازدحام حواليه . . لقد رسم محاربين قدماء بأعينهم السوداء المليئة بالغدر كما رسم الصغار المزخرفين بريش البجع وريش القنافذ وطلاء الحرب .

وعاد كاتلين بعد رحلة قصيرة عاجلة قام بها إلى مسقط رأسه قبل حلول فصل الشتاء إلى مدينة سانت لويس، وكان ابن أخت الجنرال كلارك — الصاغ بنجامين أوفالون — قد أصبح صديقاً له ، فرحب به أن ينزل قصره متى رغب فى ذلك ، وابتاع منه العديد من الصور، وأنفق الفنان بضع سنوات فى البرارى زار خلالها القبائل الهندية ورسم صوراً لها . . وإذا كان لديه وقت فراغ طويل — زهاء ساعة أو ساعتين — رسم فيها الوجوه بعناية ووضع الرسوم التخطيطية لأجسام الهنود وملابسهم لكى يكملها فيما بعد . وإذا كانت لديه بضع دقائق ،

كان يضع رسوماً تخطيطية على عجل ثم يقوم بإنجازها فيما بعد من ذاكرته العظيمة . لقد رسم كاتلين الخيمات ، والأدوات ، وصيد الجاموس ، ووضع رسومات تخطيطية للناس أثناء عملهم ولهوهم . . رسم كل هندى جلس أمامه كشخص قائم بذاته ، وكان كاتلين يضع مذكرات عما يعلمه عن طريقة معيشتهم ، فأصبح شيئاً فشيئاً يعرف ويقدر هؤلاء القوم الذين يزعم أنهم متوحشون ، والذين كانت لهم حضارة أعرق من حضارة الرجل الأبيض ، وكان من بينهم الأطباء ، والذين يعالجون أنفسهم بالعقاقير الطبية ، والذين يمارسون ديانة خاصة بهم ويتحدثون بلهجة تمتاز بالبلاغة .

وزار كاتلين قبيلة هنود « الماندان » ولاحظ بعين فاحصة ملامحهم الشقراء وشعرهم الناعم وأعينهم الزرقاوية أو الرمادية أو العسلية .. لقد كانوا يتميزون بصغر حجمهم ورشاقة قدمهم . . وكانوا يصبغون بالطلاء شعرهم وأوجهم ، ويستخدمون بدلا من الزوارق المصنوعة من قشرة شجر البتولا قوارب مستديرة مصنوعة من شجر الصفصاف ومكسوة بجلد الجاموس .. لقد كانوا يلبسون بأناقة ثياباً مصنوعة من جلد الغزال ومزركشة بريش القنافذ ويرتدون جلود الجاموس المكسوة بالجوخ فى أعلى أحد الكتفين وأسفل الكتف الآخر والتى تحمل من الداخل رسوماً تصويرية لتاريخ حياتهم . لقد أثارت جميع القبائل التى شاهدها اهتمامه ، فقام بدراستها بعناية فائقة ، كما حزن قبيلة « الماندان » . . لقد كان يتحمل الكثير من العناء فى سبيل رسم كل صغيرة وكبيرة ، وكل زى من أزيائهم ، وكل تعبير من تعبيراتهم رسماً متقناً .

وأخذ الفنان مجموعة لوحاته إلى الشرق وعرضها فى مدن عديدة .. وكان قد كون صداقة مع عدد من زعماء الهنود البارزين فزاره ذات شتاء اثنان من هؤلاء الزعماء هما «بلاكهوك» و«كيوكوك» ليظهرا معه أثناء عرض لوحاته. وحينما أخذ أوسكيولا أسيراً فى حصن «ولترى» أسرع كاتلين إلى كارولينا الجنوبية ورسم صورته . وأصبح لديه الآن مئات من الرسومات ، فبوبها فى كتالوج نشره تحت عنوان « فهرس معرض كاتلين الخاص بصور الهنود ومناظرهم الطبيعية وعاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم إلخ إلخ » . وكان الناس يشيرون إليه وهو مسافر فى القطار أو مار فى أحد الشوارع ويقولون برهبة « هو ذا الذى يرسم هندياً كل يوم » .

وحاول كاتلين أن يعرض محنة قبائل البرارى أمام أعضاء الكونجرس الأمريكى فى وشنطن العاصمة حتى يظفر بإصدار قوانين عادلة لحمايتهم .

وكانت تخالجه فكرة إقامة حديقة قومية عظيمة فى منطقة بلوستون حيث يستطيعون أن يعيشوا وفقاً لطريقتهم الخاصة ، ويصطادون الجاموس بالقوس والنشاب ، وإن هى إلا بضع سنوات حتى أصبحت حديقة بلوستون حقيقة قائمة مع أن قليلين هم الذين تذكروا الشخص الذى اقترح تخصيص مثل هذه المنطقة . وبالرغم من أنه لم يخصص أى جزء من الحديقة للهنود إلا أنه أقيمت فيها منطقة كبيرة لتربية حيوان «البيسون» للمحافظة على سلالة الجاموس الآخذ فى الفناء بسرعة فى البرارى .

وعقد كاتلين العزم على أن ينشر مذكراته وصوره فى كتاب حتى يتسنى للناس معرفة الهنود على حقيقتهم .. وأثار اهتمام دانيال وبستر وغيرهم من ذوى

النفوذ فى وشنطن لـكى يعملوا بجد من أجل تحقيق سياسة عادلة خاصة بالهنود. وتوقع وبستر أن يقوم الـكونجرس الأمريكى بشراء معرض كاثلين لصور الهنود للأمة الأمريكية فقال لـكاثلين بحماس. «أعرض لوحاتك فى كل مكان. أيها الشاب . . قل لجميع الأمريكيين ما قلته لى . . . إن شعبنا لجبار فى العدل، عندما يكون مسلحاً بالحق»

ولما لم يستطع كاثلين أن يقنع أى ناشر أمريكى بنشر كتابه عن الهنود، ذهب بمعرضه إلى انجلترا حيث ساعده لفيف من أصدقائه على إقامته فى القاعة المصرية بلندن، وأصبح يحظى بشهرة عظيمة . وفى عام ١٨٤١ نشر كتابه فى فى جزءين تحت عنوان « رسائل ومذكرات عن أخلاق هنود أمريكا الشمالية وعاداتهم وتقاليدهم وظروف معيشتهم » . وكان الـكتاب يحتوى على حوالى ثلثمائة صورة، فاستحوذ على اهتمام عدد كبير من الناس حتى إنه ليقال إنه لم توجد قط أية نسخة منه فى المـكتبات الصغيرة . . فـكل من حصل على نسخة منه كان يعتز بها ويحافظ عليها لأولاده وأحفاده لـكى يستمتعوا بالاطلاع عليها.

واستطاع كاثلين أن يجمع المال الوافر من معرض رسوماته ومن كتابه، ومحاضراته، فأحضر زوجته وأولاده ليعيشوا معه فى انجلترا . وحاول تجربة شىء جديد فى معرضه . . لقد أحضر هنوداً حقيقيين ليعرضوا كيفية استخدام العدد والأسلحة ويقدموا رقصات وأغان وصيحات الحرب . . وكان أول فريق من الهنود عمل معه فى معرضه يتـكون من تسعة أشخاص من قبيلة «أوجيبوى».

وكان عدد هنود الأوجيبويين قليلا فراحوا ينزلون من الأتوبيس هاتفين بصيحاتهم القوية، ويدخلون مثل الصاعقة إلى الفندق بملابسهم المصنوعة من

جلد الجاموس ، ويلوحون بسهامهم وفئووسهم التى يستخدمونها فى الحرب ، مما أفزع صاحب الفندق لدرجة كبيرة حتى أنه رفض السماح لهم بالبقاء فيه ، وفى النهاية اتخذت الترتيبات اللازمة فأقاموا فى المبنى الذى كان يوجد فيه معرض كاتلين ، وطلبوا منه أن يدعهم يشاهدون الملكة فيكتوريا .. وكان كاتلين رجلا مشهوراً فى انجلترا لحظى بمقابلة الملكة ونقل لجلالتها رغبة هنود الأوجيبوى فى مشاهدتها فاستقبلتهم الملكة بكل لطف وكرم وتحدثت إلى النساء منهم بنوع خاص من الرعاية ، وكانت إحدى النساء تحمل على ظهرها أرجوحة طفل فارغة مخططة بريش أسود فشملتها الملكة فيكتوريا بعطفها حينما علمت أن ذلك إنما يمثل عندهم علامة حداد لطفل متوفى .

وحينما عاد هنود الأوجيبوى حل محلهم فى المعرض أربعة عشر هنديا من هنود أيوا .. وبعد مرور فترة أخذهم كاتلين معه إلى فرنسا حيث جاء حشد عظيم من الفرنسيين لرؤيتهم ،وفى فرنسا توفيت « كلارا » زوجة كاتلين المحبوبة فكان لوفاتها ووفاة ابنه الصغير — الذى كان يمضى ساعات عديدة سعيدة فى مرسمه ـ وقع شديد عليه مما أدخل الحزن على نفســـه وجعله يرى الحياة مظلمة أمامه .

وأرسل كاتلين بناته الثلاث إلى بلدته فى أمريكا ليعشن مع أقاربهن .. وحاول أن يبيع معرض لوحاته الملونة للهنود إلى حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن جميع جهوده باءت بالفشل ، وفى النهاية استولى عليه أحد دائنيه .

وعقد كاتلين الفنان العزم على أن يقوم برسم المزيد من الصور لهنود

أمريكا الجنوبية فى هذه المرة . فأبحر فى عام ١٨٥٢ إلى أمريكا الجنوبية ، وكان وقتئذ فى سن السادسة والخمسين ولا يسمع كثيراً ... وانكب على عمله بشغف لأنه حينما كان يقوم برسم الهنود كان ينسى أحزانه وفشله فى الحياة . وأمضى كاثلين خمس سنوات متجولا فى أرجاء أمريكا الوسطى ، ثم عاد إلى برارى الولايات المتحدة الغربية ليرسم الصور ويؤلف الكتب عنها ، وفى عام ١٨٦٨ نشر كتابه بعنوان « آخر الجولات بين هنود جبال الروكى والأنديز » .

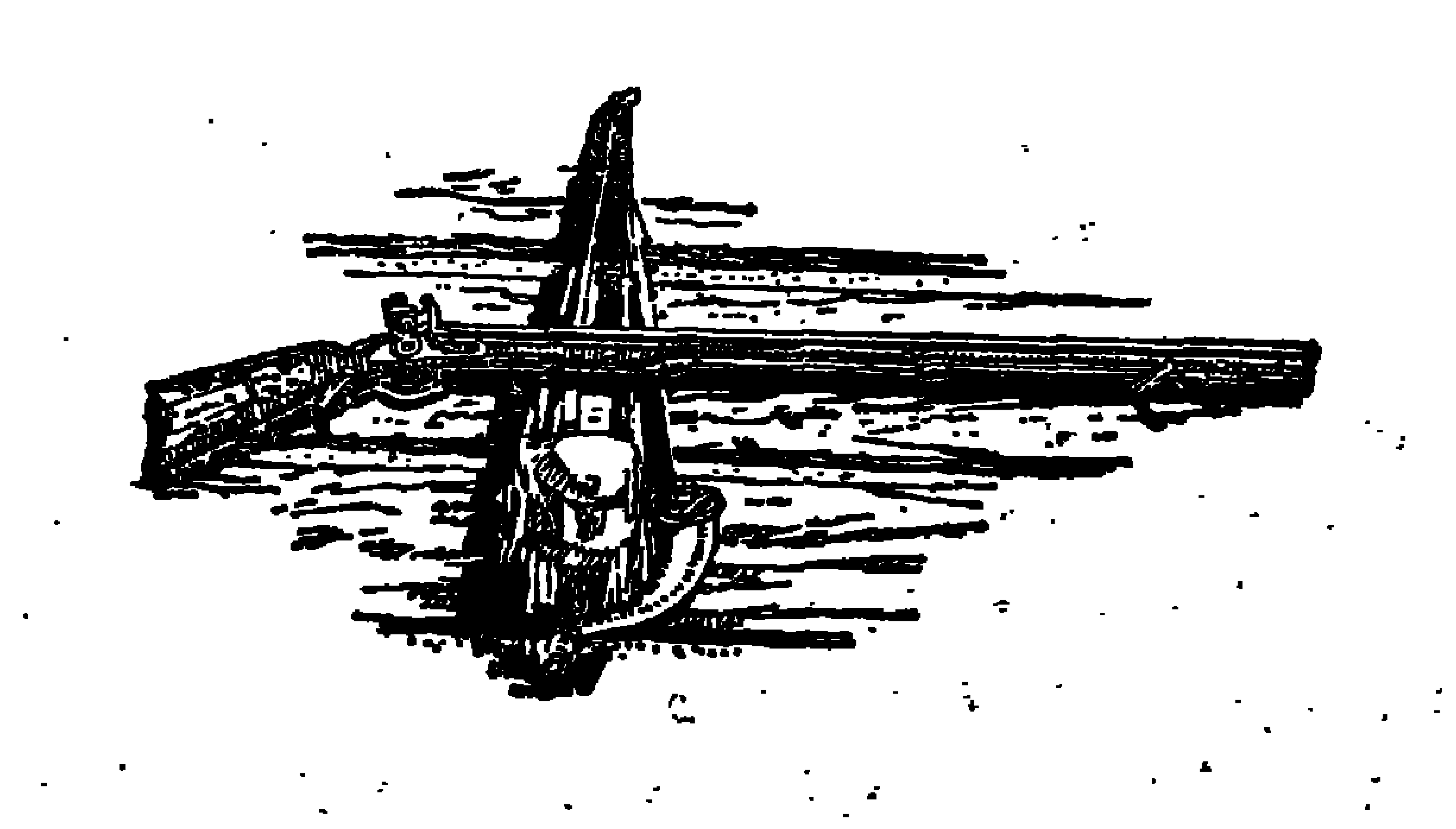
وفى أثناء عودة هذا الفنان العظيم إلى مدينة نيويورك أصيب بزكام وهو يسير فى يوم ممطر قارس البرودة فمات فى ٢٣ ديسمبر عام ١٨٧٢ وهو يصيح : « رباه .. ماذا سيكون عليه مصير معرضى » .

وإليك أيها القارىء ماحدث بمعرضه .. لقد ظل مكدساً فى صناديق المصنع الذى يملكه ذلك الدائن الذى استولى عليه .. وكانت النيران تنشب فى المصنع بين فترة وأخرى فيحرق أو يصلى لهيبها بعض الصناديق المملوءة بهذه اللوحات الثمينة أو تتلفها المياه المنبعثة من خراطيم الإطفاء أو تصل إليها الفيران وفراش العث فتزيد من تلفها .

وأخيرا ، قام معهد سميثسونيان فى وشنطون العاصمة بشراء هذه اللوحات فى عام ١٨٨١ .. وهكـــذا صار معظم اللوحات التى رسمها كاثلين بحجمها الطبيعى للهنود والمناظر القبلية — ويبلغ عددها ٤٧٠ لوحة — توجد فى معهد سميثسونيان ، كما يوجد حوالى ٧٠٠ رسم تخطيطى لهذا الفنان العظيم فى المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى بمدينة نيويورك ، وعــلاوة على ذلك فإن عدداً كبيراً من هذه الصور طبع فى كتب .

ويحتفظ هنود البرارى بحجر أحمر من نوع خاص يسمى «حجر الغليون» كانوا قد حصلوا عليه منذ أجيال من بعض المحاجر السرية فى مينوسيتا .. وكان جميع الهنود — حتى الأعداء منهم — يستطيعون زيارة هـذه المحاجر التى كانت منطقة هادئة خالية من المعارك والتى من حجرها الأحمر صنع الهنود الغلايين السليمة . وأخذ الهنود صديقهم جورج كاتلين ليزور هذه المحاجر ، وأطلق على هذا النوع من الحجر فيما بعد «حجر كاتلين» تكريما له، لأنه كان أول من لفت انتباه علماء المعادن إلى أهميته . ولا تزال هذه المحاجر التى من حجرها تصنع الغلايين ، تحظى بالاهتمام العظيم من جانب الزوار .

وهكذا أصبح جديراً أن يعلم المرء أن صديق الهنود أطلق اسمه على حجر السلام هذا :





هذا الرجل ، جيم بريدجر ، وكان يتصف بصداقته للناس ، فأحب أن يكون بينهم ، ويقوم بمساعدتهم .. عمل سنوات عديدة كمرشد لجماعات المستوطنين المسافرين فى قوافل من العربات نحو الغرب . فما أعظم الجماعة التى كان جيم مرشداً لها ، فقد كانوا يستطيعون بعد عناء سفرهم أن يستمتعوا بقصصه حول نار متقدة فى مخيمهم . وكانت قصص جيم طويلة مليئة بالإثارة لأنه كان فى يوم ما أحد « رجال الجبال » . . وكان رجال الجبال يعدون أنفسهم أبطال الفتيان والشباب فى عصرهم ، فعاشوا عيشة حرة مستقلة طالما تمناها العديدون من الرجال — عيشة كانوا خلالها يصادفون مخاطر جديدة ومغامرات جديدة . . لقد حاربوا الحيوانات البرية والهنود ، واصطادوا حيوانات الفراء ، وتاجروا بفرائها ، وبعضهم استطاع أن يكون ثروة من المتاجرة بها .

لقد كان جيم أشهر رجال الجبال قاطبة .

الفصل الحادي عشر

جيم بريدجر

رجل الجبـــال

(١٨٠٤ — ١٨٨١)

كان « جيم بريدجر » البالغ من العمر أربعة عشر عاماً ، أكرم فتى في مدينة سانت لويس الواقعة على الحدود . وكان « جيم » في سن الثامنة حينما قدم مع والديه من مدينة ريتشموند بفرجينيا في عربة مغطاة . . وحينما بلغ سن الثالثة عشرة توفي والداه فجاءت عمة حنونة له لتقوم برعايته ورعاية شقيقتـه الصغرى ماري آن . ولم يكن للأسرة الكثير من المال ، فأحس جيم وهو في الرابعـة عشرة من عمره بأنه يجب عليه أن يجد عمــلا ليساعــد الأسرة ، فذهب ليشتغل عند حداد .

وأحب جيم الناس وأحبوه هم أيضاً . . وكان فتى قوياً مطيعاً مما جعـل معلمه المجد النشيط يأخذ فكرة حسنة عنه . . وكانت ورشة الحدادة مكاناً رائعاً لفتى يبدي اهتماماً عظيما بجميع أجناس البشر ، لأن أجناسا عديدة أتوا لحذاء خيولهم ، أو إصلاح عرباتهم . . وكان من بين هؤلاء رواد في عربات مغطاة ، وهنود يرتدون رياشهم الملونة ، وتجار مكسيكيون ، وسياح فرنسيون وكنديون ، وسرعان ما استطاع جيم الذي لم يتعلم القراءة والكتابة على الإطلاق أن يتكلم بلغات ولهجات مختلفة . لقد تحدث مع المكسيكيين

بالأسبانية ، ومع الكنديين بالفرنسية ، ومع الهنود بلغتهم .

وكان رجال الجبال من أعظم الناس الذين أثاروا اهتمامه بصفة خاصة ممن قدموا إلى ورشة الحدادة . لقد بدوا للغلام كأنهم عمالقة بجسومهم القوية وشعرهم المسترسل ولحاهم الطويلة وبشرتهم الخشنة السمراء التى لفحتها الرياح وأشعة الشمس .. لقد كانوا يجلسون حول ورشة الحدادة فى قبعاتهم المصنوعة من الفرو وملابسهم المصنوعة من جلد الغزال ويتبادلون القصص عن مغامراتهم ، فاستمع ذلك الفتى الكبير الذى يعمل على السندان بهدوء إلى أحاديثهم عن رحلاتهم عبر الأنهر ، وعن نزالهم للحيوانات المتوحشة والهنود فقال فى نفسه : « سأذهب ذات يوم إلى الغرب » ، ولكن كيف يتسنى له ذلك ، فهذا ما لم يعرفه ؟ ذلك لأن توفير المسدسات والذخيرة والمؤن كان يحتاج إلى المال ، وكان جيم فقيراً يعول عمته وشقيقته من دخله الضئيل .

وحدث أن أذاع وليام آشلى ، أحد تجار الفراء ، فى عام ١٨٢٢ أنه يعتزم القيام بحملة إلى يلستون فى أعالى نهر المسيسيبى وأنه فى حاجة إلى مائة شاب يذهبون معه . وهنا كانت فرصة « جيم بريد جر » كى يتوجه إلى الغرب ويدفع له أجر عن ذلك ، فتطوع للانضمام إلى الحملة واضطر إلى أن يوقع بعلامة × لأنه لم يكن يعرف أن يكتب اسمه .

وفى هذه الحملة ، وفى الحملة التى خرجت بعدها بسنة شعر جيم لأول مرة بمتعة حياة رجال الجبال فأحبها .. لقد أحب إدارة الصنادل الطويلة ، وحياة الصيد ، وحياة الكشافة ، بل أحب الاشتباكات مع الهنود ، وأصبح خبيراً فى الرماية ببندقيته ، وكان دائماً على استعداد للعمل بجد والتعلم ، فاستحوذ على

احترام رجال الجبال المتقدمين فى السن . وكان فى الأمسيات يستمع بشغف إلى قصصهم الطويلة التى يروونها وهم جالسون بعد العشاء حول نار المعسكر ، ويحفظها فى ذاكرته ، لأنه كان يحلم أنه سيصبح ذات يوم قصاصاً عظيماً .

وحدث أن قتل الهنود عدداً قليلا من الجماعة ، كما حدث أن وقع عراك مخيف لأحدهم ويدعى « هيوسلاس » مع دب أشمط ، فظن أفراد الجماعة أنه مات فتركوه فى الغابة ، ولكنه لحق بهم فيما بعد وقص عليهم حكاية مؤلمة عن المخاطر التى صادفها .. لقد قال لهم إنه نجا من الهنود المعادين بأعجوبة ، وإنه تحمل الكثير من الآلام والجوع والظمأ قبل أن يسترد قواه ليلحق بهم .

وما إن مرت بضع سنوات حتى أخذ جيم يشعر كأنه من رجال الجبال المحنكين . وذات مرة حينما كانوا يتحدثون عن نهر الدب — نهر البير — الذى لا يعرف أحد منبعه ، اقترح جيم أن يذهب لاكتشافه .. وأخذ جيم عدداً من الرجال ، وسار بمحاذاته حتى وصل إلى تل كبير بولاية «يوتا» . ثم تسلق الجبل ليلقى على النهر نظرة فاحصة ، فشاهد جسماً ضخماً من الماء إلى الجنوب.. وشق أفراد الجماعة طريقهم إلى الماء وتذوقوه فوجدوه صالحاً ، فظن جيم أنه لابد وأن يكون خلجان المحيط الهادى . وفى الحقيقة كان هذا الجسم بحيرة « جريت سولت » ولعل جيم كان أول رجل أبيض شاهدها . وفى غمرة حماسه إلى اكتشافها نسى مهمته للبحث عن « نهر البير » .

وتوفيت عمة جيم وشقيقته بمجرد قيامه بأول رحلة له فتركتاه وحيداً فى هذا العالم .. وعمل لمدة ثمانية عشر عاماً كأحد رجال الجبال ، تعلم خلالها الكثير عن البلاد الواقعة شمالى نيومكسيكو وغيرها من البلاد الممتدة غربية

حتى كاليفورنيا ، وكون له صديقين حميمين هما توماس فيتزباتريك وجيمـ سميث . . وكان ثلاثتهم يقومون بالصيد معا فقتل سميث من الهنود فى عام ١٨٣١ ، ولـكن فيتزباتريك وجيم عاشا ليصبحا مرشدين حينما أخـذت تجارة الفراء فى التقهقر أثناء العقد الرابع من القرن التاسع عشر .

ومنع الهنود الرجال البيض من التطفل على أماكن صيـدهم فـكانوا يسرقون خيل البيض وفراءهم كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، بل كانت تقع بين الجانبين معارك كثيرة .. وفى إحدى هذه المعارك التى وقعت فى عام ١٨٣٢ أصاب أحد الهنود جيم بريدجر بسهم فى ظهره .. وكان رأس هذه السهم قد غرس فى أحد عظامه ولم يستطع أحد أن يزيله دون أن يرديه قتيلا . . وظل رأس السهم دفيناً فى ظهر جيم ثلاثة أعوام حتى جاء الدكتور ماركوس ويتمان المبشر الطبيب إلى البـلاد — وكان فى طريقه إلى أوريجون — فاغتنم جيم الفرصة .. ولـكن الجراحة كانت تجرى بطريقة بدائية جداً .. فبينما كان جيم مستلقياً على الأرض ويصر على أسنانه من شدة الألم انتزع الدكتور ويتمان رأس الرمح من عظمه .

وكان جيم محبوبا من رفاقه فلم يواجـــه أية صعوبات فى تنظيم رحلات الصيد .. وكانت كلاب الماء تأخذ فى النقصان فى جبال الروكى فتوجه مع رجاله إلى الغرب .. وكان الرواد يمرون بمنزله وهم فى طريقهم إلى أوريجون فحزن من أجلهم لأنهم لم يجدوا مكانا يستطيعون التوقف والاستراحة عنده . وفى عام ١٨٤٣ شيـد مركزاً تجاريا فى ويدمنج على طريق أوريجون دعاه « فورت بريدجر » . وكان منظره الجميل يلفت أنظار المهاجرين المتعبين فأخذوا يحطون

رحالهم فيه للاستراحة والتزود بالمؤن . . وكان جيم يحب الخروج ليلقى نظرة على العربات المغطاة العظيمة الواقفة فى حلقات داخل أسوار حصنه ، وليمتع نفسه بمشاهدة الحيوانات وهى ترعى على مسافة قريبة فى مأمن من غزوات الهنود .. كما كان يحب زيارة هؤلاء المستوطنين وهم منهمكون فى طهى طعام عشائهم على نيران مخيماتهم .

وكان المستوطنون دائما يرحبون به لينضم إليهم فى الحلقات التى يضربونها حول نيران مخيماتهم ، ويحثونه على أن يقص لهم حكاية من حكاياته ، فأصبح يشتهر بأنه أعظم قصاص فى الغرب .. وإذا مابدت قصة من قصصه مملة كان يزخرفها ببعض الحواشى ليجعلها أكثر إثارة .

وكانت إحدى قصص جيم عن جبل صخرى فى صفاء البلور . . . كان يقول لهم إن هذا الجبل هو على قدر عظيم من الصفاء حتى أن الطيور لا تستطيع رؤيته فتصطدم أثناء تحليقها به وتدق أعناقها .

وكانت قصة أخرى من قصصه تتعلق بجبل مرتفع جدا حتى أن الصوت كان يستغرق ثمانى ساعات لكى يصل إلى حاجز الجبل ويحدث صدى له .. وأن أى رجل يريد السفر مبكراً فى الصباح كان يستطيع أن يدير وجهه صوب الجبل أثناء النوم ويصيح بكلمة « استيقظ » ثم يدثر بفراشه وينام وبعد مرور ثمانى ساعات يسمع الرجل صـــــدى صوته يناديه « انهض » فيستيقظ من نومه .

كان جيم يحكى هذه القصص بوجه رزين وعين غامزة فينسى المستمعون إليه أتعابهم ويشرعون فى الضحك .

وذات مرة علم جيم بأن رجلا يدعى شكسبير كان قد كتب الكثير من الروايات التي تعد أفضل بكثير من أحسن القصص الموجودة في العالم وأن هذه القصص قد جمعت في كتاب . . وعقد جيم ، و كان مولعاً بالقصص ، العزم على أن يحصل على نسخة منه إذا استطاع ، فتوجه إلى الطرق الرئيسية وأخذ يسأل كل جماعة من المهاجرين إذا ما كانوا يحملون معهم نسخة من الكتاب . . وعثر جيم في آخر المطاف على رجل لديه نسخة منه فاشتراها منه بزوج من الثيران ، ولم يكن جيم يعرف القراءة فاستأجر غلاماً ليقرأ له جميع الكتاب . . وبينما كان الغلام يقرأ له أخذ جيم يستوعب جميع الخطط الموجودة في الروايات وراح يحفظ بعض المقتطفات ليسردها على مستمعيه في مناسبات ملائمة . . وكان جيم يشتهر بذاكرة جيدة حتى أنه ليقال إنه لم ينس قصة قط كان قد سمعها . . وهكذا أصبح يستطيع أن يحكي القصص من مؤلفات شكسبير حول نيران المخيمات ليلا بالإضافة إلى قصصه .

وغالباً ما عمل جيم في خدمة الولايات المتحدة ككشاف للجيش ، حينما كانت ترسل حملاتها إلى الغرب لتضع حداً لثورات الهنود . . لقد قاد الجنود الذين توجهوا إلى الغرب للمحاربة في حملة الرمون ، كما قاد المستوطنين وجماعات المستكشفين وحملات الاستطلاع .

وذات مرة عمل ككشاف ومرشد لأحد السادة الإيرلنديين كان قد قدم إلى أمريكا الشمالية لمطاردة الحيوانات البرية كهواية . . وبعد مرور عامين على مراقبته حدث أن ذبح ذلك الإيرلندى غزالا وجاموسة ، فلم يسع جيم سوى أن يحمله على العودة سريعاً إلى إيرلندا ، لقد كان يعتقد ، كما يعتقد الهنود ، بأن

الحيوانات البرية يجب ألا تذبح إلا عند ما يكون الإنسان فى حاجة إليها كطعام .

وحينما بلغ جيم الثالثة والسبعين كف عن العمل كمرشد ، واستقر فى منزل بالقرب من مدينة كنساس بولاية ميسورى . وكان جميع الأولاد فى المنطقة المجاورة لمنزله أصدقاء له يحبون الاستماع إليه وهو يقص عليهم حكايات الهنود . وكانت أحب قصة إليهم وأمتع قصة بالنسبة له تلك التى تتعلق بالمعركة ضد الهنود التى ساهم فيها .

لقد كان يقول لمستمعيه وهم يصغون إليه بانتباه ويندهشون من كل كلمة يقولها : « لقد حدث أن أوقعنى هنود الأنجوتز فى شركهم . وكانوا ستة ، ستة هنود كبار من الانجوتز ، وكنت أنا بمفردى ومعى مسدسى ذو الست طلقات ، ولكنه لم يكن يحتوى على سوى خمس رصاصات » .

وكان الأولاد يحثونه بقولهم : « نعم ، نعم ، واصل كلامك ياجيم ! » صحيح إنهم كانوا يعرفون هذه الحكاية ولكنها كانت تثير دهشتهم وفزعهم فى كل مرة يحكيها لهم ، فأخذوا يسألونه : « وماذا حدث بعد ذلك ؟ » وكان يقول لهم : « حسناً لقد قتلت خمسة هنود منهم ولكن السادس هجم على فلم ينفعنى مسدسى ، فألقيت به أرضاً وأخذنا نتقاتل يداً بيد بخناجرنا . آه لقد كان هندياً ضخماً لم أر مثله قط فى حياتى . . لقد كان محارباً شرسا أيضا ولكنى كنت أقاتله فى سبيل إنقاذ حياتى ، وكنت أعرف ذلك « فمرة كنت أذيقه مر العذاب ومرة أخرى كان هو يذيقنى مر العذاب » .

وكان جيم دائماً يتوقف هنيهة عن الكلام عند هذه النقطة، وينظر بطرفه عينيه إلى الأطفال .

وكانوا يصيحون له بشغف : « ثم ماذا حدث ! » وكان جيم ينظر إليهم مضطراً ويقول : « ماذا ؟ ثم استطاع ذلك الهندى الضخم أن يقتلنى ! »

وكان بعض الجيران ينظرون إلى جيم — رجل الجبال العجوز — نظرة حزن وهو جالس بمفرده على شرفة منزله يتطلع نحو الغرب الذى يعرفه جيداً لقد ظنوا أنه لابد يشعر بالوحدة . . إنهم لم يدركوا أن الشرفة كانت تزدحم بجماعة من الرجال البواسل يمثلون الصيادين والتجار والمرشدين ممن عرفهم جيم من أمثال فيتز باتريك وجيد سميث وهيو جلاس وكيت كارسون ، وممن كانوا جميعاً أصدقاء له وأصبحوا الآن فى عالم الغيب أو متفرقين فى أجزاء نائية من البلاد .. إنه لن يراهم ثانية بعد ذلك لأنهم كانوا قد أصبحوا جزءاً من ذاكرته البعيدة التصديق ، وسيظل يحتفظ بهم بالقرب منه على الدوام .

وفى عام ١٨٨١ توفى جيم عن عمر يناهز السابعة والسبعين ودفن فى مقبرة ماونت واشنطن بالقرب من مدينة اند بندانس بولاية ميسورى ، حيث يرقد العديدون من الناس الذين أرشدهم وهم فى طريقهم إلى الغرب ، وحيث يوجد له ضريح كتبت عليه عبارة : « هنا يرقد جيم آخر وأعظم رجل من رجال الجبال » .

والكشافة فى هذه المنطقة يمارسون تقليداً جميلا منذ ثلاثين عاما حينما قام دان بيرد بزيارة إلى ولاية ميسورى . . ودان بيرد ، هو أحد مؤسسى

حركة الكشافة فى أمريكا — كان دائماً دائب البحث عن وسائل تجعل الفتيان أكثر وعياً بتراثهم التاريخى ، كما كان معجباً بجيم بريدجر .

واقترح دان بيرد أن يقوم فريق من الكشافة برحلة إلى ضريح جيم فى كل عام ، فتحققت رغبته وأصبح اقتراحه ينفذ .. وهكذا فإنه يقام احتفال قصير فى هذه المناسبة كل عام وتوضع باقة من الزهور على ضريح أعظم وأشهر كشاف فى العالم على الإطلاق .



هذا الرجل كاق هادئاً مثقفاً حلو الحديث ، ولـكن بشجاعة تعبر عن يقينه .. وكان جيد سميث ذاقامة طولها ست أقدام، نحيفاً محباً للتجوال حينما انضم إلى رجال الجبال حاملا بيد كتابه المقدس وباليد الأخرى مسدسه .. وحينما استجاب فى عام ١٨٢٣ إلى دعوة الجنرال آشلى التى طلب فيها أن ينضم المزيد من الناشئين لحملة تجارة الفراء التى قادها ، نظر إليه بعض رجال الجبال نظرة حيرة وقالوا : « إنه لايصلح للمهمة . فهو ضعيف ونحيف » ولـكن زعيمهم أجابهم بقوله : « سنمنحه فرصة لـكى يثبت جدارته » .. وكان الجنرال آشلى يتميز بحكمه الصحيح على الرجال ، فوجد فى نظرة حيم غير الهيابة شيئاً يفتقر إليه الآخرون . . وهـكذا كان جيد سمث أحد الجماعة وأصبح من أعظم قصاصى الأثر فى عصره ، ومكتشفاً لممرات جديدة تؤدي إلى كاليفورنيا والمنطقة الشمالية الغربية المتاخمة للمحيط الهادى .

الفصل الثاني عشر

جيد سميث

الشجاع الرزين

(١٧٩٩ — ١٨٣١)

انتهت غزوة الهنود بمثل المفاجأة التى شنوها . . فقد فر أصحاب البشرة الحمراء ، ولـكن بعد أن قتلوا عدداً من رجال الجبال المنضمين للحملة التجارية لعام ١٨٢٣ التى تزعم قيادتها الرائدان : آشلى وهنرى .

واستعد رفاق القتلى لدفن قتلاهم ، بينما كان الحزن بادياً على ملامحهم ، فحفروا القبور وأنزلوا الجثث فيها . . وفجأة تقدم إلى الأمام شاب نحيف يدعى جيد سميث وأحنى رأسه وشرع يصلى . . وسرت بين رجال الجبال الخشنين حركة مباغتة ، ولـكن سذاجة «جيد» وصدق إخلاصه كان لهما وقع عظيم فى قلوبهم ، فأنصتوا بخشوع إلى أن انتهت الصلاة .

وكان «جيد» — وهو من مواليد ولاية نيويورك — قد هاجر مع والديه وإخوته وأخواته إلى ولاية أوهايو ، وفيها استطاع ذلك الشاب اللامع المجد أن يحصل على ثقافة تؤهله كى يصبح مدرساً أو مبشراً .

ولـكن جيد كان قد سمع قصصاً مثيرة عن الغرب العظيم وعقد العزم على الذهاب إلى هنالك . . وحينما بلغ الثالثة والعشرين من عمره ، توجه إلى الغرب

وهو يحمل مسدسه وكيساً على ظهره فيه عدد من الكتب والهدايا والمهمات . واستطاع أثناء سفره أن يدخر مبلغ خمسين دولاراً كسبه من عمله فى الصيد فأرسله إلى والديه فى أوهايو لاسيما أن حرب عام ١٨١٢ كانت قد تركت أسرته فقيرة .

وكانت وجهته مدينة سانت لويس .. فلما وصل إلى تلك المدينة المتاخمة للحدود ألقى نظرة ملؤها السعادة على كل شىء . . وكانت المدينة تعج بالحركة وبسكانها الذين يبلغ عددهم خمسمائة شخص . . لقد كانت السفن على اختلاف أنواعها تجر إلى المرفأ والشوارع مزدحمة بالناس .. واختلط قوم من الأفاضل دون اكتراث بتجار فراء مرتدين ثياباً من جلد الغزال وهنود ملتفين بالبطاطين .

وتوقع « جيد » أن يكون ثروة فى الغرب لاسيما وقد كان له فى مسقط رأسه خمسة إخوة أصغر منه سناً يريد أن يساعدهم فى الحصول على ثقافة .. ووصل إلى سانت لويس متأخراً جداً بحيث لم يستطع الانضمام إلى حملة آشلى — هنرى التجارية لعام ١٨٢٢ .. ولكنه انضم إلى الحملة الثانية التى توجهت إلى الغرب فى السنة التالية ، وسرعان ما أثبت جدارته كعضو عامل فيها ، فراح يعاون فى العمل على سارية صندل متجه إلى أعالى نهر الميسورى ، كما أخذ ينفذ دوره فى العد على الشاطىء وهو ممسك بحبل فى يديه ويساعد فى قطره . . ولقد كان من شأن الصلاة التى تلاها بشجاعة على قبور رفاقه أن زادت من احترام رجال الجبال له .

ولم يكن « جيد » يفتقر إلى الشجاعة بتاتاً .. فذات مرة عندما هاجمته

الفريق جماعة كبيرة من المحاربين من هنود إريكارا ، طلب الجنرال آشلى متطوعين للذهاب إلى أقرب حصن للنجدة .. وكان « جيد » أول من تقدم إلى الأمام وعرض عليه أن يذهب بمفرده، ولكن الجنرال أقنعه بأن يصطحب معه مرافق .. وتمكن الاثنان من الوصول إلى الحصن ومعهم الرسالة ، وبذلك تم لهم إنقاذ التجار .

وبالرغم مما كان يمتاز به « جيد » من هدوء، فقد استطاع أن يساير رجال الجبال .. فذات مرة توجه بصحبة بضعة رجال إلى الشمال وفاز بعدد من الفراء من منطقة « أيروكوا » ، ثم توجه إلى بلاد نهر الفلاتهيدز فى الولاية التى تدعى حاليا مونتانا .. لقد كان « جيد » دائماً يتشوق إلى اكتشاف بلاد جديدة .

وفى عام ١٨٢٤ قاد هو ورجل آخر من رجال الجبال يدعى توماس فيتزباتريك ، جماعة عبر الممر الجنوبى الذى يخترق جبال الروكى بولاية ويومنج .. ولم تكن الطريق التى تبعاها جديدة ، بل قد سلكها فى عام ١٨١٢ جماعة مسافرة إلى مدينة أستوريا الواقعة على نهر كولومبيا ، لكنهما كانا أول من بدأ استخدامها بصورة نظامية .. لقد اتخذ الممر الجنوبى سنوات عديدة كدرب للمهاجرين الذين كانوا يتوجهون إلى أقصى الغرب .

وفى عام ١٨٢٥ واجه جيد مغامرة طريفة ، فقد شرع هو وجماعة تتكون من سبعة عشر رجلا وخمسين حصاناً ، فى عبور جبال سيارا نيفادا من طرف منطقة بحيرة « جريت سولت » فصحراء « موجاف » .. وكانوا قد سلكوا طريقاً يتجه إلى الجنوب الغربى طوال فصل الصيف ، فقاسوا الكثير بسبب

الجوع والظمأ وفقدوا العديد من الخيول المخصصة لحمل أمتعتهم وهم فى طريقهم، وفى النهاية وصلوا إلى إرسالية سان جبريال فى جنوب كاليفورنيا حيث رحب بهم الآباء الأسبانيون وأحسنوا مجاملتهم . . وكان هؤلاء الآباء مثقفين ينحدرون من أسر أسبانية مشهورة ، كما كان جيد نفسه على قدر لابأس به من الثقافة فتحدث معهم بالأسبانية واستمتع بفترة وجوده معهم.

واستاء حاكم كاليفورنيا المكسيكى عند ما سمع بوجود الأمريكيين فى بلاده ، وظنهم جواسيس يعملون لحساب الولايات المتحدة الأمريكية . . . لقد كان المكسيكيون يريدون الاحتفاظ بكاليفورنيا لأنفسهم فلم يرحبوا بالمهاجرين إليها ، كما كان العديدون منهم يتذكرون كيف أن رجلا أمريكيا آخر يدعى زيب بايك ضل طريقه فدخل مدينة سانتافى منذ أقل من عشرين سنة خلت . . لقد كان المكسيكيون يخشون أن تكون الولايات المتحدة تدبر الخطط لتوسع من رقعة بلادها ، فعقدوا العزم على الحيلولة دون ذلك ؛ ووصلت الأوامر إلى جيد وجماعته بمغادرة كاليفورنيا فى الحال، فحزن لاضطراره إلى أن يفترق عن أصدقائه الجدد ، وتبودلت الهدايا بين الأمريكيين والآباء الأسبانيين ذوى البشرة السمراء والأخلاق الدمثة، ثم شرع الآباء فى الانتباه إلى عملهم الخاص بهداية الهنود إلى الدين القويم ، وامتطى الأمريكيون خيولهم ، وساروا خارج كاليفورنيا ليواجهوا مغامرات اكتشافات جديدة .

وكان يقام فى كل سنة فى الفترة بين عامى ١٨٢٥ و ١٨٣٧ سوق على الحدود بين ولايتى ويومنج ، ويوتا .. وكان التجار والصيادون والمكتشفون والهنود ورجال الجبال يقطعون أميالا عديدة لحضور هذه السوق وشراء وبيع

ومبادلة الفراء والحيوان والبنادق والبارود والسكر والبن والسكاكين والأقمشة والحلي والمصوغات بسرعة ملؤها السعادة .. كذلك كان هؤلاء القوم يتبادلون قصصاً عن مغامرات لا تصدق أثناء هذه الفترة من الهرج والمرج التي كانت تستمر أسبوعاً أو أسبوعين حتى بعد الانتهاء من أعمالهم التجارية .

وما أن انتهى جيد من مغامرته فى كاليفورنيا حتى توجه إلى هذه السوق. لأنه كان يحتاج إلى خيول ومؤن ويأمل فى أن يجد المزيد من الرجال للانضمام إلى رحلة استكشافية أخرى يريد القيام بها ،وعلم جيد بينما كان فى هذه السوق بأن الجنرال آشلى يعتزم أن يترك عمله فى متاجرة الفراء ، فاهتم بالنبأ لأن آشلى كان له محل ناجح للمتاجرة مع الهنود ، وتحدث جيد سميث مع اثنين من أصدقائه هما دافيد جاكسون ووليام سابلت واتفقوا على شرائه .

وأصبحت لسميث وجاكسون وسابلت شركة للمتاجرة بالفراء ، وراحوا يطوفون آفاق الجنوب الغربى ، ويقومون بجمع الفراء والكشف ورسم الخرائط ومحاربة الهنود ، وفى عام ١٨٢٩ طرأت لجيد وشريكه فكرة جديدة . . لماذا لا ينقلون المؤن والإمدادات عبر الجبال فى عربات ، بدلا من نقلها على ظهور الخيل ؟

وقال جيد : « نستطيع أن نجمع المزيد من المال إذا ما اشترينا عربات،لأننا نستطيع بواسطتها أن ننقل المزيد من الفراء إلى السوق ، كما نستطيع أن ننقل المزيد من السلع لمقايضتها مع الهنود » .

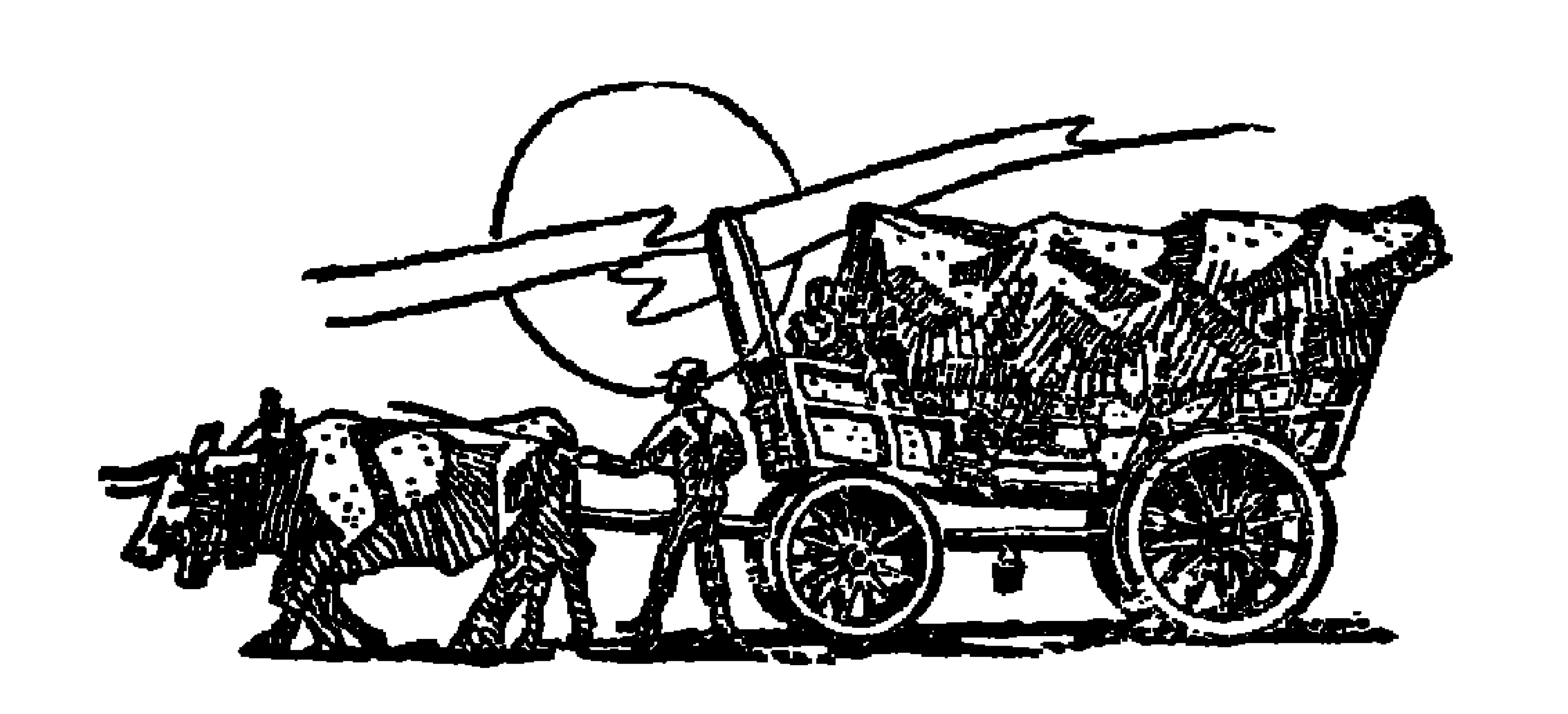
وفى سانت لويس اشتروا عشر عربات وخمسين بغلا أى بمعدل خمسة بغال لكل عربة ، وفى ١٠ أبريل عام ١٨٣٠ غادروا المدينة بعرباتهم المحملة بالبضائع

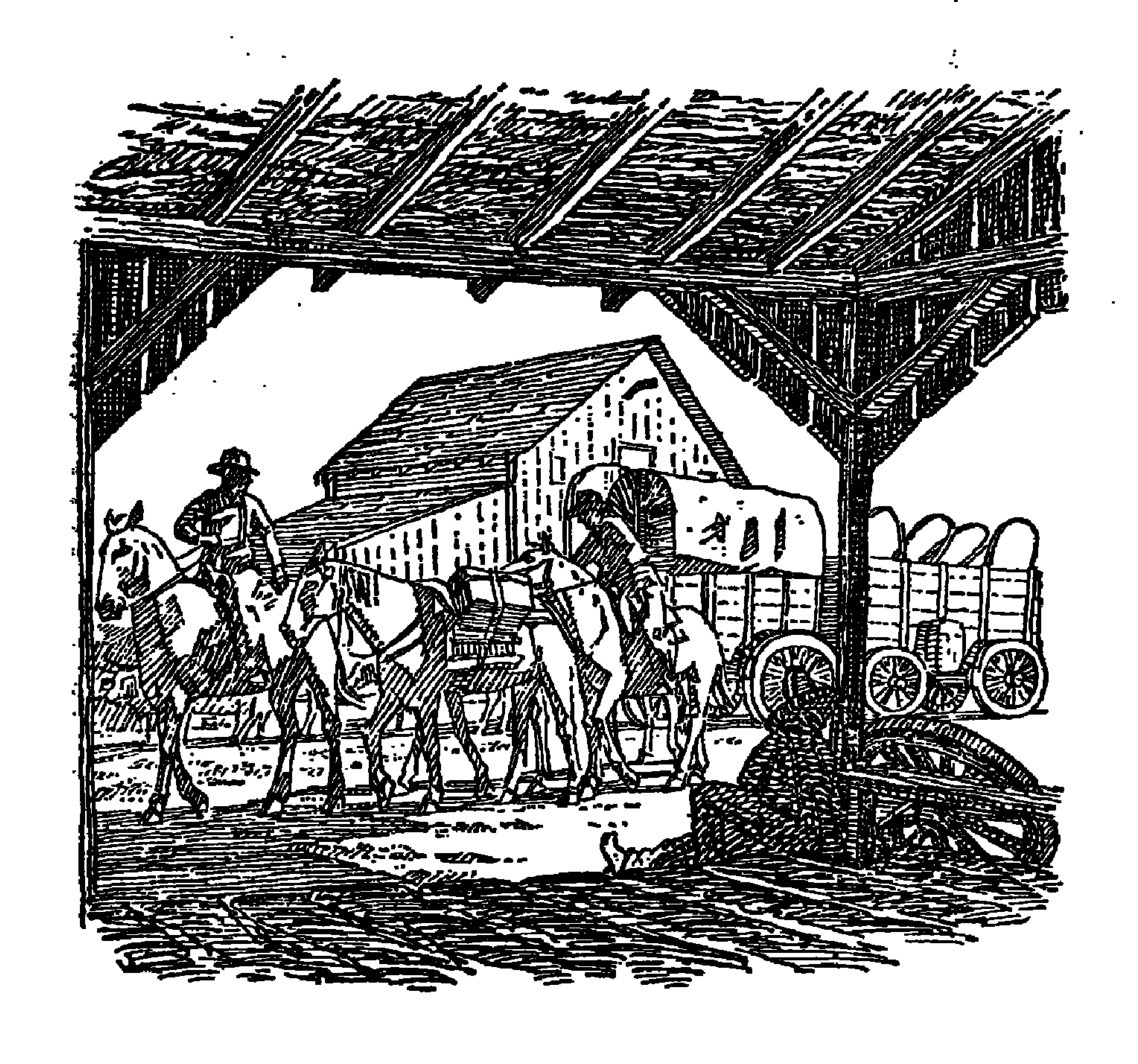
والمؤن وسافروا بمحاذاة نهر الميسورى فوصلوا إلى مدينة إندبندانس بولاية ميسورى حيث تفرع طريقان عظيمان متجهان إلى الغرب أحدهما يؤدى إلى سانتافى ، والآخر إلى كاليفورنيا . وتبع « جيد » طريق سانتافى غربا لنحو أربعين ميلا ثم اتجه إلى الشمال الغربى نحو أوريجون . وكان من شأن هذه الرحلة أن أنشأت استخدام طريق أوريجون للسفر بالعربات ، وفى السنوات التالية حذا الآلاف من المهاجرين حذو جيد سميث وجماعته ، وأطلق على هذه العربات المغطاة العظيمة لقب «سفن البرارى » وأصبحت مألوفة لأعين الناظرين وهى تتمايل فى سيرها غربا عبر أراضى كانساس ونبراسكا وديومنج حاملة أفواج المستوطنين وأمتعتهم إلى آفاق بعيدة .

وفى عام ١٨٣١ ، كان جيد يقود قافلة من التجار إلى سانتافى ، فقرر أن يسلك طريقاً مختصرة ، وسرعان ما وجدت القافلة نفسها فى بلاد غير معروفة ونفذ ما لدى القافلة من ماء ، فذهب جيد ليبحث عن جدول ماء، فقتلته جماعة من هنود الكومانش بالقرب من نهر سيمارون وهو لا يزال فى الثانية والثلاثين من عمره . . ولكنه استطاع قبل وفاته أن يحقق طموحه فى مساعدة أسرته ، فقدم اثنان من إخوته إلى الغرب وانضموا إلى جماعته .

وكان فى استطاعة جيد أن يصبح مبشراً أو مدرساً . . ولكنه حبذ أن يحيا حياة مليئة بالمغامرات والمخاطر ، شأنه فى ذلك شأن جميع الرواد ، فقام أثناء رحلاته باكتشاف وتخطيط الكثير من المسالك ، وعمل بطبعه المتزن وتفكيره الواقعى أكثر من العديدين غيره من معاصريه البارزين على تشجيع الهجرة إلى المناطق الغربية .

و كان رجلا متدينا ينتمى إلى طائفة النظاميين . . فأخذ يصلى إلى الله كلما واجهته مشكلة صعبة ويسأله العون على حلها ، كما أخذ يتعامل بعدل مع الهنود الذين جلبوا له الفراء ليشتريها . وكان شجاعاً لا يهاب الأوغاد أو العربدين ، ومع ذلك فقد كان تصرفه نحو الآخرين يتسم بالمودة والتعقل . لقد كان جيد سميث الشاب من أعظم رجال الجبال بعيش عيشة مليئة بالشجاعة والإقدام ، مكرساً إياها فى سبيل تحقيق مهمة رحيمة لأصدقائه .





هذا الرائد توجه إلى الغرب من مدينة أندبندانس إلى مدينة « سانتاف » مع قافلة التجار بسبب اعتلال صحته . إنه جوسيا جريج الذى أحب الحياة لدرجة كبيرة حتى أصبح هو نفسه تاجراً .. وكان رجلا نحيفاً سريع التأثر ، ولكنه استطاع أن يثبت مع أصعب التجار مراسا ، وكتب جميع مغامراته فى كراسة نشرها عام ١٨٤٤ فى كتاب بعنوان « تجارة البرارى » يعتبر أول مرجع تاريخى عن ممر سانتاف .

الباب الثالث عشر

جوسيا جريج

مؤرخ قصة ممر سانتافى

كان «جوسيا جريج» يعتبر ذهابه إلى مدينة أندبندانس — كما سنحت له الفرصة إلى ذلك — عيداً سعيداً . وهاجرت أسرة جريج إلى ميسورى من إلينوى واستقرت فى مزرعة بالقرب من مدينة أندبندانس. ووجد جوسيا الشاب المدينة الصغيرة تشتمل على الإثارة ، فأخذ كراسة وقلماً بعد عودته إلى المنزل وكتب مذكرات بكل ما حدث .

وكانت مدينة إندبندانس المركز الذى يتجمع فيه المستوطنون للسفر عبر ممر سانتافى وممر كاليفورنيا الذى يتفرع منه بعد مسافة قصيرة ممر فرعى آخر يؤدى إلى أوريجون . وكان هؤلاء الرواد المسافرون فى عربات مغطاة يتوقفون فى هذه المدينة لشراء مؤنهم وحذاء خيولهم أو بغالهم أو ثيرانهم فيأخذ جوسيا يحدق بهم ويستمع بكل انتباه إلى جميع ما يقولونه أو يفعلونه ، ويدونه فى كراسة ، بينما كان والده يهتم بشئون محله التجارى .

وجد جوسيا سائقى العربات الذين يجلسون حول ورشة الحدادة للاستراحة ويتناقشون فى أى من الحيوانات هى أكثر ملاءمة لجر العربات المغطاة المحملة بالأمتعة والناس .. لقد استمع إليهم وهم يقولون إن الثيران بطيئة

فى سيرها، وإن حوافرها قاسية لحذائها ، كما استمع إليهم وهم يجيبون بأن الخيل والبغال وإن كانت أسرع من الثيران ويمكن لها أن تسير براحة أكثر منها على حوافرها الصلبة ، إلا أن الهنود يحبون سرقة الخيل ولا يحبون سرقة الثيران البطيئة ، لأنهم لا يستخدمونها .. وكان جوسيا يتأمل فى كلامهم ويقول فى قرارة نفسه إنه سيكون سعيداً لو أنه استطاع السفر إلى الغرب فى يوم من الأيام بغض النظر عن نوع حيوانات الجر التى ستقوم بسحب العربة التى سيركبها !

ونظر جوسيا أيضاً نظرة حسد إلى أولئك التجار الذين كانوا فى طريقهم إلى سانتاف والذين كانت عرباتهم محملة ببالات من الأقمشة القطنية الزاهية ، وبأشرطة وشيلان حريرية ، وبالسكاكين والعدد والمجوهرات لمقايضتها مع المكسيكيين بالفراء والفضة .

ولما لم يكن من الحكمة فى شىء أن تسافر أية عربة بمفردها نحو الغرب ، فقد كانوا يتجمعون فى قوافل لحماية أنفسهم ضد هجمات العصابات والهنود .. وكان سائقو هذه القوافل دائماً على أهبة الاستعداد ، فحملوا الأسلحة ، وحكوا الكثير من القصص عن مطاردة حيوان الجاموس وإفلاتهم من الوقوع فى شرك الهنود .

وكان جوسيا كثيراً مايردد فى قرارة نفسه : « ترى هل أستطيع فى يوم من الأيام أن أقوم بمطاردة الجواميس ؟ أو مطاردة رجل هندى غير مستأنس لا يشبه أولئك الذين نراهم حول مدينة إندبندانس؟ متى أستطيع أن أرى هندياً حقيقياً متوحشاً من هنود البرارى » ؟

ولما كبر جوسيا عقد العزم على أن يصبح مساحا . . بيد أنه حينما كان في بواكير العقد الثاني من عمره ، اعتلت صحته فاقترح عليه طبيبه أن يقوم برحلة إلى الغرب .. قال له طبيبه : « اذهب مع قافلة . . فإني أعتقد أن المعيشة الصحية في الهواء الطلق ستساعدك » .

وهكذا توجه جوسيا جريج في عام ١٨٣١ إلى الغرب مع قافلة تجار مسافرين إلى سانتا في . . وفرح جوسيا أيما فرح . . كان قد سافر في أول الرحلة في عربة خاصة به ، كما كان لزاما عليه أن يتناول طعاما خاصا يناسب صحته العليلة . . ولكن ما إن مضى أسبوع حتى أصبح يشعر بتحسن في صحتـه ، ويستطيع ركوب الخيل لبضع ساعات أثناء النهار ، والجلوس أثناء الليل بالقرب من نار متقدة مع غيره من الرجال أعضاء الجماعة العاملين في التجارة . . وحينما كان يقدم له لحم الجاموس كان يأكل حصته ويستمتع بها ولم يمض وقت طويل حتى أصبح قويا معافى .

وكتب مذكرات عن هذه الرحلة وغيرها من الرحلات التجارية التي قام بها ، فنشر في عام ١٨٤٤ كتاباً بعنوان « تجار البراري » اشتمل على الحياة اليومية التي يعيشها التجار ، وأصبح مرجعاً يوثق به في تاريخ الحدود .

وأثناء الرحلة البديعة الأولى عندما كان كل شيء جديداً بالنسبة له ، لم يستطع الانتظار إلى المساء لكي يقوم بتدوين مذكراته ، بل سجل في حينه جميع المناظر والأحداث التي شاهدها في ذلك اليوم .

وانضم المهاجرون إلى قافلة التجار لحماية أنفسهم ، فدهش وطرب لوجوده في قافلة طويلة من العربات المغطاة العظيمة .

كان يستيقظ فى الصباح على صوت رئيس القافلة وهو يقول: « هيا الحقوا بالقافلة ! هيا الحقوا بالقافلة ! ألجموا حيواناتكم . . أملئوا عرباتكم ! اربطوا الماشية ! »

وكلما أصبحت عربة سائق جاهزة ، كان رئيس القافلة يقول : « كل شىء على غاية ما يرام ؟ » ، ثم يدفعها لتكون فى صف عربات القافلة .

وإن هى إلا لحظات حتى يشرع قائد القافلة فيصيح بصوت عال: هيا سيروا . » ثم تأخذ القافلة فى التحرك .. وحينما تصل إلى السهول ، تأخذ سرعاتها تقل فتقطعها بسرعة لا تزيد معدلها على خمسة عشر ميلا فى اليوم الواحد .

وكان أولاد المهاجرين يطلون برءوسهم من العربات فيشاهدون السحالى بين العشب أو كلاب البرارى جالسة بقرب مداخل أوكارها ، وكان جوسيا يبتهج لمنظر هذه الحيوانات الصغيرة، شأنه فى ذلك شأن الأطفال .. وفى ذلك كتب يقول :

« إن كلب البرارى الصغير الحجم لمن أعجب الحيوانات البرية جميعاً ، فهو أكبر قليلا من السنجاب العادى ، إذ يبلغ طوله قدما تقريباً ، وله ذيل طوله بين ثلاث وأربع بوصات .. أما لونه فيتفاوت بين البنى والأصفر القذر .. وقد يرى المسافر وهو يقترب من إحدى القرى هذه الكلاب الصغيرة وهى تمرح فى الأزقة وتدخل فى جحر ثم تخرج منه إلى جحر آخر .. وربما كان ذلك فى زيارات تقوم بها . وفى بعض الأحيان يرى المسافر عدداً من هذه الكلاب مجتمعة معاً كأنها تتداول فى شئونها ، كما يرى بعضها يتغذى

على العشب اليانع في مكان ما ، وفى مكان آخر تقوم بتنظيف أوكارها أو تتمرغ فى تل صغير بالقرب من أبوابها ، ومع ذلك فجميعها تلتزم الهدوء .. وحينما تشاهد رجلا غريباً يأخذ كل واحد منها فى السير خلسة إلى بيته بعد أن يتوقف فى مدخله ويدق ناقوس الخطر بإرساله عواء مجلجلا متتالياً وهو جالس منتصب فى معظم الأحيان » .

وفى بعض الأحيان كانت كل عربتين من عربات القافلة تسيران جنباً إلى جنب ، وفى بعض الأحيان الأخرى كانت كل أربع عربات تسير مترنحة بمحاذاة بعضها بين عفار السهول الدائم .. وإذا لم يبد فى الأفق خطر هجوم مفاجىء من جانب الهنود كان يسمح للأطفال بالنزول منها والجرى بجانبها لفترة ما .

وكان كل شيء عن القافلة ذا أهمية بالنسبة لجوسيا ، فوصف كيف كانت العربات تحمل كتل الخشب لاستخدامها بمثابة صوارى فى حالة انكسار عرائشها ، كما وصف كيف كانت القوافل منظمة ولها ملازمون للبحث عن أفضل طريق يسلكونه ، والتفتيش على وضع العربات فى الأماكن الصحيحة حينما يصرخ رئيس القافلة : « قفوا عرباتكم » . وفى هذا كتب جوسيا يقول : « وما إن تحط العربات رحالها حتى تأخذ شكل مربع مجوف مكونا فى الحال حظيرة أو سياجا مؤقتا لحماية الحيوانات عند الحاجة ، وحصنا يقى المسافرين من غزوات الهنود . ولكى لا يرتبك أصحاب هذه الماشية ، كانت جميع النيران توقد خارج العربات ، كما كان المسافرون يفرشون خارجها فراشهم الذى يتكون معظمه من أبسطة وبطاطين مصنوعة من شعر الجاموس .

لقد كان النوم فى العراء والاستعداد للغزوات المفاجئة أمراً مألوفا ، كما كان بمثابة سلوى للمسافرين لا سيما أن سماء البرارى الصافية كانت تظللهم بجوها الهادىء العظيم .

لقد وصف جريج نيران المخيمات المتأججة كما وصف رائحة لحم الجاموس المشوى والقهوة المغلية .. وكتب الكثير من القصص عن المسافرين الذين تجمعوا حول النيران بعد تناول عشائهم وعن ترتيلهم عند طلوع النجوم لترانيم دينية وقصهم لحكايات مختلفة .

واتجه المهاجرون المسافرون مع القافلة فى طريقهم ، وذهب التجار إلى سانتافى .. واستغرقت الرحلة من مدينة إندبندانس قرابة سبعين يوماً . وحينما وصل التجار على بعد مائتى ميل من المكان الذى يقصدونه ، أرسلوا رسلا أمامهم ليقوموا بالإعداد لوصولهم .. وفى مساء اليوم السابق لدخولهم المدينة قام سائقو العربات ممن لديهم قمصان نظيفة بارتدائها . . وفى صباح اليوم التالى امتطى الجنود المكسيكيون جيادهم المزينة بزخارف فضية ليستقبلوا هؤلاء التجار ويرافقوهم إلى مدينة سانتافى .

وشرعت القافلة تشق طريقها ببطء داخلة نحو المدينة الأسبانية الصغيرة ، فتحمس كل من فيها لأن التجار الأمريكيين كانوا قد وصلوا إليها ، ثم أخذت العربات المغطاة تتجه نحو الميدان العام الذى تحيط به مبان من اللبن ، ودهش جوسيا جريج من الملابس الزاهية عندما شاهد الفقراء يرتدون ثيابا صوفية ذات ألوان عديدة ، والرجال منهم يضعون بطاطين على أكتافهم .. أما السيدات الأسبانيات الراقيات فكن يرتدين فساتين حريرية ويضعن على أكتافهن

شيلانا مزركشة ، وأما الرجال الأفاضل فقد كانوا يضعون على رءوسهم قبعات مكسيكيـة ويرتدون سراويل وسترات مطرزة بخيوط فضيـة ، ويمتطون صهوات جياد عظيمة تـكبح جماحها ألجمة من الفضة ، وعلى ظهورها سروج من الجلد المتقن الصناعة .

وأخذ الناس المحتشدون فى الميدان يصيحون : « إنهم الأمريكيون . إنها القافلة» لقد كان كل واحد منهم متشوقا لرؤية ما جلبه التجار معهم، وكانت فى انتظارهم أكشاك ومحلات خالية ليعرضوا فيها بضائعهم .

ومر فصل الصيف بسرعة .. وقام التجار فى أواخر شهر أغسطس — بعد أن تم لهم مقايضة وبيع كل مالديهم من السلع — بحزم أمتعتهم وأخذوا يتجهون شرقا .

ووصف جوسيا جريج عودة القافلة فـكتب يقول : « لقد كانت عربات القوافل العائدة إلى الشرق محملة بالشحنات الخفيفة .. وكانت الشحنة المخصصة لـكل عربة تتـكون من ألف إلى ألفى رطل ، لأن الجياد التى تجرها لم تـكن قادرة على سحبها بأحمالها الثقيلة بسبب جدب المراعى فى ذلك الفصل، ولـكن فصل الشتاء الذى كان على الأبواب كان يضطر التجار إلى الإسراع فى السفر حتى أن الرحلة كانت تقطع عادة فى أربعين يوما تقريبا ، وكانت السلع التى تشحن من تلك الجهة صغيرة الحجم نسبيا لأن المقايضة كانت تتم بصفة رئيسية ، كما ذكرنا ، بالنقود أو بالذهب أو بالسبائك الفضية ، وكان الذهب فى معظم الأحيان من التبر المستخرج من منجم الذهب بالقرب من

مدينة سانتا فى ، أما السبائك الفضية فكانت تأتى من مناجم الفضة الموجودة فى الجنوب لا سيما من تلك المناجم التى توجد فى منطقة تشيهوا هوا .

وبالإضافة إلى ذلك ، فقد كانت العربات تحمل عددا كبيرا من البغال والحمير ، وكذلك بعض الجواميس والأبسطة والفراء والصوف التى لولاها لعادت العربات فارغة . وكانت البطاطين المكسيكية الخشنة التى أمكن الحصول عليها مقابل بعض السلع الأخرى ، تباع بكميات صغيرة على حدود بلادنا وكان ذلك فى صالحنا نحن الأمريكيين .

وكان جوسيا جريج قد ألم بالكثير عن الهنود فأصبح يستطيع تفسير الإشارات الهندية . لقد أصبح يعرف أن : « النيران غير المنطفئة التى كانت توجد بالقرب منها أحذية من جلد الإبل إنما ترمز إلى انسحاب قام به الهنود المتوحشون من المنطقة القريبة منها » .

وكانت أسلحة الهنود « البيوبلو » تثير اهتمامه ، فكتب فى مذكراته يقول : « ولشد ما أدهشنى من أسلحة الهنود البيوبلو القوس والنشاب ، والسهم ذو القبضة الطويلة ، والبندقية القديمة ، والدرع المصنوع من الجلد الخام الشائع الاستعمال الذى وإن كان لايصلح للوقاية من الأسلحة النارية إلا أنه يقى مرتديه من أذى السهام والرماح .

وذات مرة كتب جوسيا جريج فى مذكرته قصة الغلام الأسبانى الذى كان فى سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة وسرقه الهنود منذ أربع سنوات .. لقد سأله جوسيا جريج : أتريد أن نشتريك ونأخذك إلى أهلك ؟ ، فأجابه الغلام

فى الحـال : « كلا يا سيدى .. فقـد أصبحت على قدر كبـير من الشراسة لأعيش بين المسيحيين » .

وقام جوسيا جريج الذى أصبح تاجرا بقيادة العديد من القوافل عبر البرارى ، وأصبح متشوقاً دائما إلى المغامرات ، فانضم فى عام ١٨٤٩ إلى حملة « جولد رش » المتجهة إلى كاليفورنيا ، وفى شتاء عام ١٨٥٠ كان يقود حملة استطلاعية عبر الحدود الساحلية لـكاليفورنيا ، فسقط عن جواده وتوفى فى الحال ، ودفن جثمانه فى بلدة كليزليك بولاية كاليفورنيا ، ولـكن ضريحه لم تحدد معالمه بعد ولم يعثر عليه حتى الآن .



هذا الرجل المدرس ، وليام ما كجفي ، كان رائداً في ميدان من نوع خاص . فلأكثر من مائة عام كان التلاميذ يتعلمون القراءة من كتاب « مبادىء قراءة نيو إنجلند » الذى اشتمل على قصص تتعلق بالجانب المظلم القاسى من الحياة . وأحب ما كجفى الأولاد وأراد لهم أن يقرأوا عن الأشياء التى يعرفونها ويحبونها كثيراً كالحيوانات الأليفة ، والأجداد ، وجداول المياه ، والروضات الغناء . لقد أراد لهم أن يستمتعوا بحياتهم كأطفال، وليس كرجال أو سيدات صغار ، فوضع خصيصا لهم « مدارج ماكجفى للقراءات المختارة »

ونشأ جيلان من الأمريكيين وهم يتذكرون ويحفظون ويرددون بقلوب مفعمة بالهيام والسعادة الكثير من صفحات كتاب «مدارج القراءة لما كجفى» .

الفصل الرابع عشر

وليام هومز ماكجفى

مؤلف

مدارج القراءة لأولاد الجدود

(١٨٠٠ — ١٨٧٣)

كانت والدة «وليام ماكجفى» تؤمن إيماناً عميقاً بتأثير الصلاة ، كما كانت على قدر كبير من الذكاء ، فقامت بتعليم أفراد أسرتها الكبيرة فى المنزل حيث كانوا يعيشون فى مجتمع أوهايو الصغير ، وسرعان ما أخذ وليام الذكى يحفظ ما تقوم والدته بتدريسه له . ولشدة ما حزنت والدته وهى تفكر فى حقيقة عدم توافر المال الكافى لديهم لمواصلة تثقيفه ، فأسلمت أمرها لله وشرعت تصلى لكى يمدها الله بالعون على حل هذه المشكلة المعقدة .

وبينما كانت تصلى ذات يوم بصوت عال مر بمنزلها شخص عظيم راكباً حصاناً ، كان هو القس هيوز ، مؤسس الأكاديمية المحلية ، وفى اليوم التالى عاد إليها وسألها عما إذا كان بعض الصبية المناسبين يرغبون الانضمام إلى مدرسته . . وأصبح وليام أحد تلاميذه ، وأخذ يشق طريقه فى المدرسة ، ويعمل فى حديقة ومنزل وكنيسة مستر هيوز .

وحينما بلغ وليام سن العشرين ، قدم طلباً ليشغل وظيفة مدير فى إحدى

المدارس، ولكنه لم ينجح فى الامتحان ، وهذا جعله يقتنع بأنه ما زال فى حاجة إلى المزيد من الثقافة . وفى عام ١٨٣٦ تخرج من كلية واشنطون ، وجيفرسون فى واشنطون بولاية بنسلفانيا .. وكان يحصل على المال اللازم لثقافته العالية عن طريق القيام بالتعليم فى بعض المدارس الريفية ، فأحب التلاميذ ، وحز فى نفسه ألا يكون لديهم سوى القليل جدا من الكتب التى يستطيعون الاستمتاع بها .

وكان «وليام هومز» المدرس المهذب النحيف من طراز قديم فى ملبسه . لقد كان يرتدى السراويل التى تصل إلى الركبة، والأحذية التى كانت تشد بالأبزيم منذ زمن طويل بعد أن بطل استخدام مثل هذه الملابس، كما كان يرتدى دائماً حول عنقه ياقة مرتفعة ولفافة أو رباط عنق .. وكان تلاميذه يحبونه كثيراً لأنه عاملهم باحترام عظيم كما لو كانوا رجالا ناشئين .

وعقد وليام العزم على أن يضع بعض كتب المطالعة لتلاميذه من سكان منطقة الغرب الأوسط .. وأراد أن تكون هذه الكتب مصدر إلهام وتسلية فى نفس الوقت ، فملأها بقصص الحيوانات والحياة المنزلية ، وحشاها ببعض أبيات الشعر عن فصول السنة والكلاب والقطط والأيام السعيدة .. وكان التلاميـــــذ الصغار فى حاجة أيضا إلى بعض الحكايات عن الأبطال والأفراد الذين كانت حياتهم تمتاز بالعظمة والشجاعة ، فأخذ ينكب على العمل حتى ساعة متأخرة من الليل ليختار — أو ليكرر فى بعض الحالات — القصص عن الكثيرين من العظام الذين صنعوا التاريخ .

ونشرت كتب المطالعة التى وضعها ماكجفى للصغار فى الفترة التى بين عامى ١٨٣٦ ، ١٨٥٧ فى ستة مجلدات ، وكانت تشتمل على مواد مختارة من مصادر

مختلفة لـكتاب مشهورين ، وقصص بسيطة عديدة ألفها ما كجفى نفسه عن الأمور التى اعتقد أنها تهم تلاميذ الغرب الأوسط .

ولما كان تلاميذ الحدود لم يشاهدوا أية كتب تضاهى كتب ما كجفى، فقد اعتزوا بها وأخذوا يقرأونها مراراً وتكراراً ، ويحفظون غيبا الكثير من محتوياتها ، حتى أنه ليقال بأن الأثر الذى تركه ما كجفى فى الثقافة الأمريكية لا يمكن لأحد أن يعرف حدوده .. لقد كان لسلسلة كتب ما كجفى للمطالعة الفضل الكبير فى تشجيع أعداد لا تحصى من الأمريكيين على تعلم القراءة والحصول على مستويات راقية من الأخلاق الحميدة .

لقد تعلم الأطفال الذين نشأوا على مطالعة كتب ما كجفى كيف يصبحون مواطنين صالحين ، مجدين ، مقتصدين ، نزيهين ، ومتصدقين . . لقد تعلموا الكثير مما يتعلق بالرأفة نحو الآخرين من الناس والحيوانات . . ومع ذلك فإن هذا المدرس الطيب لم يقصد أن يفكر التلاميذ فى القصص والأشعار الموجودة فى كتبه كعظات فحسب ، بل كان يرمى إلى أن يجعلهم يستمتعون حين تعلم المطالعة .

وهكذا ، فقد حلى ما كجفى كتبه هذه بالصور أيضاً .. بصور الأطفال وهم يلعبون مع حيواناتهم المدللة ، ولعبهم . لقد تضمنت كتبه الفتيات الصغيرات وهن يمسكن بدميهن ويتظاهرن بأنهن يقمن بتعليمها القراءة . . كما تضمنت صور الأولاد والكلاب وهم يمرحون عبر الحقول والمروج المشمسة .

لقد تضمنت كتبه هذه ما يقرب من مائتى صورة لـكلاب مختلفة ، كما

تضمنت الكثير من صور الحيوانات والطيور الأليفة الأخرى كالأفراس الصغيرة ، والإبوام ، والسناجب ، والقطط ، والماعز ، والفيران . ولكن الكلب كان هو الحيوان المفضل،فجاءت كتبه مشتملة على عدد من الحكايات عن الكلاب الأمينة التي أنقذت أصحابها من الغرق ،أو لفتت انتباههم إلى وشك وقوع خطر ما ، كما جاءت متضمنة عددا من الأشعار عن كلب أمين يدعى « فيدو » أصبح اسمه يطلق على كثير من الكلاب فيما بعد بالرغم من عدد لا بأس به من الكلاب كانت تحمل أسماء أخرى مثل و « آنشر » و « سبورت » و « روفر » .

وتضمنت أيضا سلسلة كتب ما كجفى مقتطفات جميلة من الكتاب المقدس، ومن روايات شكسبير ، كما تضمنت بعض الخطب الشهيرة فى التاريخ الأمريكى . . واشتملت على الكلمة التى ألقاها باتريك هنرى بمناسبة استقلال المستعمرات ، وصار الطلبة يرددونها فى برامج المدرسة . . لقد أخذوا يرددون تلك الكلمة الخالدة التي تقول : « هل الحياة هكذا عزيزة أو السلم هكذا حلو حتى يشتريان بالاغلال والعبودية ؟ اللهم يا قادر أتوسل إليك أن تضع حـــــدا لذلك ! إنى لا أعرف يا الله المسلك الذى قد يختاره الآخرون ، أما بالنسبة لى فإنى أتضرع إليك أن تمنحنى الحرية أو الموت » .

كذلك اشتملت سلسلة كتبه على الكلمة التى ألقاها دانيال وبستر بمناسبة ذكرى تحية العلم والاتحاد « فى كل مكان يرفرف بأحرف من نور دائم، ويتوهج فى أرجائه الفسيحة كلما خفق فوق البحار والأرض، وفى كل جهة تحت السماء بأسرها ، ذلك الشعور العزيز على فؤاد كل أمريكى حقيق ألا وهو الحرية والاتحاد الذى لا ينفصل ، الدائم الآن وعلى الدوام » .

وذات مرة لم يسمع أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى سوى أن يهتف بصوت مرتفع قائلا : « ماكجفى ! يا الله، هل هو إنسان ؟ لقد كنت أعتقد بأنه كتاب » .

لقد عاش وليام حياة ناجحة بالرغم من أن السنوات الأولى لشبابه كانت تمتاز بالنضال والفقر .. واختطفت يد المنية ولديه ، فحزن حزناً شديداً عليهما ، ولكن ابنتيه مارى وهنريتا كانتا له خير سلوان .. وكانت مارى فتاة غريبة الأطوار .. أما هنريتا فقد كانت سيدة صغيرة بكل معنى الكلمة، وتزوج للمرة الثانية بعد مرور بضع سنوات على وفاة زوجته الأولى ، فعاش حياة سعيدة وظل طوال حياته يقوم بالمهمة التى أحبها أكثر ما يكون ، وهى تدريس الطلبة . لقد كان أستاذاً عظيماً ذا مستقبل زاهر ... وكان مديراً لجامعات شتى ، كما قام بالشىء الكثير فى المساعدة على تنظيم جهاز المدارس العام لولاية أوهايو .

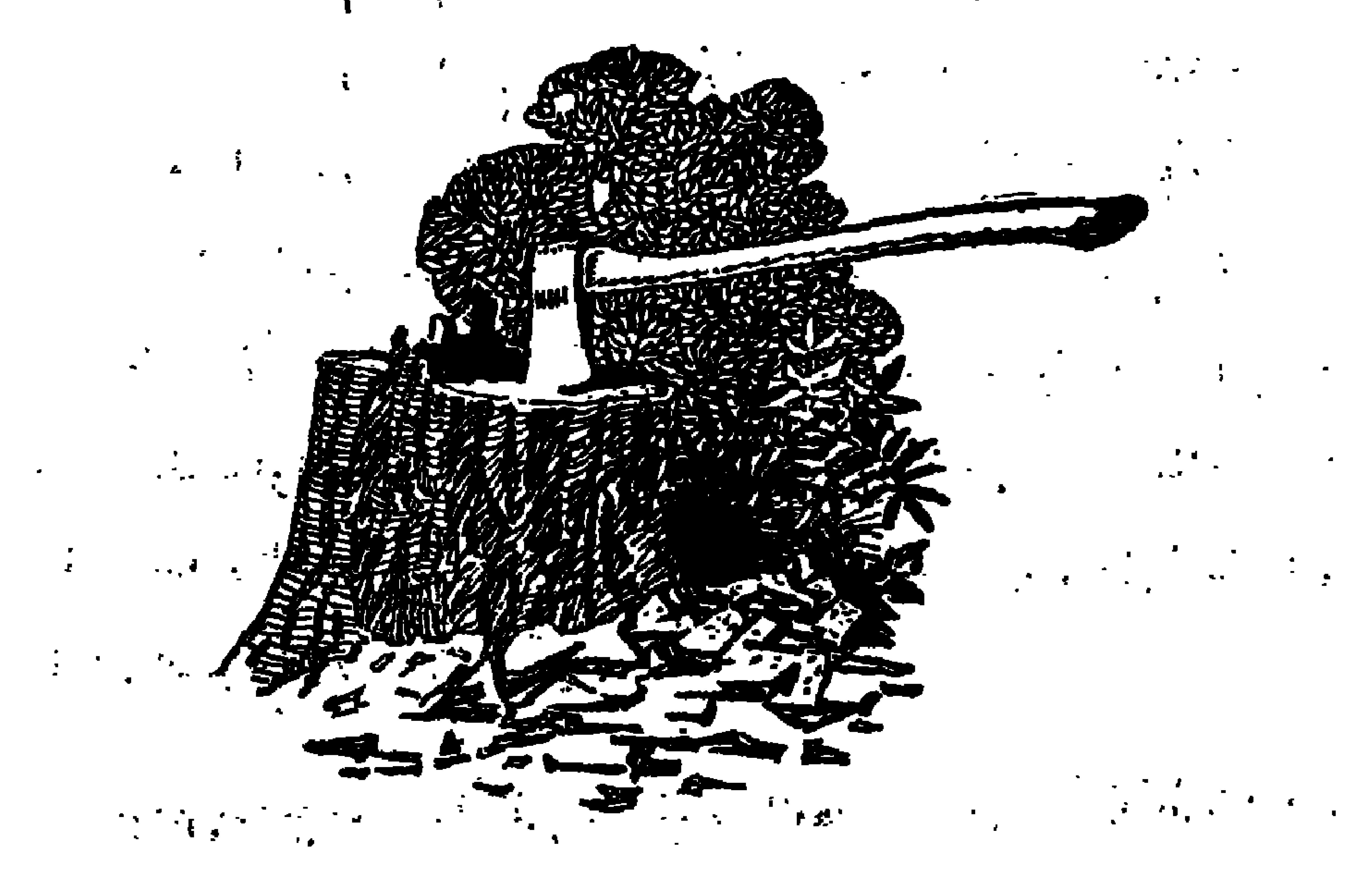
وتوفى وليام هومز ماكجفى فى اليوم الرابع من شهر مايو عام ١٨٧٣ عن عمر بلغ الثالثة والسبعين ، تاركاً ابنتيه لتعيشا بعده فى هذه الحياة .. وبينما كان فى لحظات نزاعه الرهيبة صرخ قائلا: « آه ، حبذا لو أستطيع أن أتكلم مرة أخرى مع أولادى الأعزاء ! » . ولعله لم يكن يقصد بعبارته هذه أولاده هو الذين قد ماتوا قبله بسنوات عديدة بينما كانوا فى طفولتهم .. إذ مما لا شك فيه أنه كان يقصد بكلمة « أولادى » طلبته فى جامعة فرجينيا ، حيث عمل أستاذاً فيها طوال السنوات الأخيرة من حياته .

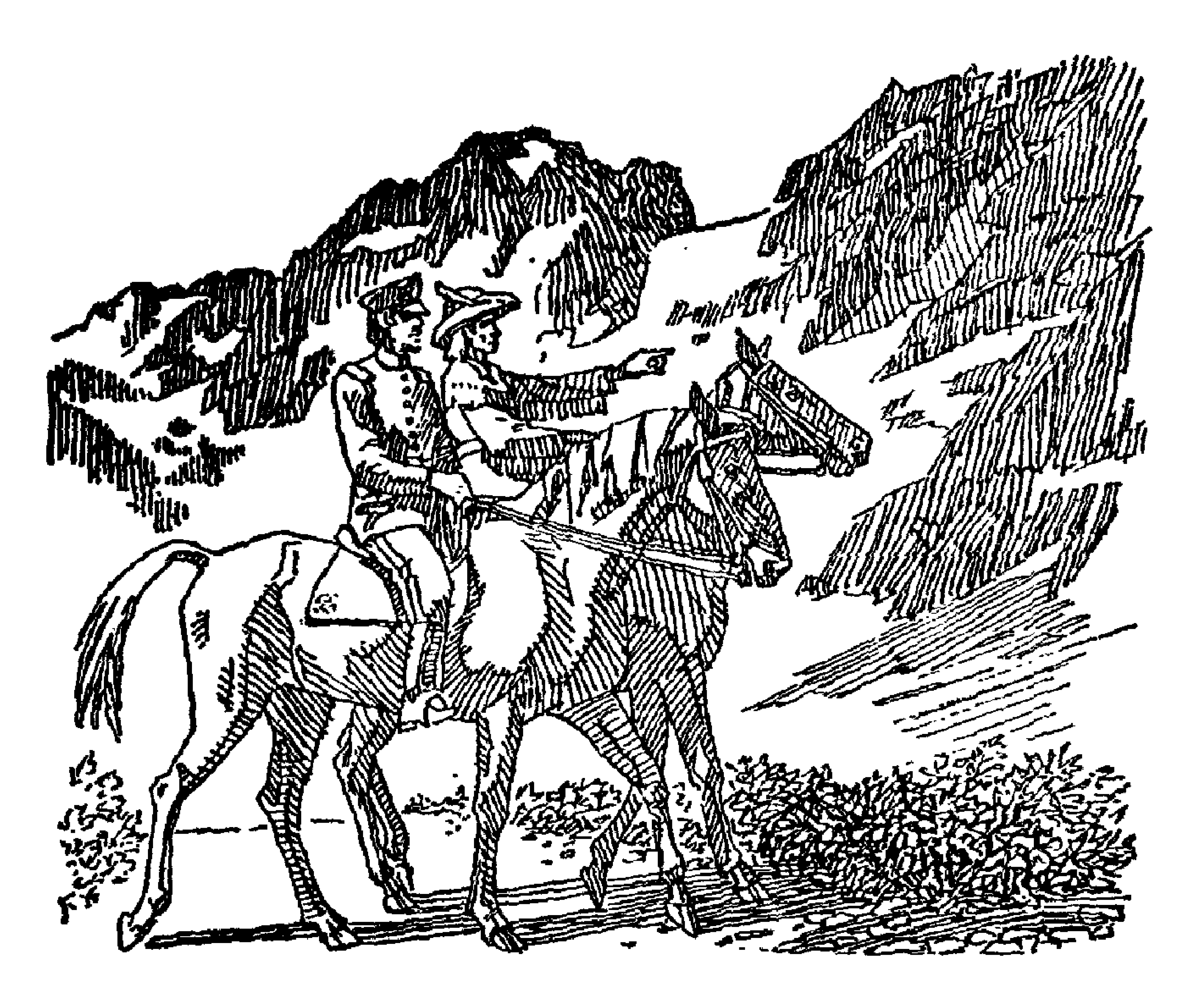
ودفن وليام هومز ماكجفى فى مقبرة الجامعة ، بيد أن نصباً تذكاريا شيد له

فى مسقط رأسه بولاية بنسلفانيا بعد مرور سنوات عديدة، وكان ذلك فى عام ١٩٣١ وهذا النصب يدعو المرء إلى الاسترجاع على نفسه ، إذ أنه لا يعدو أن يكون أكثر من عمود عليه تمثال نصفى للأستاذ الكريم وهو يبتسم لجماعة صغيرة من الأولاد وهم ينظرون إلى أحد كتب المطالعة التى وضعها .

وحينما توفى وليام أحس الكثيرون بأنهم فقدوا صديقاً عزيزاً عليهم ، شأنهم فى ذلك شأن تلاميذه القدامى .. وكان عدد الغرباء الذين لم يروه بتاتاً ، ولكنهم تعلموا القراءة من سلسلة كتب ماكجفى ، لا يحصى ، وفى ذلك كتب أحد الرجال مثنياً عليها يقول :

« لقد توافر لدى عن طريق مطالعتى لسلسلة كتب ماكجفى القليل من أسس الأدب الجيد .. فحينما بدأت أقرأ المقتطفات المأثورة من الأدب الانجليزى شعرت كمن يلتقى بعد مرور سنوات ، بشخص فاتن كان قد حظى ذات مرة بمقابلته فى رحلة بالقطار .. لقد أصبحت أستطيع أن أقول وأنا أفتح كتاب شكسبير أو مليتون أو بايرون : لماذا لا تتذكرون اجتماعنا معاً فى المزرعة فى ذلك الكتاب القديم ذى الغلاف الممزق ؟ .. إنكم لستم غرباء عنى) .





كان جون تشارلز فريمونت رسام خرائط مولعاً بالغرب ، فعينته حكومة الولايات المتحدة لقيادة ثلاث حملات استكشافية إلى الساحل الغربي ، حيث حصل على قدر كبير من المعلومات المفيدة ، وصادف الكثير من المخاطر . وفى عام ١٨٤٥ نشر كتاباً بعنوان : « تقرير عن الحملات الاستكشافية إلى جبال الروكى فى عام ١٨٤٢ وإلى أوريجون وكاليفورنيا الشمالية فى عامى ١٨٤٣ و ١٨٤٤ » .. وكان قائد هذه الحملات كيت كارسون ، فجعل الكتاب منه رجلا مشهوراً .

وتحدث فريمونت وكتب بحماس كبير عن الغرب فاستطاع أن يبعث الحمية فى قلوب الآخرين ، وجعلهم متشوقين للهجرة إليه .. لقد كان رجلا لامعاً متبرما ، فكون الأصدقاء والأعداء على السواء .. وكانت ثروته تأخذ فى الصعود تارة وفى الهبوط تارة أخرى ، ولكن لقباً مفضلا ظل يلازمه طوال حياته ، ألا وهو « مكتشف الممر » .

الفصل الخامس عشر

جون تشارلز فريمونت

مكتشف الممر

(١٨١٣ — ١٨٩٠)

ولد جون «تشارلز فريمونت» فى عام ١٨١٣ فى مدينة سافانا بولاية جورجيا وكان والده مهاجراً فرنسياً يعمل مدرساً . أما والدته فكانت تنتمى إلى أسرة عريقة من فرجينيا . . وتوفى والده بينما كان الغلام جون فى الخامسة من عمره ، ونزحت الأسرة إلى مدينة تشارلستون بولاية كاليفورنيا الجنوبية . وأتيحت الفرصة لجون الوسيم المجتهد ليحصل على تعليم جيد ، بيد أنه لم يمض زمن طويل حتى أصبح يضيق ذرعاً بالمدرسة . . ولما انضم إلى الجامعة آثر القيام بالأعمال الضارة والتغيب عن الفصول على الدراسة الجدية ، ولم يهتم سوى بالرياضيات ، فطرد من جامعة تشارلستون بسبب تغيبه الكثير ، ولكنها منحته درجة علمية فيما بعد .

وساعده أحد أصدقاء الأسرة ، ويدعى جويل بوانست ، الذى أصبح وزيراً للحربية فيما بعد ، فى الحصول على وظيفة . . فكان عليه أن يقوم بتدريس الرياضيات للطلبة الحربيين على متن السفينة الحربية الصغيرة «ناتشقس» ، وذلك لأنه لم تكن توجد وقتئذ فى الولايات المتحدة الأمريكية مدرسة حربية ، وكان الطلبة يتلقون دروسهم على ظهر السفن .

ولما مل فريمونت من وظيفته هذه ساعده صديقه الكريم فى الحصول على وظيفة فى السلاح الأمريكى للمساحة الطوبوغرافية الذى أصبح يعرف فيما بعد بسلاح المهندسين للجيش الأمريكى ، وأصبح جون مساعداً لجوزيف نيكولاس نيكوليت فى حملة استكشافية لأعالى نهر الميسورى . . وكان قد أصبح ملازما ، فقام بمساعدته على وضع خريطة للمنطقة الواقعة بين أعالى نهر المسيسبى ونهر الميسورى . . وكانت هذه الحملة أول رحلة لجون شاهد خلالها الغرب الأقصى حيث فاز بشهرة عظيمة .

وكان جون الشاب الوسيم النحيف يتسم بطلعة مهيبة وبالجرأة وهو فى زيه العسكرى . . فبالرغم من أنه لم يكن ممشوق القامة ، ولا يزيد طوله على الخمس أقدام إلا أن الفتيات كن يتابعن خطواته بإعجاب ، فتزوج فى عام ١٨٤١ من ابنة فى سن السابعة عشرة لأحد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى عن ولاية ميسورى يدعى توماس هارت بنتون ، ولم يكن بنتون راضيا عن زواجها فى بادىء الأمر ، ولكنه تصالح معهما بعد ذلك وساعد زوج ابنته على تحقيق مستقبل زاهر .

وفى عام ١٨٤٢ توجه فريمونت على رأس حملة إلى جبال الروكى ليحصل على معلومات عن ممر أوريجون ، بعد أن كلفته بذلك حكومة الولايات المتحدة التى كانت مسئولة عن سلامة المئات من المستوطنين الذين كانوا يتوجهون إلى الغرب .

وكان القائد الرسمى للحملة ، رجل الحدود القدير « كيف كارسون » الذى سافر على دروب الغرب مدة عشرين عاما تقريبا ، وأصبح كارسون

وفريمونت صديقين حميمين ، وقاما برحلتين أخريين معا ، ولكن طباعهما كانت تختلف .... لقد كان فريمونت حاد الطبع ، سريع الاندفاع ، متهوراً ، أما كارسون فقد كان هادئا ، رزيناً ، مفكراً . وكانا كلهما عنيدين ومن ثم فإنهما عندما كانا يدخلان فى نقاش كانت المسألة ما إذا كان يمكن لأحدهما أن يجعل الآخر يسلم بوجهة نظره .

ولكن تفاهما كان يتم بينهما فى النهاية وفقا لمعظم شروط كارسون ، فينزل فريمونت عن مستوى عناده وخبرته .

ولما تم لفريمونت الحصول للحكومة على المعلومات اللازمة عن درب أوريجون ، قام بوضع خرائط عن المنطقة . وفى عام ١٨٤٣ اكتشف بلاد نيفادا بعد أن اجتاز سلسلة جبال سيارا نيفادا ، فأثارت خرائطه الدقيقة وتقاريره الحماسية اهتماما عظيما لدى سكان الغرب الأقصى .

ولم تكن حملات فريمونت خالية من المخاطر ، لاسيما أن كل حملة كانت تتجه وتتخذ إلى الغرب لم تكن فى مأمن لفريمونت أن يصادف المزيد من الشدائد ، لولا حكمة كيت كارسون وحسن تصرفه .

وكان معظم الرجال ينظرون نظرة محبة إلى هذين الزعيمين النحيفين المتعبين المليئين بالعزم والتصميم . . لقد كانوا يحترمون كيت كارسون ويثقون به على الدوام ، لأنه كان يهتم اهتماما ثابتا برفاهيتهم .. أما فيما يتعلق بفريمونت الحاد الطبع ، فقد كانوا يكنون له إعجابا شديداً لجرأته . لقد كانت مشاهدته وهو يعمل ويرسم خرائطه الرتيبة الدقيقة عن الأصقاع الغربية تدعو

إلى الإعجاب بحق .. لقد كان الرجال يجتمعون حوله مندهشين ليروه وهو يرسم البحيرات والأنهار والجبال .. لقد ساروا على هذه الدروب وعرفوها لسنوات ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يضع مثل هذه الخرائط عنها .. لقد كانوا يتيهون عجباً بها ويقولون ما أعظم هذين المكتشفين ... ولم يروا أى مانع فى أن يطلقوا على فريمونت لقباً ينطبق عليهما بصورة أعظم . فماذا لو أن مكتشف الطريق هذا لم يعثر على أى درب بتاتاً ! لقد استطاع أن يضع خرائط لدروبهم بمهارة فائقة حتى أن أى إنسان كان يستطيع أن يسلكها .. وقد يأتى يوم لا تحتاج فيه إلى مرشدين ، إذ سيكون فى استطاعة أى رجل بيده إحدى خرائط فريمونت أن يسير فى أى درب إلى الغرب بثقة كبيرة .

وكان فريمونت رقيق القلب فى أهدأ لحظاته . فقال بعض الرجال عنه مازحين : إنه لا يأبه للسفر أميالا بعيداً عن طريقه فى سبيل تجنب المرور على حشرة أو زهرة . وذات مرة كان الرجال يعانون من ألم الجوع ، فأذن لهم متردداً بأن يذبحوا حصاناً صغيراً سميناً كان قد اشتراه من إحدى قبائل الهنود . وبالرغم من أنه هو أيضاً كان يعانى من ألم الجوع إلا أنه لم يستطع أن يأكل اللحم الذى التهمه الآخرون بشراهة . لقد أحب الحصان لدرجة عظيمة حتى أن الرجال توهموا بأنه اعتبر عملهم هذا قتلا متعمداً .

وفى مناسبة أخرى ، ضربت الجماعة معسكراً لها بالقرب من ينبوع ، وتمتعت بعشاء طيب من لحم ظبى . . وبينما كانوا يجلسون حول النار التى أقاموها فى المعسكر ، اندفع شخص نحيف نحو الضوء .. ولندع فريمونت يقص علينا ما حدث :

فى وهج النار المتقدة وقفت فجأة عجوز فى الثمانين من عمرها تقريبا ، وكانت تضع وجهها فى يديها النحيفتين المعوجتين ، وكان شعرها الأشيب مسترسلا على محياها وكتفيها .. لقد ظنت أن المعسكر يخص عشيرتها ، فبدأت فى الحال بالتحدث وتحريك يديها .. وسرعان ما أصاب الشلل فمها الفاغر من الذعر حينما شاهدت وجوه الرجال البيض .. ثم استدارت لتهرب ، ولكن الرجال كانوا قد تجمعوا حولها وأعادوها إلى مكانها ، وإن هى إلا لحظات ، حتى كان الجوع والبرد قد بدد فزعها ، فأفهمتنا أن أهلها تركوها عند الينبوع لتموت لأنها كانت امرأة كبيرة جدا فى السن ، ولم تعد تصلح لأى شىء . لقد قالت لنا إنه ليس لديها شىء تأكله ، وإنها تكاد تموت من الجوع ، فأعطيناها فى الحال ما يقرب من ربع الظبى معتقدين أنها ستشويه على نارنا ، ولكنها مالبثت أن أخذته بيدها وانطلقت كالرمح فى الظلام .. ولحق بها بعض الرجال حاملا معه القليل من الجمر ، وشرع ينادى عليها ، ولكنها لم تستجب لندائه .

* * *

ولأن مكتشف الطريق كان عنيدا ومتهورا ، فإنه لم يجد الحياة سهلة على الإطلاق ، وغالباً ما أورطته تصرفاته فى الكثير من المتاعب ، بل جعلته يرفض إطاعة الجنرال ستيفن واطس كيرنى ، فبينما كان على رأس حملة إلى الغرب فى عام ١٨٤٥ ، وجد فريمونت المتاعب تتفاقم بين الولايات المتحدة بسبب إقليم كاليفورنيا .. وبتأثير منه ، رفع المستوطنون الأمريكيون فى كاليفورنيا علم الثورة ضد السلطات المكسيكية ، وأنشأوا فى سونوما عام ١٨٤٦ جمهورية جعلوا لها راية حافتها حمراء وعليها صورة دب أشمط يتطلع إلى نجم بتحد .. وقام فريمونت بمساعدة الكومودور روبرت ستوكتون الذى

قدم إلى كاليفورنيا واستولى على لوس أنجلوس ، فعينه الكومودور حاكما لحكومة كاليفورنيا المدنية الحديثة التنظيم .

وفى نفس الوقت كان البريجادير جنرال ستيفن واطس كيرنى قد قام ، ومعه ألف وستمائة جندى ، تحت إمرته ، بالزحف برا إلى كاليفورنيا ، واصطدم مع الكومودور ستوكتون بشأن مَنْ مِنَ الاثنين سيكون القائد الأعلى .. ووقف فريمونت بجانب ستوكتون ، وحينما رفض الانصياع إلى أوامر كيرنى، اعتقل وحوكم عسكريا ، وأدين ولكن الرئيس بولك قام بإلغاء الحكم .. وشعر فريمونت ، مكتشف الدروب ، بالكبرياء وبأن كرامته قد جرحت فاستقال من خدمة الحكومة الأمريكية :

وبعد ذلك بقليل ، حالف فريمونت الحظ بعض الوقت حينما اشترى فى كاليفورنيا عزبة وجد فيما بعد أنها تحتوى على الذهب ، وكان عام ١٨٤٩ عاما عظيما فى تاريخ كاليفورنيا .. فقد كان يوجد رجل يدعى جون سوتر يملك فى وادى ساكريمونتو بشمالى مدينة سان فرانسيسكو ، ورشة نجارة يمر بالقرب منها جدول ماء عثر فيه على الذهب . وسرعان ماأخذت الهجرة التى أطلق عليها «جولدوش» تتدفق إلى كاليفورنيا ، وشرع الناس يسافرون إليها بحشود غفيرة .. فقد توجه إليها بعضهم برا فى عربات مغطاة أو مشاة معهم خيول تحمل أمتعتهم ومعداتهم اللازمة لاستخراج الذهب ، وبعضهم أبحروا إليها فى سفن مارين حول أمريكا الجنوبية ، ثم شمـــالا إلى سان فرانسيسكو حيث حطوا رحالهم واتجهوا إلى حقول الذهب ، وآخرون أبحروا فى سفن إلى أمريكا الوسطى ، وعبروا برزخ بناما ، ومن هناك واصلوا

رحلتهم إلى سان فرانسيسكو . ووجد الكثيرون منهم الذهب ، ولكنهم أضاعوه على القامرة مع المقامرين أو الأوغاد ، وآخرون لم يجدوا ذهباً ولكنهم أحبوا كاليفورنيا واستوطنوا فيها .. وكان فريمونت من بين الأشخاص المحظوظين ، فأصبح بعد حين من أصحاب الملايين .

وكان فريمونت من بين الأعضاء الأول لمجلس الشيوخ الأمريكى عن ولاية كاليفورنيا .. لقد كان ينتمى إلى حزب « البلاد الحرة » الذى أطلق عليه هذا الاسم لأنه عارض امتداد العبودية إلى الولايات المتحدة ، والذى اندمج فيما بعد فى الحزب الجمهورى . وفى عام ١٨٥٦ كان فريمونت أول المرشحين عن الحزب الجمهورى لرياسة الولايات المتحدة ، ولكنه لم ينجح فى الانتخابات وفاز بالمنصب منافسه جيمس بوكانان .

وفى أثناء الحرب الأهلية ، وجد مكتشف الدروب نفسه غارقا فى المتاعب مرة أخرى .. فقد عين قائدا للمقاطعة الغربية التى تتكون من إقليم إلينوى وجميع البلاد الواقعة بين نهر المسيسبى وجبال الروكى ، واتخذ له مقراً بمدينة سانت لويس ، وأصدر أمراً — باعتباره مأمورا يمثل الاتحاد — بمصادرة ممتلكات الثوار فى ميسورى ، وتشاجر فريمونت مع فرانسيس بريستون بلير ، أحد أفراد أسرة ذات نفوذ كبير من ولاية ميسورى ، وأدت المشاجرة إلى سجن بلير ، ثم إلى طرد فريمونت نفسه من منصبه المعظم ، وعين فريمونت بعد ذلك فى قيادة جديدة ، ولكنه حينما وجد أنه سيعمل تحت إمرة رجل كان مرءوسا له ذات مرة ، استقال من منصبه غير مرفوع الرأس .

وفى عام ١٨٧٠ أضاع فريمونت ثروته بسبب محاولات غير حكيمة لإنشاء خط سكة حديدية يمتد حتى المحيط الهادى . . ياله من رجل سيء الحظ !

وظل الحظ يحالفه .. إذ أن زوجته المخلصة ظلت وفية له فأخذت تساعده ـ عندما أصبح فجأة لا يملك فلسا واحداً ـ فى كتابة مذكرات عن خبراته فى الغرب الأقصى ، كما أخذت تساعده على إعالة الأسرة عن طريق تأليفها الكتب .

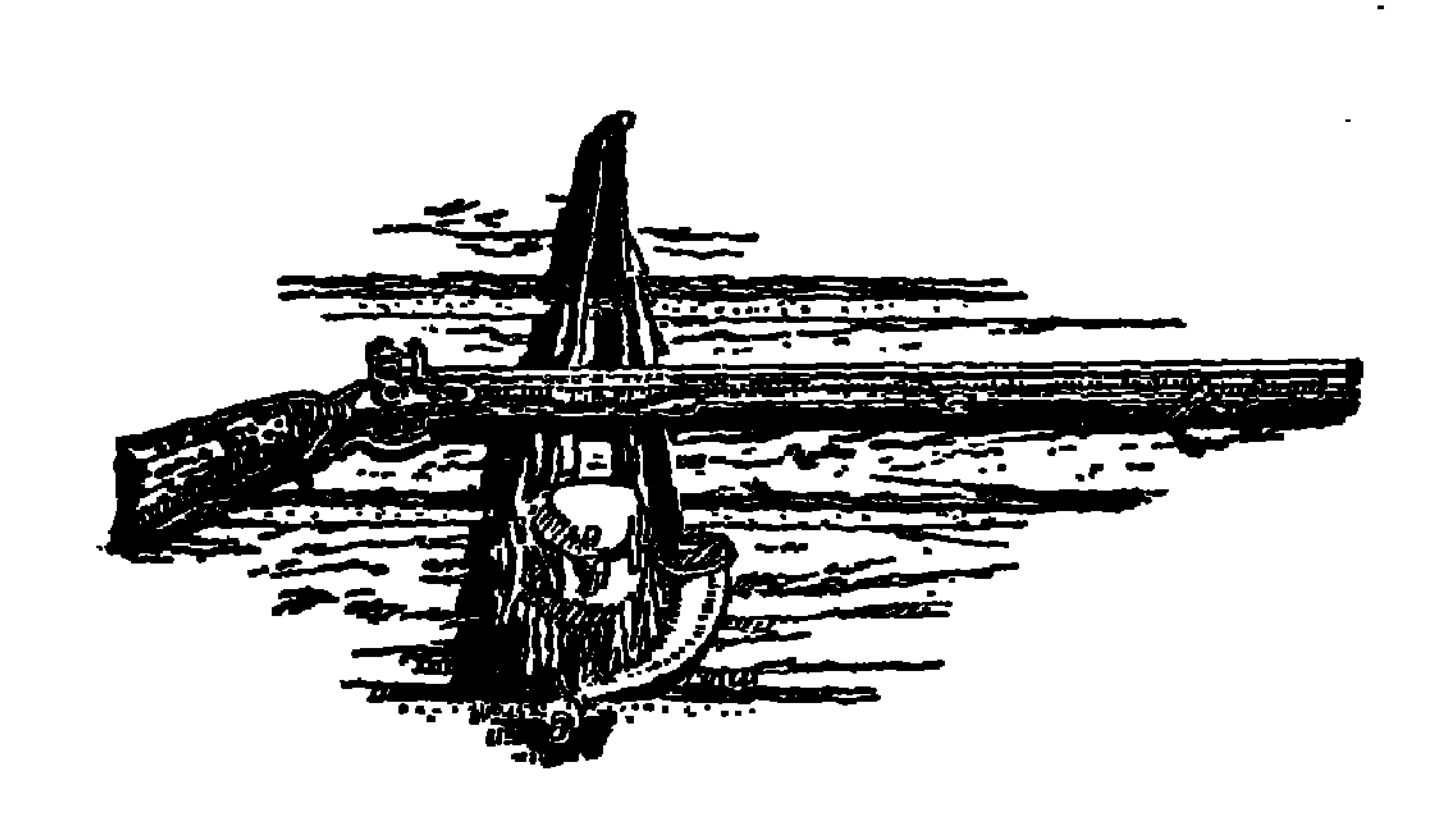
وأبرزت كتبه كيت كارسون كبطل عن جدارة حتى أن كيت نفسه ـ وكان رجلا متواضعاً — قال ذات مرة إن فريمونت قد عمل من أجله أكثر من أى رجل آخر .

وفى عام ١٨٧٨ عين فريمونت حاكما عاما لإقليم أريزونا ، وظل يقوم بمهام منصبه مدة أربع سنوات . . وفى عام ١٨٩٠ أخذ يتقاضى من الحكومة « معاشا » اعترافا له بالخدمات الجليلة التى أداها للولايات المتحدة الأمريكية عن طريق وضع خرائطه ورسوماته لمعالم البلاد ، ولكنه لم يعش طويلا ليتمتع به ، لأنه توفى فى ١٣ يوليو من ذلك العام .

وبانتهاء مكتشف الطرق انتهت مصائبه .. ولم تفكر زوجته جيسى فريمونت — التى تركت لتعانى ظروفا قاسية — فى شيء سوى فقدها له . . ودفن جون تشارلز فريمونت وهو يرتدى بدلة سوداء ، وليس بدلة عسكرية ، فى تابوت بسيط من خشب الصنوبر وفى يده صورة مصغرة لزوجته كان يحملها معه فى حملاته إلى الغرب . . وعاشت جيسى اثنى عشر عاماً بعد وفاة زوجها .

وقام الأصدقاء والمعجبون بمساعدتها ماليا ، ومنحتها الحكومة الأمريكية معاشا، وحينما توفيت دفنت بجانب زوجها فى بيرمونت على ضفاف نهر هدسون بالقرب من تاريتاون . وفى عام ١٩٠٦ أنشأت ولاية نيويورك فوق قبر جون فريمونت نصبا عظيما يتمثل فى « شاهدة ضريح » من حجر الجرانيت مزخرفة براية وسيف من البرونز وبوسام برونزى عليه صورة مكتشف الدروب ٠

أما الحجر فقد كتبت عليه أسماله وألقابه التى ظفر بها ٠





هذا الرائد ، بريجهام يونج ، كان زعيماً لطائفة جديدة من الطوائف الدينية الأمريكية هي طائفة المورمون ، فقام في عام ١٨٤٧ بقيادة قافلة كبيرة عبر طريق أوريجون إلى وادي « سولت ليك » . وكان شعبه قد عانى الكثير من الاضطهاد ، وفي حاجة إلى منطقة يأوون إليها ، ولما كان بريجهام قد اطلع على تقرير فريمونت الذي وصف فيه منطقة وادي « سولت ليك » المجدبة فقد قال في قرارة نفسه إن هذه المنطقة صحراوية لا يرغبها شعب آخر ، ولعل طائفة المورمون تستطيع الاستيلاء عليها لتستوطن فيها بسلام . وما إن مرت سنوات قليلة حتى أصبحت هذه الجماعة التي أنشأها بريجهام يونج من أبرز الطوائف في العالم بأسره .

الفصل السادس عشر

بريجهام يونج

الذى جعل من الصحراء جنة يانعة

(١٨٧١ — ١٨٧٧)

نشأ «بريجهام يونج» ذو العينين الزرقاوين،الذى يفيض حيوية ، فى مزرعة بالقرب من مدينة وينتجهام بولاية فيرمونت . . وكان أبوه جون يونج قد ساهم تحت قيادة الجنرال واشنطون — فى الحرب الثورية ضد الاستعمار ، فقام هو وزوجته أبيجيل بتربية أسرتها الكبيرة تربية تتسم بالشدة ، وتوجيه عناية خاصة بالصدق والاستقامة ، وفى ذلك كان يقول لأولاده بعد مرور سنوات : « لقد تعلمت ألا آخذ لنفسى دبوساً أجده فى ساحة منزل دارى ، بل أقوم بحمله إلى داخل المنزل وأعيده إلى أحد أفراد الأسرة » .

وكانت أسرة يونج تنتمى إلى طائفة النظاميين « طائفـــة الميثوبست » ولكن بريجهام — وكان فتى ذكياً غريب الأطوار — اهتم اهتماما كبيراً بالطوائف الدينية الأخرى ، ولم يكن لديه الكثير من الوقت لينفقه على المطالعة لأنه كان عليه أن يعمل بجد فى مساعدة والده فى شئون المزرعة ، إذ كان جميع أطفال الأسرة مشغولين . . وكان الصبية منهم يعملون فى الأعمال الزراعية ، أما البنات فكن يقمن بمساعدة والدتهن فى الشئون المنزلية ، لقد كانت أسرة

يونج مولعة بالزهور ، فأخذ الأطفال يساعدون فى غرس نباتات الأزهار والانتباه إلى رعايتها .

وحينما كبر بريجهام أصبح نجارا .. وكان شابا وسيما ، ممشوق القد ، فتزوج وهو فى الثالثة والعشرين من عمره ، وما إن مضت على زواجه خمس سنوات حتى قام هو وزوجته «مريم» بالانتقال مع أسرتهما من ولاية فيرمونت إلى ولاية نيويورك .

وكان بريجهام لا يزال يبدى اهتماما كبيرا بالديانات .. وأخذ يسمع عن ديانة جديدة يبشر بها رجل يدعى جوزيف سميث ، يعيش فى مقاطعة بالميرا التى تبعد مسافة أربعين ميلا عن نيويورك ، ويقول عن نفسه بأنه نبى .. وأنه وجد كتابا مقدسا مطبوعا على صفحات ذهبية وأنه قام بترجمة هـــذا الـكتاب وطبع ترجمته فى كتاب بعنوان « كتاب المورمون » وأن كلمة مورمون تمثل اسم النبى الذى عزى إليه الـكتاب الأصلى .

وأصبح المرتدون إلى الدين الجديد يشتهرون بتسميتهم بطائفة المورمون مع أنهم كانوا يحبذون أن يطلق عليهم اسم « قديسو اليوم الآخر » .

وتمــكن بريجهام يونج من الحصول على نسخة من هذا الـكتاب وقرأه ثم بحثه مع الآخرين .. وكان للـكتاب وقع عظيم فى نفسه ، فانضم إلى طائفة قديسى « اليوم الآخر » وأصبح جوزيف سميث أحد أصدقائه .. وذات مرة قال سميث : « سيأتى زمن يكون فيـــه الأخ بريجهام يونج رئيسا لهذه الـكنيسة » .

وكان سميث وأتباعه يدينون بمعتقدات تبدو للآخرين غريبة ، لقد كانوا يعتقدون باقتصاد اشتراكى . . لقد كانوا يأخذون بتوزيع ما يملكون من بضائع بين جميع أفراد طائفتهم ، كما كانوا يعزلون أنفسهم عن غيرهم من الناس . . وهكذا فإن القلق بشأنهم ، وعدم فهم حقيقتهم ، جعل هؤلاء الآخرين معادين لهم ، وكان أفراد طائفة المورمون قوماً مجدين ، فصادفوا نجاحاً فى أعمالهم مما جعل جيرانهم ينظرون إليهم نظرة حسد وخوف ، ويودون طردهم من مجتمعاتهم ، وشرع هؤلاء الآخرون يضطهدونهم ، فنزحوا من ولاية نيويورك إلى ولاية أوهايو ، ثم إلى ولاية ميسورى ، حيث استقروا فى مدينة انديندانس ، وسرعان ما استعد أهل ولاية ميسورى لغزو هؤلاء القادمين غير المرغوب فيهم ، واضطهادهم ليرحلوا من الولاية ، بل إن جماعة من الدهماء الساخطين قاموا بإشعال النيران فى منازلهم وقتل حيوانات مزارعهم ، وهددوهم بإلحاق الأذى بهم شخصيا إن لم يرحلوا عن الولاية ، كما أن زعيمهم جوزيف سميث زج به فى السجن .

ومنذ البداية أخذ بريجهام يونج يحث جماعته على مراعاة العلاقات الطيبة مع أهل ميسورى ، فظل من بين زعماء المورمون القلائل الذين لم يعتقلوا . . وكان جوزيف سميث معتقلا فى السجن ولا يستطيع عمل شىء ، فأخذ بريجهام يقود من بقى من طائفة المورمون من ولاية ميسورى إلى ولاية إلينوى حيث استوطنوا فى مكان أسموه «نوفوا» أى الجميل . وحينما خرج سميث من السجن جاء إلى « نوفو » ليغتاله جماعة من الدهماء المعادين ، وكان هذا فى عام ١٨٤٤ وهكذا أصبح بريجهام يونج زعيماً للشعب المورمونى .

ولم تكن الهجرة التى قادها بريجهام إلى منطقة وادى سولت ليك ، قد

اتخذت خبط عشواء ، بل على العكس من ذلك ، فقد درست الخرائط بعناية فائقة ، كما تم الاطلاع على الأعمال العظيمة التى حققها مكتشفون آخرون بالإضافة إلى فريمونت ، وفى هذا يقول بريجهام : « سنبدأ فى الرحيل فى فصل الربيع من عام ١٨٤٦ » ، ولكن حوادث الاضطهاد كانت قد بلغت أشدها حتى أنهم شرعوا فى الرحيل فى شهر فبراير ، ولم يأخذوا معهم سوى أهم ما يحتاجون إليه من الأمتعة التى راحوا يكدسونها بسرعة فائقة فى عربات مغطاة .

واجتازت القافلة نهر المسيسبي المتجمد ، ثم أخذت تتجه نحو الغرب ، وكان فرسان الكشافة فى المقدمة ليقوموا بأعمال الاستطلاع عن الهنود المعادين كما كان فى المقدمة الصيادون لكى يقوموا بتوفير لحم الجاموس ليأكله هؤلاء القوم ، وكان المورمونيون فى معظمهم قوماً ظرفاء غير معتادين على الخشونة فلاءموا أنفسهم ملاءمة جميلة على الرحلة القاسية . لقد ساروا وراء زعيمهم بريجهام يونج مسافة ألفى ميل من البرارى والأراضى الجبلية ، وسمعوا بأن الهنود أخذوا يثورون، ولكنهم لم يفزعوا لذلك .. لقد وجدوا أن من يقال بأنهم متوحشون أسهل عليهم فى مسايرتهم والعيش معهم من الرجال البيض ، وكان بين جماعة المورمون أناس كبار فى السن ، فحرص على رعايتهم والسهر على راحتهم رفاق أشد منهم . وكان من بين الممتلكات التى أخذتها معها الحملة مثل الأطعمة والذخائر ، بعض الآلات الموسيقية كالأبواق والقيثارات والطبول .

وكانت جماعة المورمون تشتهر بحبها للموسيقى ، ولذا كانت كنائسهم

تحتوى على فرق موسيقية تقود الجوقات والتراتيل الدينية أيام الآحاد ، وفى هذا كتب بعضهم فى (نوفو) يقول :

« حقاً إن بعض آلاتهم الموسيقية التى يعزفون عليها بأفواههم المليئة بالحيوية والنغمة الأصيلة ، يمكن سماعها فى الجو الساكن الصافى على بعد مسافة كبيرة ، ولعلك تستطيع وأنت تصطاد بعض الحيوانات فى « الجريت بلاث » الذى يعد من أفظع الأنهار كآبة ، أن تشعر بالرياح تجلب إليك أول بادرة خفيفة من نغمة مطربة .. وكلما ترهف السمع تشعر بنسمة ريح زوبعة من الرمال الناعمة الجافة فتتعرف عليها وتقول لنفسك .. لعلها نغمة آدمية حلوة من .. مندلسبون أو بارثولودى يقوم بعزف موسيقاه العظيمة بعيداً فى الأدغال المأهولة بالهنود .

وأخيرا .. وفى ٢٤ يوليو عام ١٨٤٧ وقف بريجهام يونج على قمة ربوة تطل على منطقة وادى سوليك وصاح قائلا : « هو ذا المكان .. ! هيا سوقوا القافلة إليه !

وكان بريجهام يهتم بكل صغيرة وكبيرة تتعلق بمعيشة رعيته .. لقد سهر على قيادتهم وإرشادهم ، وحراستهم ، وأخذت المستعمرة التى أنشئت فى سالت ليك سيتى والمنطقة التى أطلق عليها إقليم « ديزريت » ، تستشيره فى كل أمر يتعلق بشئونها ، و « ليزريت » كلمة تعنى « خلية النحل » فاتخذوا من خلية النحل شعاراً لهم ، وكان هذا الشعار مناسباً بحق لهؤلاء القوم المجدين من المورمون ، وحينما أصبح هذا الإقليم جزءا من الولايات المتحدة ، حاولت جماعة المورمون أن تجعله يحتفظ باسم « ديزريت » ، ولكن اسم « يوتا » ، « والكلمة جاءت من جماعة هنود يوتا الذين كانوا يسكنون تلك المنطقة » وقع الاختيار عليه بدلا منه .

وفي أثناء العامين الأولين لاستقرار هؤلاء القوم في وادي سولت ليك قدم إلى المنطقة أكثر من خمسة آلاف مستوطن من المورمون ، فانتشر الكشافة ليقوموا باختيار المواقع المناسبة لبناء منازل دائمة لهم ،وأنشأ بريجهام مشروعات الري التي جعلت من الصحراء منطقة يتيسر للمرء العيش فيها .. وفي هذا العمل وحده حقق بريجهام للمنطقة بأسرها خدمة عظيمة جداً ، لأن القنوات والترع التي أصبحت تخترق الصحراء جعلت من التيسر لقومه أن يزرعوا الغلال فيها .

وأراد بريجهام لجماعته من المورمون أن يظلوا دائما طائفة اقتصادية مستقلة، فشجع قيام المهن والصناعات على جميع أنواعها . لقد أوجد مصانع الطوب والنجارة والعربات ، كما أوجد المحاجر ، والمدابغ ، ومصانع الخزف ، والمعدات المنزلية ،ومصانع الملابس . . ولم تسمح جماعة المورمون للفاقة أن تتوافر بينهم ، لأنهم سهروا على رعاية مصلحة المحتاجين منهم .

ومن بين القصص العزيزة على قلب كل فرد من جماعة المورمون ، تلك القصة التي تتعلق بالسنة الأولى لوجودهم في الوادي . . لقد كان فصل الشتاء من ذلك العام يمتاز بقسوة بلغت حد البؤس . . وكان الطعام على درجة كبيرة من الندرة،حتى أن هؤلاء القوم لم يستطيعوا إلا بصعوبة بالغة أن يوفروا مايكفي من الحبوب اللازمة للدورة الزراعية المقبلة . . لقد كانوا يعانون من الجوع الكثير ، حتى أنه كان في استطاعتهم أن يلتهموا الحبوب المخصصة للدورة الزراعية كلها ، وحينما نبتت غلال فصل الربيع وأصبحت خضراء حدث شيء مفزع .. لقد ظهرت فجأة في السماء أسراب هائلة من الجراد،وأخذت تهبط لتلتهم المزروعات . . وحاول هؤلاء القوم الجائعون البائسون أن يطردوا الجراد ،

ولكنهم لم يستطيعوا ذلك ، لكثرة عدده .. وفجأة لجأ القوم إلى الصلاة ، فاستجاب الرب إلى دعواتهم وحدثت أعجوبة .. إذ سرعان ما قدمت أسراب عظيمة من طيور النورس لم يعرف أحد من أين أتت .. وأخذت تلتهم الجراد بطريقة منظمة، وتطير بعيداً لتتقايأه، ثم تعود لتلتهم المزيد منه حتى أبادت جميع الجراد ، ويوجد فى الوقت الحاضر فى ميدان تمبل بمدينة سولت ليك نصب جميل لطيور النورس يخلد هذه المعجزة .

وطلب من جماعة المورمون أن يساعدوا الولايات المتحدة فى الحرب مع المكسيك .. وسرعان مازحف خمسمائة شاب فى كتيبة المورمون وأبلوا بلاء حسناً .. وبعد أن وضعت هذه الحرب أوزارها فى عام ١٨٤٨ ، أصبحت منطقة «ليك سولت» تابعة للولايات المتحدة .. وفى عام ١٨٥٠ تم إنشاء إقليم يوتا ، وعين بريجهام يونج حاكما عاماً له، ومديراً لشئون الهنود ..

وفى عام ١٨٥٢ أعلن « بريجهام يونج » رسمياً مبدأ « تعدد الزوجات » القائم على الفكرة التى نادى بها «جوزيف سميث» قبل تسع سنوات.. ولكن حكومة الولايات المتحدة أعلنت أن تعدد الزوجات أمر غير مقبول ، ولم تقنعها أو تؤثر عليها المناقشة القائلة بأن إبراهيم ويعقوب وغيرهما من أبطال العهد القديم كان لهم أكثر من زوجة واحدة .. وهكذا كان الناس فى الولايات المتحدة ينظرون إلى جماعة المورمون نظرة تزداد خوفا وريبة أكثر من أى وقت مضى.

وكانت جماعة المورمون قد قامت منذ نشأتها بأعمال تبشيرية عظيمة بين الهنود وفى بلاد أجنبية ، فقدم عدد كبير من المهندسين إلى أمريكا . وفى شتاء عامى ١٨٥٦ — ١٨٥٧ سار رواد عربات اليد المشهورون من مدينة أيوا إلى مدينة

« سولت ليك» .. وكانوا جماعة من الانجليز يريدون الانضمام إلى طائفة المورمون ، ولم تكن لديهم وسائل نقل فوضعوا أمتعتهم فى عربات ، وأخذوا يدفعونها بأيديهم . ولعل هذه الرحلة لم تكن لتسند إليهم بمصاعب كثيرة لو أنهم قاموا بها فى وقت مبكر من العام ، ولكن الشتاء فى تلك السنة أخذ يعصف بشدة مبكراً ، فعانوا الكثير من الشدائد، ومات عدد كبير من هؤلاء الرواد الشجعان .

وفى عام ١٨٥٧ علم المورمونيون المستوطنون فى الوادى أن حملة عسكرية سترسل إلى يوتا تحت قيادة الجنرال أ . س جونستون بغرض إخماد ثورة مزعومة ، فكان للنبأ وقع أليم على قلوبهم .. هل سيضطهدون مرة أخرى ؟ وعقدوا العزم على ألا يتركوا بيوتهم مرة أخرى سليمة لأعدائهم كما فعلوا فى العهد السابق حينما كانوا فى الشرق ، بل يشعلون النار فيها وفى حدائقهم إذا ما كان لابد من طردهم منها ويهجرونها قاعاً صفصفاً .. وتحرك القوم جنوباً إلى مدينة « بروفو » فى جماعة واحدة تاركين وراءهم حراساً ليشعلوا النار فى منازلهم إذا ما حاول الجيش الاستيلاء عليها .

وجاء الجيش ولكنه لم يمكث طويلا ، إذ سرعان ما استدعى الجنود ليعودوا شرقا لإخماد ثورة تضطرم بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية ، ثورة تحولت إلى حرب أهلية عقب ذلك ببضع سنوات .

لقد أظهر بريجهام يونج أثناء « حرب يوتا » أو « غزو المورمون » كما كانوا يدعونها ، أنه يمتاز بمواهب عظيمة كزعيم لشعبه، لأن السياسة الحكيمة

التى اتبعها منعت حدوث فجوة حقيقية بين طوائف المورمون وشعب الولايات المتحدة الأمريكية .

وكان يمكن لبريجهام أن يكون صارما فى معاملته ، ولكن شعبه اهتم به اهتماما يفيض محبة ، فأحبه أولاده وأحفاده حبا عظيما مفعما بالإخلاص . لقد كانوا يعلمون أن للزعيم أخطاءه ، وأنه لم يكن ليعترف بها قط ، أو يحب أن يسمع الآخرين ينتقدون أخطاءه ، وذات مرة شرع يزجر ابنته بسبب تحدثها عن ضعف فى خلقها قائلا لها بقسوة :

« لاتفعلى ذلك .. فلو كنت فى حصن تردين عنه العـــدو ، فإنك لاتتسلقين إلى فجوة فى الحائط وتأخذين بالمناداة : ها هى ذى فتحة فاصعدوا ..! اصعدوا من هنا ! »

وتوفى بريجهام فى ٢٩ من أغسطس ١٨٧٧ عن عمر بلغ السابعة والسبعين ، وفى عام ١٨٩٠ نبذ المورمونيون مبدأ تعدد الزوجات .

وتم قبول « يوتا » ولاية فى الاتحاد عام ١٨٩٦ لحظى المورمونيون بسبب اجتهادهم وجدهم وعنايتهم برفاهية الفقراء وباحترام إخوانهم من المواطنين الأمريكيين

ومن بين المشروعات التى أنشأها « بريجهام يونج» « جامعة ليزريت » التى يطلق عليها الآن « جامعة يوتا » ، وتعتبر تذكاراً مناسباً لتخليد اسمه . كذلك توجد فى مدينة «سولت ليك» عمارتان يرجع الفضل فى بنائهما إلى هذا

الرائد العظيم هما: « معبد المورمون » الجيل الولى السلام ، و « خيمة الاجتماع » ذات الوسائل العجيبة الخاصة بالسمعيات .

وفى هذه المناسبة ينبغى لنا ألا ننتهى من التحدث عن « بريجهام يونج » دون أن نقدم للقارىء بعض الشىء عن البرنامج العام لكنيسته .. فبرنامج كنيسته يرمى إلى تحقيق هدفين : أولهما تشغيل كل إنسان ، وثانيهما العناية بالمحتاجين . . وجميع أعضاء كنيسة المورمون سواء أكانوا فقراء أم أغنياء يقدمون للكنيسة تبرعات تتمثل فى عشر مدخولهم ، ويخصصون لها أجر أيام من عمل أيام السنة .. ويتسلم الأساقفة فى أبرشيات المورمون مقادير نظامية من المواد الغذائية والملابس وغيرها من الأشياء الضرورية لتوزيعها على المحتاجين .. وهذه التبرعات يحتفظ بها بعناية فى مخازن يقوم بإدارتها أسقف الأبرشية ، وتوزع بأمر منه على أولئك الذين لايستطيعون تحمل نفقات معيشتهم إذا كانوا بدون عمل .

وحتى لا يهيم أى فرد منهم على وجهه دون نقود ، يوجد لدى الأسقف كيس للمال يظل ممتلئا بالنقود التى يتبرع بها أعضاء الكنيسة .. ففى يوم الأحد الأول من كل شهر يمتنع أعضاء الكنيسة عن تناول وجبتى الفطور والغذاء لذلك اليوم ، ويتبرعون بثمنها إلى كيس المال الذى يحتفظ به الأسقف . أما المال المتجمع من هذه الحصيلة ، فيستخدم فى أغراض شتى مثل مساعدة المرضى والعجزة والعاطلين عن العمل بصفة مؤقتة ، وعلاوة على ذلك ، فإنه لايوجد أحد من جماعة المورمون يسمح لنفسه ، إذا ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، أن يتسلم معونة أو يتقاضى معاشاً من الحكومة .

وأعضاء طائفة المورمون جيران طيبون .. ففى أعقاب الحرب العالمية الثانية حينما كانت هناك حاجة ضئيلة فى أرض الوطن ، أرسل هؤلاء القوم الأطنان العديدة من المواد الغذائية والملابس إلى أوربا لاستعمالها فى أعمال الغوث العامة . فلو أن بريجهام يونج ـ الذى أسس هذا المشروع منذ سنوات عديدة ـ ظل حيا حتى وقتنا الحاضر لسر كثيرا من اتخاذ هذا الإجراء العظيم .



هذا الرائد كان أديباً ومؤرخاً . . إنه « فرانسيس باركمان » الذى وإن كان قد عاش فى الشرق ، إلا أنه ظل يشتاق إلى رؤية درب أوريجون والسفر عليها . وحينما فعل ذلك فى النهاية ألف عنها كتاباً جعل الذاكرة الرومانسية حية لدى الجميع .

وهذه الدرب قام بالسفر عليها الكثيرون من أسلافنا ، ويمكن لنا أن نلم بلمحة خاطفة مما كانت عليه وقتئذ من ذلك الكتاب الذى ألفه فرانسيس باركمان .

الفصل التاسع عشر

فرانسيس باركمان

مؤرخ

« درب أوريجون »

(١٨٢٣ — ١٨٩٣)

نشأ فرانسيس باركمان فى منزل بمدينة بوسطن . . ولكنه كثيرا ما تمنى لو استطاع مبادلته فى يوم من الأيام بمزرعة جده بميدفور بولاية ماساشوستس التى تحيط بها الغابات الكثيفة حيث يستطيع أن يتظاهر بأنه أحد الهنود وهو يصطاد الخنافس والرخ ليضيفها إلى مجموعته .

وكان والد فرانسيس قسيساً لطائفة الموحدين « اليونيتاريان » ، كما كانت والدته سليلة أبوين جليلين مشهورين من طائفة اليونيتاريان هما: جون كوتون وكوتون ماثر . ولم يكترث فرانسيس لذلك ، بل كم تمنى لو كان أبوه زعيماً هندياً وأمه منحدرة من سلالة هنود اسكوانتو .

كان الهنود أعظم شعب فى العالم يستأثرون باهتمام فرانسيس .. لقد قرأ الكثير، واستمع إلى العديد من القصص عنهم . وحينما نشأ وذهب إلى جامعة هارفارد ، عزم على أن يكتب قصصاً تاريخية عن الغابات الأمريكية والهنود الذين يعيشون فيها .

وداهم فرانسيس المرض قبل أن يتم دروسه فى الكلية ويتخرج منها ، فثناه والداه عن تأليف الكتب التاريخية ، وأرسلاه ليجوب القارة الأوروبية، وكان يقوم على رعايته بعض أصدقاء الأسرة الذين رافقوه لمشاهدة المناظر الطبيعية .. وحينما أتيحت له الفرصة وأخذ ينظر إلى البحيرات الإيطالية والسويسرية ، لم يسعه سوى أن يقول : « إنى أحبها ! ولكننى أحب البحيرات الأمريكية أكثر منها .. إنها لاتزال فى وضع يقود للضلال » ، وأيا كان الأمر ، فقد تمتع فرانسيس برحلاته فى أوروبا وأبدى اهتماماً بكل شيء لاسيما ما يتعلق منها بالتاريخ الأمريكى .. فذات مرة عثر على ترجمة باللغة الإيطالية لكتاب « آخر أسرة الموهيكان » لمؤلفه جيمس « فينيمور كوبر » فاشتراها الأديب الشاب وأخذ يقرأ بسرور عن أصدقائه القدامى من هنود أمريكا باللغة الإيطالية ، لأنها كانت كما يبدو مسلية له .

ووصل فرانسيس باركمان إلى لندن ، فأسرع إلى القاعة المصرية ليزور معرض «جورج كاتلين» للهنود . ولسوء حظه وجد المعرض على وشك الانتهاء ولم يبق معروضاً فى القاعة سوى بضع لوحات لزعماء الهنود وبعض القمصان والسهام . وكان توم ثمب ، ذلك القزم الذائع الصيت ، يمثل وقتئذ أعظم عرض فى القاعة المصرية .. لقد كان ذلك الرجل الصغير يقفز على منضدة وهو يمسك سيفا بيده ، ويرسل « صرخات أمريكية » مثل « فاريكاد يختنق » فنظر إليه فرانسيس نظرة سخرية . . ثم كتب فى مذكراته عنه ما ألحق الأذى به .

وواصل فرانسيس دراسته للهنود والتاريخ الأمريكى عقب عودته إلى الولايات المتحدة .. فقد زار معارض مختلفة للآثار الهندية ، واجتمع بهنرى

سكولكرافت مؤلف العديد من الكتب التي يوثق بصحتها ، فطرب لهذه المقابلة طربا عظيما .

وكان يختمر في مخيلته مشروع عظيم يتمثل في التوجه إلى الغرب واكتشاف الدروب والغابات هناك .. فكيف يتسنى له ذلك ؟ فهذا ما لم يعرفه .. لقد كانت الرحلات إلى الغرب عنيفة ، كما كانت بنيته نحيفة ومع ذلك فإن هذه البنية النحيفة كانت عاملا ساعده على السفر إلي الغرب بدلا من أن تكون عائقا ، إذ وافق والده على أن يسمح له بالتوجه إلى الغرب من أجل صحته ، ولم يستطع فرانسيس أن يخفي سروره لاسيما وأنه كان قد تقرر أن يبدأ رحلته إلى الغرب على طريق أوريجون في شهر مارس عام ١٨٤٦ !

وشرع فرانسيس البالغ من العمر اثنين وعشرين عاما مع صديق مخلص له في السفر معا من سانت لويس عبر نهر ميسوري غربا إلى مدينة أندبندانس ثم إلى مدينة وستبورت اللتين كانتا مركزين منهما تغادر قوافل المهاجرين متجهة صوب أوريجون وسانتا في وكاليفورنيا ، وأخذ الشابان يسيران بزهو وهما يرتديان القمصان الحمر الصوفية والسراويل المصنوعة من جلد الغزال ، واشتريا الجياد والمؤن واستأجرا المرشدين ، ووضعا كتبهما وغيرها من الأمتعة في خرجيهما .

وما أن امتطيا حصانيهما للسفر برا في رحلتهما ، حتى قال فرانسيس : « أخيراً .. إني أشعر وكأني رائد حقيقي ! تصور .. إنها درب أوريجون ! »

وأدار طرفه فرحا على القافلة الطويلة من العربات المغطاة المتمايلة فى سيرها عبر السهول ، وكان عدد كبير منها يحمل الكثير من الأطفال . وأشار بنوع من التسلية إلى فتاة جميلة ممتطية صهوة جواد وممسكة بمظلة فوق رأسها ، لأن الجو كان ينهمر بالمطر وكانت المظلة تقى شعرها المتجعد .

وتعرف فرانسيس برجال الجبال .. فقد كان بعضهم يعرف جيم بريدجر وقصوا بعض القصص عنه للشبان الأصدقاء من الشرق ، وتقابل مع بعض أحفاد دانيال بون ، وتكلم مع رجال كان آباؤهم قد رافقوا الحملة الشهيرة التى قام بقيادتها لويس وكلارك والتى قرأ عنها الكثير فى كتب التاريخ .

وكان يحدث على طول الطريق فى معظم الأحيان أن يرى منظرا ينقبض له الصدر .. كان يرى مقدارا من أمتعة بعض الأسر وقد تركها المسافرون على قارعة الطريق ، لأن خيول عرباتهم لم تعد قادرة على جرها . وصعق فرانسيس لمنظر المناضد المنقوشة والدواليب المحفورة المصنوعة من خشب البلوط المتروكة فى البرارى لتلفحها الشمس وتأخذ فى التشقق من عوامل الطبيعة .. لقد أدرك إدراكا تاما مقدار التضحية التى كان ينبغى للأناس المسافرين للاستقرار فى الغرب أن يصادفوه .

وحينما وصلت الجماعة إلى فورت لارامى ، دهش فرانسيس الشاب القادم من الشرق . لقد كان هذا الحصن الكبير يزخر بالحياة .. لقد كان يجد فيه المرء الهنـــود ، والصيادين ، والتجار ، والمهاجرين ، والعربات المغطاة والثيران ، والجياد ، والخيم ، والفساطيط الهندية ، والمعاقل الخشبية .. لقد كان ذلك يشبه تماما ما قرأ عنه فى إحدى الروايات .. لقد شاهد فيه مقبرة

هنود قديمة فيها بضع جثث معلقة على مشنقة ، كما شاهد غدة من جماجم الجاموس فى أسفلها .

وكان لحصن لارامى هذا نظام من نوع خاص .. كان له عند المدخل الرئيسى وتحت معقل خشبى بوابتان .. وحينما يكون من فى داخل الحصن فى شك من وقوع خطر من جانب الهنود يمكن للبوابة الداخلية أن تغلق ، ثم يسمح للهنود بالدخول إلى الفسحة التى بين البوابتين، وبالمتاجرة من خلال فتحة شباك فى داخل نافذة كبيرة تستعمل أيضاً كورشة حدادة .

وأحس فرانسيس بفروة رأسه تلهبه حينما أدرك أنه موجود فى أعماق البلاد الهندية . . وأخذ مرشده « هنرى تشاتيلون » يقص عليه قصصاً يقف لها شعر الرأس عن مغامرات بين المتوحشين . . ولم يكن هنرى يستطيع القراءة أو الكتابة ، ولكنه كان أمهر صائد فى منطقة جبال الروكى ، واستطاع أن يشق طريقه فى السهول وعلى الجبال مذ كان فى سن الخامسة عشرة .

وفى ذلك كتب فرانسيس باركمان فى مذكراته يقول : إنى لم أقابل قط أى رجل أفضل منه ، لا فى المدينة ولا فى البرية .

وكان المرشد « هنرى تشاتيلون » صديق من زعماء هنود قبيلة سيوكس يدعى « أولد سموك » فاصطحب ذلك الرجل القادم من الشرق ليزور قريته ، ولكن أهل القرية كانوا يرحلون عنها ، فكتب فرانسيس فى مذكراته واصفاً كيف أن الهنود عبروا النهر من الشاطىء المقابل على جيادهم الصغيرة البرية ، وكان من بينهم رجال وفتيان عراة يندفعون فى الماء بتلهف ، وجياد

بعرائش عرباتها تجر نفسها جرا ، ونساء وأطفال ، وفى بعض الأحيان عجلات عليها الجراء ، كما كان من بينهم نساء يرتدين ملابسهن الزاهية ويقدن جياد أسيادهن ، وكلاب محملة تسبح بين الجياد والبغال.

وكان فرانسيس يدون فى كل مساء حوادث اليوم فى مذكراته ... ففى بعض الأحيان كتب مذكراته وهو جالس بالقرب من نار معسكر ، وفى بعض الأحيان الأخرى كتبها وهو جالس فى كوخ تاجر فراء حيث بات ليلته ، بل لقد اعتاد على تدوين مذكراته بين الفينة والفينة وهو فى ضيافة إحدى القبائل الهندية الصديقة . وهكذا فإنه حينما عاد إلى مسقط رأسه كانت مذكراته تذخر بالكنوز الوفيرة عن المغامرات .

ولحق ضرر ببصره بسبب أشعة الشمس المتوهجة ، وغبار البرارى الجاف المشبع بالأملاح القلوية .. وبينما كان فى طريق عودته إلى بوسطن داهمه مرض شديد فلم يستطع كتابة مؤلفه ، فأملاه على ابن عمه . وفى عام ١٨٤٩ صدر كتابه بعنوان « درب كاليفورنيا وأوريجون » ولكن هذا العنوان اختصر فى الطبعات التى صدرت فيما بعد إلى « طريق أوريجون » ، وقد جاء هذا الكتاب على درجة كبيرة من الدقة والجودة كتاريخ للبلاد حتى أنه لا يزال يعتبر مرجعاً هاماً منذ ذلك الحين كما أخذت الأجيال المتعاقبة من الأمريكيين تقرؤه وتحتفظ به .

وضعف نظر فرانسيس تدريجياً ولم يتمكن من الكتابة بتاتاً ، وفجأة فكر فى ابتكار بارع يتمثل فى إطار خشبى بأسلاك مثبتة بنظام رتيب من الجانب الواحد للآخر . وكان يضع قلمه وأصابعه داخل الإطار ويستطيع أن

يقوم بالكتابة، بينما تكون عيناه مغمضتين .. وكانت الأسلاك تقود أصابعه في خط مستقيم عبر الصفحة .. واستعمل هذا الإطار في كتابة مؤلفه الذي أطلق عليه عنوان « تاريخ مؤامرة أهل البونتياك » ونشر في عام ١٨٥١ .
وبعد ذلك أصبح فرانسيس يعاني الكثير من المرض حتى أنه اضطر إلى هجر مؤلفه التاريخي هذا فترة بلغت سبع سنوات ، ولكنه في النهاية استطاع أن يستأنف كتابه ، وحينما أتمه كان قد أصبح منشوراً لحسابه الخاص ثمانية مجلدات . . وقد جعلته قصصه رجلا مشهورا جدا وأصبح يعتبر من أعظم المؤرخين الأمريكيين ، كما أصبح له الكثيرون من الأصدقاء الدائمين .

وكان أبي هنري ريموند كاسبجرين من جامعة لافال بمدينة كويبك أحد هؤلاء الأصدقاء ، وكان مؤرخاً ، فأبدى اهتماماً كبيراً بهذا الأديب الأمريكي الذي ألف مثل هذه الكتب الجيدة عن الفرنسيين في العالم الجديد ، وتبادل الأديبان الرسائل ، وفي عام ١٨٧١ قدم أبي كاسبجرين إلى الولايات المتحدة ليزور فرانسيس بمدينة بوسطن ، ثم قام الأديبان معاً بزيارة لونجفيلو ذلك الشاعر الأمريكي الشهير الذي عاش في كمبريدج القريبة من بوسطن .

وعاش فرانسيس باركمان حتى سن السبعين بالرغم من اعتلال صحته ، ولم ينس قط طوال حياته رحلته المثيرة على درب أوريجون ، بل كان يحب التحدث إلى أحفاده عن المغامرات التي قام بها عن هنود الشوني، وهنود ديلاوير الذين قابلهم ، وعن صيد الجاموس ، وعن بندقيته التي تزن خمسة عشر رطلا ، وعن رجال الجبال ذوي اللحى الطويلة الذين قصوا عليه القصص العجيبة ، وحينما كان في دور النزاع الأخير على فراش المرض كان يهذي بحلم استطاع تحقيقه ،

كان يهذى باصطياد أحد الدببة . لقد كانت أفكاره الأخيرة متعلقة بالبرارى الأمريكية التى طالما أحبها .

وبعد مرور شهر على وفاة فرانسيس باركمان أقيمت صلاة تذكارية خاصة على روحه بمدينة هارفارد . . وكان من بين المتكلمين جون فيسك ، أحد زملائه المؤرخين ، فأثنى على النضال الذى قام به فرانسيس باركمان ضد المرض وفقدان البصر بقوله :

« لعمرى إن ذكرى إنسان يتصف بالعزم والمثابرة الخارقين لمن الأمور التى ينبغى لنا جميعاً أن نقوم بتخليدها على الدوام » .



هذا الرائد كان طبيباً . . إنه « وليام وورال مايو » أحد الأطباء العديدين الذين عاشوا على الحدود وامتطوا الجياد ليعودوا مرضاهم وينجزوا العمليات الجراحية على إحدى موائد المطبخ . وكانت النقود نادرة على الحدود ، فاعتاد المرضى دفع الأجر للطبيب بما يستطيعون تقديمه من أشياء . . لقد كانوا يمنحونه ، فى كثير من الأحيان ، نصف خنزير مجفف ، أو فخذ خنوص مقدد ، وفى بعض الأحيان كانوا لا يمنحونه شيئاً بتاتاً . . وكان الطبيب وليام يرحب بمقدمه دائماً سواء أكان ذلك فى كوخ خشبى ، أم فى كوخ مصنوع من جذور النباتات والحشائش . . لقد كان يسهر على راحة مرضاه على ضوء شمعة ، لأنه هو نفسه كان شمعة متقدة أضاءت أشعتها أقاصى البرارى . . لقد أضاء النور الذى نشره أمام أبنائه السبيل الذى أدى إلى إنشاء « مايو كلينيك » العظيم فى مدينة روتستر بولاية مينوسوتا .

الفصل الثامن عشر

وليام وورال مايو

طبيب رائد

(١٨١٩ — ١٩١١)

ولد وليام وورال مايو فى ٣١ مايو ١٨١٩ بالقرب من مدينة مانشستر بانجلترا ، ومات والده ـ وكان رباناً بالبحرية البريطانية ـ وهو ما زال فى السابعة من عمره ، تاركاً للأسرة ثروة لا بأس بها ، فتولت أمه : آن مايو ، أمر أولادها ، وبإرشاداتها الحازمة الرصينة حصلوا على ثقافة جيدة . وأخذ وليام الشاب يهتم بالكيمياء وهو طالب فى الكلية بمدينة مانشستر ، ثم قرر أن يدرس الطب ، بينما كان يعمل تلميذاً تحت التمرين فى مصحة مانشستر ، وكان أحد زملائه فى الدراسة أمريكياً ، ولعل هذا هو السبب الذى جعله يعقد العزم فى النهاية على القدوم إلى الولايات المتحدة . وكان وليام ، قبل مجيئه إلى الولايات المتحدة يعمل ويدرس فى مستشفيات لندن وجلاسجو ، مع أنه لم يكن حاصلا على أية شهادة طبية .

وكان رجلا نحيفاً قصير القامة ذا أخلاق جذابة ورأى مستقل . حاول أن يعمل فى مستشفى بيلفى بمدينة نيويورك فترة من الزمن ، ولكنه كان يعتزم السفر إلى الغرب . وفى النهاية استقر فى مدينة لافاييت بولاية إنديانا حيث

اتصل بطبيب ماهر هو الدكتور اليزور دمينج الذى أقنعه بمواصلة ثقافته والحصول على شهادته الطبية .

وكان الأطباء المثقفون ثقافة عالية غير متوافرين بكثرة على الحدود ، لأنهم كانوا يحبذون البقاء فى الشرق حيث الأجور مرتفعة ، وكان الكثيرون من أطباء الحدود الشباب يحصلون على تدريبهم عن طريق الدراسة فترة من الزمن فى كلية طبية ، ثم يقضون مدة فى التمرين تحت مراقبة طبيب معترف به أقدم منهم فى المهنة .. لقد تعلموا ممارسة المهنة عن طريق مراقبتهم له، ومساعدته فى عمله وقراءة كتبه الطبية .

وكان فى الغرب شاب درس الطب فى أوروبا ، فنظر الدكتور دمنج إلى وليام مايو باعتباره طبيباً ممتازاً تمكن إضافته إلى المهنة .. وسرعان ما تسلم الطبيب الشاب شهادته الطبية من كلية الطب بجامعة إنديانا فى عام ١٨٥٠ ، ثم أخذه الدكتور دمنج العجوز شريكاً له فى المهنة ، وشرع يحول إليه الكثير من ممارسة الطب الخاصة بريف بلاده .

وكانت الطرق بين البلاد على الحدود الغربية بدائية ، وفى بعض الأحيان لم تكن توجد طرق بينها بتاتاً . وكان وليام يعتبر موفقاً إذا ما كان الجو معتدلا حينما يكون أحد المرضى الريفيين فى حاجة إليه . وكان يذهب لزيارة المرضى فى بعض الأحيان فى عربة يقودها بنفسه ، ولكن أفضل طريقة كان يتبعها فى الغالب هى ركوب جواد يضع فى خــــرج سرجه العقاقير الطبية والأدوات الجراحية .

وكانت أمراض كثيرة متفشية على الحدود ، فأخذ الطبيب مابو الشاب يعالج أناساً يعانون من الجروح والحمى القرمزية والدوسنطاريا والكوليرا والملاريا ، وشفى عدد كبير من المرضى الذين عالجهم ، كما شفى عدد ممن كانوا مصابين بأمراض خطيرة . ونتيجة لذلك اشتهر اسمه وكان يمكن له الاستقرار في المنطقة وممارسة مهنة الطب ممارسة مجزية .

ولكن حمى الملاريا ـ وكانت من الأمراض الأكثر شيوعاً في وادى وباش ـ أثقلت كاهله . وكانت هذه الحمى تنتشر بكثرة من منتصف فصل الصيف حتى فصل الخريف ، كما كان الأطباء والمرضى على السواء يعاونون من وطأتها في كل عام . وكان الناس يسمونها « حمى الرجفة » كما كانت الفصول في المدارس تتوقف عن مواصلة الدرس بسبب نوبات الرجفة التى تصيب المدرس والتلاميذ في آن واحد . كذلك كان ينبغى للطبيب المصاب بمرض الملاريا إذا وصل إلى منزل أحد المرضى لعلاجه أن يضطجع قليلا لكى يدع الرجفة تمر قبل أن يستطيع الاعتناء بالمريض الذى يكون قادماً لزيارته ..

وذات مرة ، مر مزارع بجار يرتجف وهو جالس على كتلة خشبية وبندقيته على ركبتيه ، فسأله : « ما خطبك ؟ » .

فأجابه الجار : « لاشىء ، إنى فقط أنتظر هذه الرجفة أن تمر لكى أتمكن من رماية ذلك السنجاب الموجود هنا » .

لقد أدرك الدكتور مابو أنه حرصا على صحته ، لابد له من الرحيل عن

وادى الملاريا . ورحل عن الوادى إلى مينوسوتا ، وفى عام ١٨٥١ تزوج من مس لويزا أبيجيل رايت ، تلك الفتاة التى تتميز مثله بالإقدام والحرية ، والتى افتتحت محلا تجارياً لبيع القبعات لـكى تساعد فى سد نفقات المعيشة أثناء السنوات الأولى من النضال .

واستقر الدكتور وليام مايو وزوجته فى مزرعة بالقرب من ليسور بولاية مينوسوتا ، وأخذ الطبيب يزاول مهنته ، كما أخذت زوجته تساعده فى عمله وأصبحت مسز مايو ماهرة جداً فى المهنة حتى باتت تستطيع القيام بتجبير عظام المرضى المكسورة إن لم يكن زوجها موجوداً فى المكان . وسرعان ما أصبح للطبيب الشاب الكثيرون من المرضى الذين يقوم بعلاجهم مع أنه لم يتقاض الكثير من النقود منهم .

وكان أهم حدث مثير وقع للطبيب فى حياته حينما قام هنود السيوكس بثورة بالقرب من نيو أولم فى ربيع عام ١٨٦٢ . وكان الهنود وقتئذ يعيشون فى مساحات مخصصة لهم وفقاً لنظام قديم . وكانوا فى هذه الفترة بالذات يعتمدون اعتماداً تاماً على الحكومة من أجل تزويدهم بالنقود والمواد الغذائية والمهمات . وكان مأمور الحكومة الذى يدير شئون الهنود يعاملهم معاملة سيئة مما جعلهم يستاءون لدرجة كبيرة فى ذلك الربيع . وحدث بعض التأخير فى تسلمهم مخصصاتهم من الحكومة ، ورفض التجار أو أمناء المخازن ، السماح لهم بشراء أطعمتهم بالدين ، فاحتج الهنود بأنهم جياع .

وسمعهم أحد التجار يرددون هذا فقال : « إذا كانوا جياعاً فليأكلوا عشباً » .

وبعد ذلك بيومين شنت جماعة تتألف من أربعة هنود هجوما على خمسة رجال من البيض يعملون فى مزرعته وقتلتهم جميعاً ، كما شنت جماعة أخرى هجوماً على الوكالة الهندية .. وكان من بين الرجال الخمسة الذين قتلوا ذلك التاجر الذى تكلم باستهزاء عن جوعهم ، فلم يسع الهنود سوى أن يحشو فمه بملء جفنة من العشب الذى قال لهم أن يأكلوه .

وسلكت جماعة أخرى من السيوكس طريق الحرب ، فأخذت تدمر ما تجده أمامها من أناس وماشية ومنازل واصطبلات وغلات . . وفر من بقى حياً مذعوراً إلى الطريق العام والحقول ، وكثيرون منهم لجأوا إلى المدن الصغيرة خصوصاً إلى مدينة «نيو أولم» . وخرج رسول ينبىء البيض بالحادثة ، فأسرع الأطباء والمتطوعون إلى «نيو أولم» لنجدة اللاجئين وإسعافهم . وقاد الدكتور مايو فرقة المتطوعين التى خرجت من مدينة روتشستر ، فوجدت أمامهم عدداً كبيراً من القتلى والجرحى . وكان بعضهم من سكان نيوأولم ، والبعض الآخر من اللاجئين ، لأن الهنود كانوا قد شنوا غارة على البلدة وأحرقوا عـــدداً من منازلها . وسرعان ما انتشر الحراس حول بلدة نيو أولم وأخذ الأطباء يعتنون بالجرحى .

وشرعت فرق المتطوعين تجىء بالمزيد من الجرحى من الأرياف لإسعافهم ، ثم تعود لتبحث عن جرحى آخرين . وكان هؤلاء المتطوعون يسافرون ببطء ويدخلون كل منزل وكوخ ظل قائماً ، ويدفنون الموتى ويعودون بالجرحى إلى نيو أولم .

وهاجم هنود السيوكس بلدة «نيو أولم» مرة أخرى . وكانت وجوههم

مدهونة بالطلاء وصيحاتهم المتعطشة للدماء تدوى فى عنان السماء ، ففزع الجنود وهربوا وراء المتاريس ، ودهش الدكتور مايو لجبنهم وأمرهم بالعودة لمجازتهم . وحينما احتجوا على ذلك وقالوا بأنه ليست لديهم بنادق ، أمدهم الطبيب الصغير بالمذارى الحديدية وقال لهم فى عنف: « ابقروا بها بطون هؤلاء الهنود ! » .

وكان هنود السيوكس قد لاذوا فى النهاية بالفرار وعاد بعض الأطباء الذين كانوا قد ذهبوا إلى « نيو أولم » للنجدة إلى بلادهم ، ولكن الدكتور مايو مكث فيها فترة يبذل كل ما فى استطاعته من أجل المرضى والجرحى .

وكان الأطفال والمسنون والنساء فى مدينة روتشستر التى خرجت منها فرقة الدكتور مايو قد قاموا بنصيبهم من الأعمال البطولية . . فذات يوم حينما كان الهنود يزحفون على المدينة ، فكرت مسز مايو فى خطة عظيمة لإرهابهم وطردهم .. فقد أمرت جميع النساء بأن يلبسن ملابس الرجال ويحملن الفئوس والمعازق ، أما اللواتى لم يكن لديهن فئوس أو معازق ، فقد أمرتهن بربط الخناجر على أطراف العصى ، وشرعت النساء المجهزات بهذه المعدات بالسير عسكرياً حول القرية ، فلمعت أسلحتهم من أشعة الشمس وظنهم الهنود رجالا مسلحين ففزعوا كثيراً وذهبوا عن البلدة دون مهاجمتها .

وكان من شأن الدور الذى قام به الدكتور مايو فى إسعاف الناس فى بلدة « نيو أولم » أن جعله يظفر بشهرة عظيمة فى جميع أنحاء وادى مينوسوتا .

وفى خلال الحرب الأهلية عين عضوا فى أحد المجالس الطبية المركزية لفحص المتطوعين ، فانتقل إلى مدينة روتشستر حيث مقر المجلس ، وبعد ذلك

عزم على أن يقيم بصفة دائمة فى المدينة ، فجاءت زوجته وأولاده من مدينة « ليسوير » لينضموا إليه .

وكان الطبيب النحيف البنية ، المرتدى لسترته الرسمية ، وقبعته الطويلة ، يسرع الخطا ليعود مرضاه ، فأصبح يرى كثيراً فى مدينة روتشستر .

وأخذ يحرز تقدماً تدريجياً فى مهنته ، ولكنه كان ينبغى له أن يبدى اهتماماً بشئون المجتمع ، فأصبح عضوا عاملا فى عدة لجان ، وفى نقابة مينوسوتا للأطباء التى ساعد على إنشائها فى عام ١٨٨٦ وانتخب نقيباً لها فى عام ١٨٨٣ . وبالإضافة إلى ذلك ، كان عضوا فى الجمعية الطبية الأمريكية ، ورئيساً لبلدية روتشستر لبضع فترات ، كما انتخب لفترتين ليمثل الولاية فى مجلس الشيوخ الأمريكى .

لقد كان الدكتور مايو مكافحا عظيما فى سبيل التعاون ، فكثيرا ما ساعد الأطباء الشبان المناضلين ، وكان يذهب عن طيب خاطر حينما يدعوه زملاؤه الأطباء لاستشارته فى المسائل التى يحتارون فى أمرها ، لقد كان دائما يردد قوله المأثور : « ما من إنسان يعد كبيرا لدرجة كافية حتى يكون فى غنى عن الآخرين » .

وكان ويل وشارلى مايو ، أبنا الطبيب ، يميلان أيضاً إلى الطب . لقد كانا يلعبان منذ أيام طفولتهما بالهيكل العظمى فى مكتب والدهما ، فتعلما الأسماء العلمية للعظام وأخبرهما والدهما بأنه الهيكل العظمى لأحد المحاربين الهنود السيوكس الحسينيين .

وفى بعض الأحيان كان ويل وشارلى يذهبان مع والدهما أثناء زيارته للمرضى فى الريف .. وقال مرة لبعض أصدقائه مازحاً : إنهما يساعدانه بجلوسهما فى العربة والإمساك بقود الحصان .. ومع ذلك فقد كان يأخذهما فى كثير من الأحيان إلى داخل المنازل ليشاهدا المرضى .

وكان يضطر فى معظم الأحيان إلى القيام بالعمليات المستعجلة على مائدة سفرة أو منضدة .. وحدث ذات مرة بينما كان يقوم بعمل هذه العملية ، أن أغمى على الشخص الذى كان عليه أن يعطى المخدر ، فنقر الطبيب على صندوق موجود على حافة المنضدة حيث كان المريض مضطجعاً وقال : « هنا يا شارلى قف على هذا وباشر إعطاء المخدر » وامتثل الصبى البالغ من العمر عشر سنوات لتعليمات والده، وأخذ يرقب العملية الجراحية باهتمام عظيم يناسب طبيعة المهنة .

كذلك كان الطبيب يأخذ ولديه معه إلى اجتماعات النقابة الطبية المحلية المركزية ويقدمهما إلى أصدقائه الذين كان بعضهم من خيرة أطباء عهد الرواد .

وهكذا فقد نشأ الغلامان ليصبحا جراحين مشهورين . . وشرعا فى ممارسة المهنة بين جماعة الأطباء والجراحين الذين يعملون عند والدهما والذين من بينهم أطباء آخرون من الشباب يعمل كل منهم فى نطاق اختصاصه . وأصبح الطبيب الشاب يعرف الآن تحبباً بالطبيب العجوز .. وأخذ فريق مايو لا يعالج المرضى فى ولاية مينوسوتا فحسب ، بل غيرهم من المرضى فى الولايات الأخرى مثل ولاية أيوا ، وولاية نبراسكا وولايتى دا كوتا الشمالية ودا كوتا الجنوبية .

وبالإضافة إلى ذلك ، فقد كان الناس الذين رحلوا من ولاية مينوسوتا طلباً

للرزق فى الولايات الأخرى يعودون إلى الولاية ليعالجهم الأطباء مايو ، كما أنهم أعلموا أصدقاءهم عن هذا الفريق المدهش الموجود بمدينة روتشستر ، فقدموا أيضاً للعلاج .

ومايو كلينيك يحظى بشهرة عالية فى وقتنا الحاضر ، إنه يمتاز على الدوام بميزة بارزة ، وهى ممارسة أعمال الطب الجماعية . . لقد آمن الطبيبان الشابان : ويلى وشارلى مايو ، شأنهما فى ذلك شأن والدهما العجوز ، بالعمل الجماعى . فأخذ يعمل مايو كلينيك فى عهدهما وحتى الآن جراحين وأطباء عظام ، ويحضر إليه الأطباء الشباب للدراسة وكسب العلم ، ويأتى إلى مايو كلينيك للعلاج المرضى من جميع أنحاء العالم . ففى هذا المكان يعالج أفقر مريض بكل اهتمام واحترام ، ويعتبر أقل طبيب مقيم نفسه عضواً فى الأسرة العاملة فيه .

ولا يمكن لأحد أن يتكهن بالتاريخ الصحيح لنشأة مايو كلينيك . . ومع ذلك فقد أدلى الطبيبان ويل وشارلى فى عام ١٩١٩ بالبيان التالى :

« إن الممارسة الطبية التى نشأت وتمت فى مايو كلينيك قد أوجدها المرحوم الدكتور وليام وورال مايو .. الذى بدأ ممارسة أعمال الطب والجراحة فى مدينة روتشستر بولاية مينوسوتا منذ ستين عاماً تقريباً .

وكلما أخذت ممارسة مهنة الطب تتقدم وتنمو شرعت تستميل إليها اهتمام الآخرين من الأطباء والجراحين الذين قدموا للمشاهدة والدراسة .. ثم شرع هؤلاء الزوار يأتون بأعداد متزايدة وأخذوا يتحدثون عن العمل باعتباره « مايو كلينيك » حتى بات يشار إليه آخر المطاف ويعرف بهذا الاسم .. »

وكانت توجد منذ القدم صلات وثيقة بين الأطباء « مايو » الثلاثة وبين مستشفى سانت ماري الذي أسسه بمدينة روتشستر راهبات فرنسيسكان نتيجة للإعصار عام ١٨٨٣ الذي اجتاح المدينة .

وكلما اضطلع الطبيبان الشابان ، ويلي وشارلي مايو ، بالمزيد من المسئولية كلما أخذ الطبيب العجوز ينسحب من عمله في ميدان الطب ليهنأ بالمزيد من الراحة والسعادة .. وكان يحب الترحال ، فزار الكثير من أنحاء الولايات المتحدة ، كما زار العديد من بلاد العالم .. وحينما توفي في ٦ مارس ١٩١١ نكست جميع الرايات في مدينة روتشستر حداداً عليه ، لأنه كان محبوباً ويحظى باحترام كطبيب محب لخير الإنسانية وكمواطن عظيم . وقد أقيم تخليداً لهذا الطبيب العظيم بالحديقة التي أهداها آل مايو للمحافظة ، تمثال من البرونز حفرت على جوانبه العبارة التي اقترحها الدكتور ويلي :

« رجل يتميز بالطموح وبعد النظر » .



كان هذا الرائد عالماً من علماء الطبيعة درس علوم الحيوان والنبات . . إنه جون موير من مواليد اسكتلنده . قدم إلى أمريكا وهو لايزال غلاماً ، وحينما أصبح رجلا ، قام بالكثير من الرحلات ، فأحب براري كاليفورنيا ذات الجبال الشاهقة . وكان لكتاباته التي ألفها عن الحاجة إلى المحافظة على عجائب هذه البلاد الطبيعية ، الفضل الكبير في إنشاء جهازنا الحالي من الحدائق والميادين القومية .

وتشتمل غابات موير التي سميت بهذا الاسم تخليدا لهذا الرجل العظيم — على أشجار يبلغ عمرها الألفي سنة ، وتعد أطول الكائنات الحية في العالم على الإطلاق .

الفصل التاسع عشر

جون موير

مناضل فى سبيل الحفاظ على المصادر القومية

(١٨٣٨ — ١٩١٤)

لم يدر جون موير وهو فى الحادية عشرة من عمره ما إذا كان مسروراً ، أم حزيناً لذهابه إلى أمريكا .. فقد كان والده « دانيال موير » يملك مخزناً لبيع الأعلفة والغلال فى مدينة دونبار باسكتلندة ، فأحس بأنه سيتمكن من تحسين حالته المالية بالهجرة إلى العالم الجديد . . وكان من المقرر أن يسافر معه أولاده الكبار الثلاثة بما فيهم جون نفسه .

وكان الفقر منتشراً وقتئذ فى مدينة دونبار . . فبعض الناس لم يكن لديهم فى الواقع منازل يأوون إليها ، فكانوا ينامون لياليهم تحت الدريس وبين الأعشاب الشائكة ، كما كانوا يتسولون من أجل لقمة العيش .

وقام دانيال موير ببيع مخزنه ، وأعطى زوجته جزءاً من النقود لتعيش عليه حتى يستطيع أن يرسل لها بأن تلحقه ، واستعد للرحيل عن اسكتلندة .

وكان جون متحمساً للمغامرة الجديدة ، ولكنها فى نفس الوقت كانت تعنى بالنسبة له ترك الحديقة حيث قام بمساعدة والدته فى زرع الأزهار ، وترك

والدته ذاتها فترة لا يعلم مداها أحد إلا الله ؟ وكان «دانيال موير» شديدا مع أولاده . فلم يسمح لهم بالتحدث أثناء تناول وجبات الطعام ، كما كان يرغمهم على حفظ التراتيل ، أو بعض الإعداد من الكتاب المقدس فى كل يوم ، فماذا عسى أن تكون عليه الحالة بالنسبة لهم دون وجود والدتهم معهم ؟

هذا ، وقد يفقد جون النزهات التى يقوم بها فى الريف بصحبة جده الذى يعرف الكثير عن الطيور ، والذى لا يكف عن تعليمه الشىء الكثير عن كيفية التعرف على نوعها .. وقد يفقد مدينة دورهام وقصرها القديم الخرب بالقرب من منزله الذى طالما اكتشف بمفرده ، أو مع غيره من الغلمان حجراته وسجونه المظلمة ، وتسلق جدرانه على حساب المجازفة بدق عنقه ، لقد كان جون جريئاً على الدوام وظل كذلك طوال حياته .

وأبحر آل موير : دانيال وجون ودافيد وسارة ، فى عرض المحيط على متن سفينة شراعية قديمة ، وكانت الرحلة قاسية ، فأصيبت سارة بدوار البحر طوال السفر ، واستغرقت الرحلة إلى أمريكا ستة أسابيع وثلاثة أيام .

واتخذ دانيال موير مدينة بورتيج بويسكونسن موطناً جديداً له ، واشترى له مزرعة وأقام عليها منزلا كبيراً من دورين ، ونصف الدور يحتوى على ثمانى غرف تكاد تكون كافية لأب وأم وسبعة أولاد .

ومع ذلك فقد وجد «جون» الأرض الجديدة تستأثر باهتمامه ، وكان غلاماً ذا بنية قوية ، وعينين زرقاوين ، نشيطا لا يهدأ أبدا .. وفى أول يوم كان موجودا فى المزرعة تسلق شجرة ونظر فى عش أحد طيور «أبو زريق» ،

واشترى له أبوه مهرا . . وحينما كان ينتهى من عمله كان يمتطيه ويذهب فى نزهات لمسافات بعيدة .. وكان اسم المهر « جاك » فأحبه ورعاه كأنه صديق من الجنس البشرى .

وأخذت الغابات الأمريكية تسحر الغلام الاسكتلندى الصغير بجمالها ، وتعلم الكثير من أسماء الأشجار التى كان من بينها عدد كبير لم ير مثله من قبل، كذلك راحت الطيور تدخل على قلبه البهجة ، فطرب ودهش لطيور «أبى النقار» وهى تثقب بعزم بمناقيرها فروع الأشجار ، فكم من مرة اهتزت مشاعره وهو يسمع طيور البرويل تنادى مرارا وتكرارا على زملائها بصوت منخفض ! لقد كان لا يزال صغيرا ليقوم بمطاردة فراش اليراع عبر المروج وحبسه فى آنية زجاجية .

وفى فصل الخريف وصلت مسز موير وبرفقتها الأطفال الأربعة الآخرون فاجتمع شمل الأسرة وفرحوا كثيراً لذلك ، وكان لزاماً على الغلمان أن يعملوا بجد فى المزرعة ، فقاموا بحراثة الأرض وقطع الأشجار ، وفك السياجات ، وتكديس أكواز الذرة ، وحصد الدريس . أما سارة فقد أخذت تعتنى بشئون المنزل لأبيها وإخوتها إلى أن وصلت والدتها . وكان ينتظر سارة العمل الوافر لمساعدة والدتها فى أعمال المنزل ورعاية إخوتها الصغار، لقد كانت هى وشقيقتها الكبرى مارجريت صديقتين حميمتين شأنهما فى ذلك شأن جون وشقيقه دافيد الأصغر منه .

وأحب جون المطالعة ، ولكنه لم يكن لديه سوى القليل من الوقت لذلك، إلى أن تمكن من حل المشكلة بالنهوض مبكراً صباح كل يوم قبل أن يبدأ

العمل في المزرعة ، وأخذ جون ينهض من نومه مبكراً، ويقوم بالمطالعة والدراسة ويحلم بأن يصبح مخترعاً في يوم من الأيام ، وفي الواقع ، لقد ابتكر ساعات ، وترمومترات من نوع خاص . . وكان أحد هذه الترمومترات على قدر كبير من الضخامة حتى يمكن للمرء أن يقرأ درجة الحرارة عليه وهو واقف على التلال والمروج البعيدة إذا ما علق على جدار المنزل المواجه لها ، كذلك فقد ابتكر ساعة تبدو كأنها طاحونة تدق وتسجل الساعات والتواريخ والأزمنة وتضيء المصابيح وتوقد النيران . . وكانت أهم ما تمتاز به حسب رأيه أنها تستطيع أن تضرب بأحد أطرافها سريره في أي وقت يشاء، فأطلق عليها اسم « الآلة الموقظة » له من النوم مبكرا .

وحينما بلغ جون سن الثانية والعشرين أخذ بعض اختراعاته إلى معرض ستيت بمدينة ماديسون بولاية ويسكونسن . . وكان شاباً نحيفاً أسمر البشرة ، ذا عينين زرقاوين لامعتين ، وابتسامة جذابة ، فلفت إلى مبتكراته اهتمام الكثيرين من المشاهدين . . وكان يستطيع توضيحها بسهولة وتفسير كيفية القيام بعملها ، فكتبت الصحف عنه الكثير من الأنباء ، وأسرع جمهور غفير من الناس لرؤية مخترعاته .

وعلمت إحدى الجارات بالأمر فأسرت إلى مسز موير وقالت لها : « ألم أقل لك إن هذا الفتى نابغة ؟ لعل القوم يصدقون صحة قولي الآن ! » ولكن والد جون هز رأسه وقال : ولعل ما تنشره الصحف من قصص يجعل ولده مغروراً بنفسه . واستطاع جون أن يكسب خمسة عشر دولاراً من المعرض فعزم على الالتحاق بجامعة ويسكونسن ليكمل ثقافته .

وكان عليه أن يشق طريقه . وفى بعض الأحيان لم يكن لديه سوى القليل من النقود ، فأصبح نحيفاً من قلة الطعام ، ولكنه استطاع أن يثبت على الأيام ، فاستوعب جميع الدروس التى أمكن له حضورها فى علم النبات ، والجيولوجيا ، والكيمياء ، ودهش زملاؤه للاختراعات التى ابتكرها . ولشد ما أعجبهم من مبتكراته بصفة خاصة مكتب يبلغ ارتفاعه تسع أقدام ، مثبتة به ساعة كبيرة وعدد من القضبان والبكرات . وكان جون يستطيع أن يركب منبهاً على الساعة فيقوم بوظيفته فى ساعة محددة من كل صباح . . وسرعان ما تأخذ العجلات فى الدوران فيشرع المنبه يعمل آلياً فى دفع كتاب إلى أعلا ويضعه على المكتب ثم يفتحه . . ويظل الكتاب مفتوحاً خمس عشرة دقيقة يستطيع جون خلالها أن يذاكر درسه ، ثم تقوم الآلة بغلقه وإبعاده جانباً وتشرع فى إحضار كتاب آخر . . وكان الطلبة المبتهجون يحبون مراقبته وهو يذاكر ويعمل مثل القندس على الساعة والمكتب . »

وفى عام ١٨٦٣ ترك جون الجامعة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره وتوجه فى رحلة سيرا على الأقدام بمحاذاة نهرى ويسكونسن والمسيسبى ، فرأى الملايين من كتل الأخشاب جارية مع التيار إلى مصانع النشر ، وتساءل فى نفسه عما إذا كان أحد قد كلف نفسه عناء زراعة أشجار لتحل محل هذه الأشجار المقطوعة ، ولما لم يدع للقتال فى الحرب الأهلية ، فقد تمكن من مواصلة تجواله والقيام بدراسة الطيور والنباتات ، واعتبرته أسرته لا يصلح لأى عمل على الإطلاق ، فأخذ يحمل الدفاتر والكراريس ، ويرسم فيها الرسوم البيانية ويدون الملاحظات . وبينما كان ينفد ما لديه من مال كان يجد عملا ويكسب

منه ما يكفيه من نقود لمواصلة المزيد من الرحلات ، وأخذ يهتم بعض الشيء بالمستقبل، لأنه لم يكن يرغب فى أن يقال عنه إنه رجل كسول ، كما أخذ يفكر فى أن يعمل فى يوم من الأيام فى وظيفة ثابتة ، وفى الزواج ، وإنجاب الأطفال... ولكن الوقت لم يحن بعد، وهو لم يكن يطيق أن يهجر حياة الخلاء التى مازال يهواها .

وبينما كان يعمل فى ورشة لصنع الآلات فى عام ١٨٦٧ ، طار مبرد من يده وألحق ضرراً بعينه ، وظل معرضاً عدة أسابيع لفقدان البصر .. وبينما كان مستلقيا فى حجرة مظلمة أخذ يفكر فى جميع الأماكن فى العالم التى لم يقم بزيارتها بتاتا .. وحينما عوفى ، عزم على ألا يستقر ، مهما قال الناس عنه ، بل يظل رحالة طوال كل أيام حياته .

وزار أنحاء مختلفة من العالم — مثل استراليا ، والهند ، وروسيا، وبناما ، وكوبا ، وألاسكا — وكان دائما يشق طريقه بالعمل ويدون ملاحظاته . وفى بلاد ألاسكا اكتشف نهر الثلج الذى يحمل اسمه .. وأنهار الثلج هى أنهر عظيمة من الجليد المتراكم من فعل الثلج الذى لا يذوب أبدا ، بل يتلبد على بعضه البعض .. وهى تتحرك ببطء منحدرة على سفوح الجبال ، أو عبر الوديان. ولا تزيد سرعتها فى بعض الأحيان عن بضع أقدام فى العام الواحد .. وحينما تصل هذه الأنهر الثلجية إلى البحر فى أقصى الجبال تتحطم وتكون جبالا من الجليد .

وقام جون موير بدراسة هذه الأنهر الثلجية والتطورات التى أحدثتها فى شكل الكرة الأرضية . . لقد كان جون العالم الذى أثبت أن وادى يوسمايت

بولاية كاليفورنيا إنما تتكون من فعل نهر ثلجي . وفي ألاسكا أطلق عليه الهنود لقب « زعيم الجليد » ، لأنه كان يجازف غير هياب بحياته بين جبال الجليد ليرقب الأنهر الثلجية التي تكونها .

وبينما كان في ألاسكا ذات مرة أحب كلباً صغيراً أسود يملكه بعض هنود « ستيكيين » من قبيلة « تلينجيت » الذين كانوا يعملون كمرشدين له .. وسمى هؤلاء الهنود هذا الكلب الصغير « سيكين » وأخذوه معهم في إحدى الرحلات التي قام بها موير . . وفي يوم من الأيام كادوا يروحون جميعاً ضحية أحد الأنهر الثلجية ، ولكنهم تمكنوا من النجاة بعبورهم جسراً رفيعاً من الثلج . . وألف موير عن هذه المغامرة كتاباً ظل الكبار والصغار على السواء يقرأونه بشوق سنوات عديدة .

وكان تسلق الجبال الهواية المفضلة لجون موير . . وكان يحتم على الأفراد الذين يودون تسلق الجبال معه أن يرتدوا ملابس دافئة ويحملوا عصياً خاصة تساعدهم على تسلقها ، ولا يتساهل معهم إذا ما ارتكبوا أي إهمال ، كما راح يتحلى بالصبر وهو يعلم المتسلقين الشباب كيف يجدون لهم مراكز ثابتة لأقدامهم . وذات مرة سقط أحد رجاله وانخلع كتفاه ، ولكن جون موير استطاع أن يرد أحدهما إلى مكانه ، ثم حمله إلى بر الأمان . لقد كان تسلق الجبال يشتمل على الكثير من المخاطر مثل عمى الثلج ، والصخور الوعرة ، والجليد المنزلق ، والأخاديد الجليدية المختفية ، والزوابع الفجائية ، ومع ذلك فإنه بالنسبة لجون لم يكن يوجد شيء يضارع لحظة الانتصار والوقوف على قمة جبل شاهقة حين تأخذ الرياح العاصفة تهب نحوه .

وكانت كاليفورنيا أكثر بلد أعجبته من بين جميع البلاد التي زارها ، فوصف وادي سانت كلارا بأنه « من أبدع البقاع » التي شاهدها في حياته على الإطلاق ، كما كانت سلسلة جبال سيرا نيفادا المكسوة بالثلوج بمثابة « شعاع من نور » بالنسبة له . وكان سريع الخاطر في التعبير عن الكلمات ، فذات مرة شاهد خرافًا تدوس على الحشيش وتدمر الأزهار البرية في أحد المروج الجبلية فأسماها « الجرادات ذات الحوافر » ، وفي أحد المرات جلس بالقرب من نهر ثلجي بألاسكا ليتناول غداءه ، فكتب في ذلك يقول :

« إن تناول طعام الغداء عند نهر ثلجي ، في يوم ساطع الشمس ، لمن الأمور التي تظل خالدة في حياة الإنسان ، وتجعل من أعياد اللحم والخمر العادية أعياداً تستوجب السخرية .. إن الأنهر الثلجية تأكل التلال كما تأكل شعاع الشمس » ، وحينما شاهد بعض الأشجار الكبيرة ميتة وملقاة على الأرض ، كتب يقول : « إن الطبيعة لتحتضن برفق الأشجار الميتة الساقطة لتستريح من عناء العواصف ، إنها تبدو كأنها قد استدعيت إلى موطنها من السماء لترقد في هدوء الآن » .

وكان وادي يوسمايت أعظم بقعة بالنسبة لجون ، لأنه وجد فيه جميع الأشياء التي أحبها ، مثل الجبال ، والصخور ، ومساقط المياه ، والنبات ، والطيور ، والأزهار ، والأشجار على جميع أنواعها . ولم يكن يخاف من الحيوانات البرية .. فذات مرة حدث أن لاقى في وادي سوسمايت دباً فتفرس في عينيه دون وجل ، فلم يسع الدب سوى أن يعرض عنه بعد بضع دقائق . وفي بعض الأحيان كان رعاة البقر — في المراعي حيث يعمل جون —

يميلون إلى الاستهزاء منه ببعض النكات بسبب اهتمامه العظيم بالنباتات والزهور .. ولكنهم سرعان ما عدلوا عن ذلك حينما وجدوا أنه يجيد ركوب الأفراس البرية كأنفسهم ، ويستطيع أن يعبيء فى أكياس من الحنطة ويجز من صوف الأغنام بلا انقطاع مقداراً أوفر مما يستطيعه أى رجل آخر .

وكتب جون المقالات عن أسفاره للمجلات .. لقد كتب عن الأغنام وهى تساق لترعى فى مروج الجبال فى فصل الصيف ، وكيف تقوم بتدمير السرخس والأزهار ، وعن حرائق الغابات التى يشعلها الرعاة عن عمد لتوفر المزيد من المراعى أو يشعلها الهنود لتهيء أرضا خصبة للقنص ، كما كتب عن الحرائق التى تحدث نتيجة لإهمال الحطابين أو المخيمين . لقد أوجد جون عبارة جديدة فى مجال الوعى الأمريكى .. لقد أوجد عبارة « المحافظة على الغابات الأمريكية والمصادر القومية » .

وتزوج جون وهو فى سن الثانية والأربعين من لويزا سترنتزل ، ابنة رائد يملك بستانا للفواكه بكاليفورنيا وكانت لويزا تعطف على حبه للحياة الخلوية ، فافسحت له المجال ليترك المزرعة حينما بدأ يحن إلى حياة التجوال القديمة بعد قضاء عشرة أيام عليها .

ولم يعد جون جوالا مفلسا ، بل أصبح رجلا مشهوراً . . ولم تعد عليه كتاباته بالمال فحسب ، ولكنه كان قد عرض أفكاره وآراءه على الكثيرين من الناس . لقد أصبحت الرحلات إلى وادى يوسيمايت تحظى بشهرة واسعة ، فأخذ الشعب يرغب فى مشاهدة هذا الوادى العجيب الذى كتب عنه جون موير . . لقد كانوا يبدون اهتماماً لما قاله عن محاولته الحصول على قوانين تكفل الحفاظ على الغرائب الطبيعية لبلادهم .

وفى عام ١٨٩٠ بدأ جون يلمس النتائج . فقد وافق الكونجرس الأمريكى فى ذلك العام على قانون ينص على اعتبار المروج والجبال المحيطة بوادى يوسمايت جزءاً من حديقة قومية ضخمة . وفى نفس العام تم إنشاء حديقتين قوميتين أخريين هما : حديقة سيكويا وحديقة الجنرال جرانت. وحديقة سيكويا سميت بهذا الاسم تخليدا للرجل الهندى سيكويا زعيم قبيلة تشيروكى ، التى تحتوى على عدد من أضخم وأقدم الأشجار فى العالم التى يرجع بعضها فى تاريخه إلى أربعة آلاف سنة .

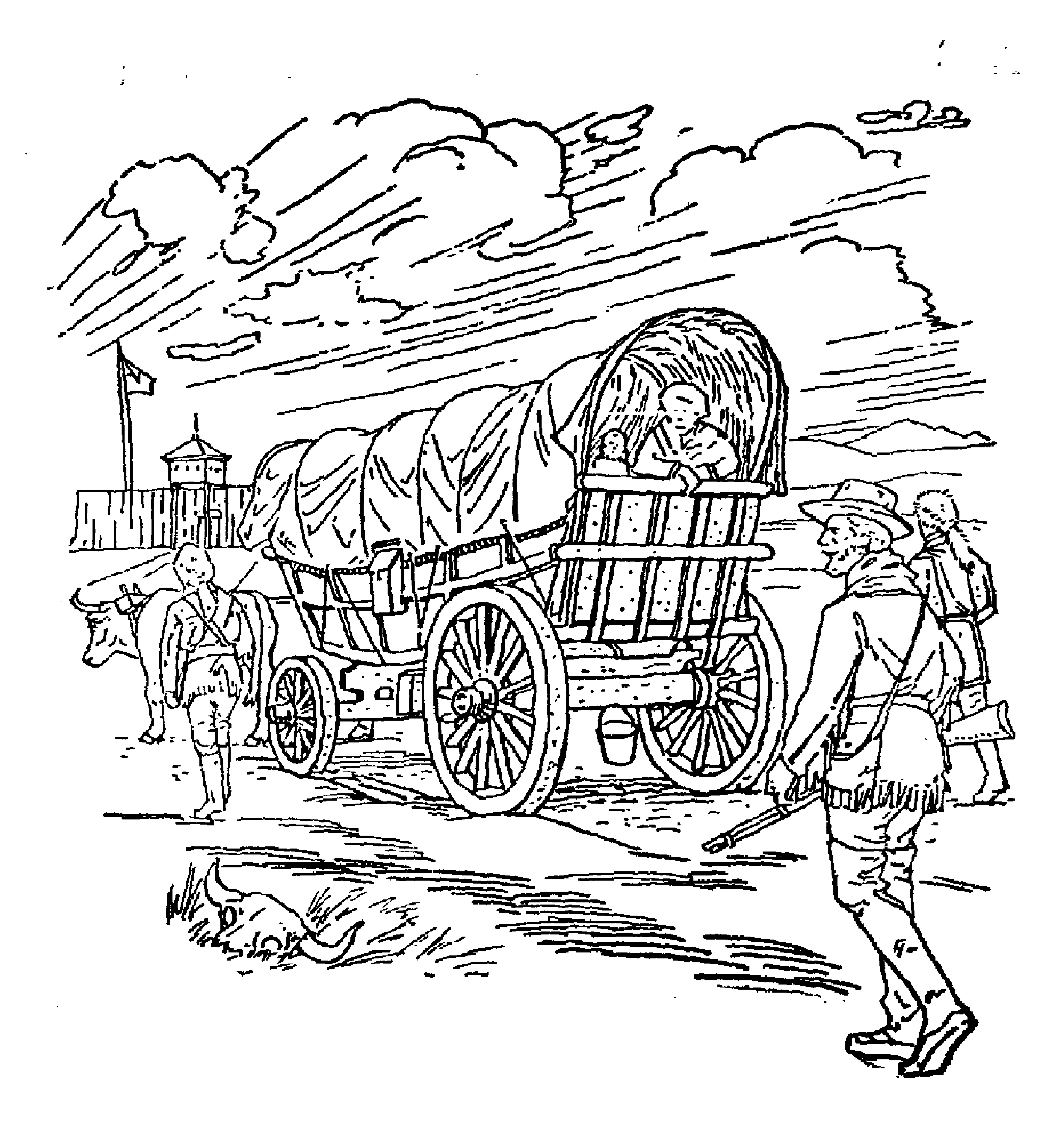
والآن وقد نجح جون موير فى إثارة الرأى العام ، فقد أخذ يزداد الاهتمام بالمحافظة على عجائب الولايات المتحدة الطبيعية الأخرى مثل تلال بلاك فى داكوتا الجنوبية وغيرها من غابات الغرب العديدة. وفى عام ١٨٩٧ وقع الرئيس الأمريكى جروفر كليفلاند قانوناً ينص على إنشاء ثلاث عشرة غابة قومية ، وبعد ذلك ببضع سنوات قدم الرئيس تيودور روزفلت ليزور وادى يوسمايت وطلب إلى جون موير أن يرافقه فى رحلة يضربان أثناءها مخيماً لهم فى الوادى .

وما إن شرعت شرائح اللحم تتحمر والقهوة تغلى على نار المعسكر وتعبق رائحتهما فى أول ليلة لهما فى المخيم ، حتى صاح الرئيس : « لعمرى إنه لافتراء ! » وحينما استيقظا من النوم فى صباح اليوم التالى كانت زوبعة ثلجية قد أسقطت عليهما من الثلج ما يبلغ ارتفاعه أربع بوصات فزمجر الرئيس مبتهجا وقال: «إن هذا أكثر افتراء ! إنى لن أفوت هذه الفرصة مهما كلفنى الأمر ! » ونتيجة لزيارة الرئيس للوادى ومحادثته مع جون موير ، أصبح الوادى جزءا من حديقة يوسمايت الأهلية .

وتملك الولايات المتحدة فى وقتنا الحاضر الملايين من مساحات الحدائق القومية والغابات ، والأماكن الأثرية أو المعالم التاريخية . وإحدى هذه المساحات هى ابات « موير » التى كانت ملكا لمواطنين مدنيين ثم وهبها أصحابها لولاية كاليفورنيا مشفوعة بالتماس كى تطلق عليها اسم هذا العالم الطبيعى العظيم .

وكتب جون موير عدداً من الكتب عن حياته وأسفاره ، فأحبها وقرأها عدد غفير من الناس ، ولاتزال تقرأ من جانب عدد وافر منهم ، وتسلق الجبال مازال هواية محبوبة . . والعلماء الطبيعيون من أمثال « جون موير » مازال ينظر إليهم نظرة ملؤها الاحترام والإجلال .

وتوفى «جون موير» ليلة عيد الميلاد لعام ١٩١٤ عن عمر يناهز السادسة والسبعين ، ودفن فى مزرعة الأسرة الكبيرة بالقرب من مدينة مارتينز بولاية كاليفورنيا .



هذا الزعيم أبدى اهتماماً عظيماً بالتاريخ ، وهاجر وهو شاب عبر طريق أوريجون ،
وأحس بأن الهجرة إلى الغرب من الأهمية بمكان وتصارع فى الحروب التى دارت رحاها
فى الشرق . . إنه عزرا ميكر الذى فكر فى وضع علامات على طريق أوريجون .

الفصل العشرون

عزرا ميكر

واضع العلامات على طريق

أريجون

(١٨٣٠ — ١٩٢٨)

حينما كان عزرا فى سن التاسعة ، هاجرت أسرته من ولاية أوهايو إلى ولاية إنديانا ، فسار هو وشقيقه أوليفر البالغ من العمر أحد عشر عاماً مشياً على الأقدام مسافة الرحلة كلها ، وتبلغ مائتى ميل ، وبعد ذلك عرض جد عزرا فى أوهايو على الأسرة ألف دولار لتشترى بها مزرعة ، ولما لم تكن لدى الأسرة أية وسيلة أخرى للحصول على المبلغ عادت إلى أوهايو وجلبته معها إلى إنديانا فى عربتها الخاصة . وكان جميع المبلغ من النقود الفضية .

وتساءل عزرا وأوليفر بفزع : ماذا سيفعلون لو حاول قطاع الطرق مهاجمتهم ؟ وعزما على القتال إلى آخر رمق فى سبيل المحافظة على صندوق النقود .. ولحسن الطالع لم يهاجمهم اللصوص ، لأن الثياب البسيطة التى كان يرتديها الأب والأم والأطفال وشكل العربة المغطاة الرث ، لم يكن شكلها مغريا للصوص المتجولين لكى يقوموا بالسطو عليهم .

وأخذ عزرا يساعد والده فى المزرعة ، فأحب العمل فى العراء ، كما أحب رائحة التربة المحروثة حديثاً ، والاعتناء بماشية المزرعة ، ومنظر نباتات الغلال وهى تنمو على وجه الأرض . . ولكنه كان يتضايق حينما تعصف الرياح بشدة وتنطلق الغيوم فى عنان السماء . وكان المسافرون يتجهون فى كل يوم بعرباتهم إلى الغرب ؛ فأخذ غلام المزرعة يشتاق شيئاً فشيئاً ليكون واحداً منهم .

وحينما بلغ عزرا الحادية والعشرين تزوج وعزم على الذهاب إلى الغرب — إلى إيوا ، وفى شهر أكتوبر من عام ١٨٥١ شرع هو وزوجته إليزا جين وطفلهما الصغير ، فى التوجه غرباً فى عربة مغطاة واستقروا فى ايوا ، ولكنهم بعد أن قضوا فصل الشتاء هناك صمموا على ألا يبقوا فى مكان يكون فيه الجو على مثل هذه الدرجة من البرودة . وجاء فصل الربيع فارتحلوا إلى إقليم أوريجون فى عربتهم . . وكان يجرها ثوران ، لأن الثيران كانت من الحيوانات المفضلة فى هذه الرحلة لاستخدامها فيما بعد فى أعمال المزرعة ، ولأنها كانت أقوى بكثير من الخيول عند القيام بمثل هذه الأعمال .

ورافق آل ميكر فى الرحلة صديق للأسرة هو وليام باك ، وكان فى السابعة والعشرين من عمره ، مختبراً للأسفار ، فأخبرهم بأصناف الأطعمة التى يأخذونها معهم ، وبالكيفية التى يحفظونها بها ، مثل اللحم المقدد ، والقرع المجفف والفاكهة والبيض الموضوع بين الدقيق ، والحليب المعبأ بأوعية من الصفيح الذى يتحول إلى زبد ، واللبن المخيض الناتج عن هزهزة العربات . ولكى يمكن توفير اللبن أخذ الفريق المسافر معه ثلاث بقرات .

وحينما وصل الفريق إلى مدينة كاونسل بلفس انضم إليه شقيق عزرا البكر

أوليفر وبعض الأصدقاء ، فأصبحت القافلة تتألف من خمس عربات ، وفى شهر مايو عام ١٨٥٢ كانت القافلة على ضفاف نهر المسيسبى تنتظر دورها لاجتياز النهر على متن أحد الزوارق المخصصة لعبور النهر ، وكانت مئات العربات تقف فى المكان ، كما كان القوم المسافرون يعسكرون على ضفاف النهر . وكان قاربان فخمان يعملان ببطء فى نقل العربات الكبيرة من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية .. لقد كانت العملية تسير ببطء حتى اضطر بعض المسافرين إلى الانتظار أسبوعين دون أن يتمكنوا من اجتياز النهر .

وعيل صبر عزرا وأوليفر .. وبينما كانا يذرعان الشاطىء ذهاباً وإياباً ، وقع نظرهما على شىء ضخم غارز فى الرمال .. وكان هذا الشىء قارباً كبيراً مهجوراً ،فبحثا عن صاحبه واستأجراه منه لعبور النهر على شريطة إعادته إليه بعد وصولهما إلى الشاطىء الآخر .

وما إن تم لهما إنجاز هذه المهمة حتى سمعا صفيراً صادراً من زورق بخارى ضخم كان قد وصل إلى المكان لنقل العربات عبر النهر ، وكانت جماعة عزرا ميكر قد تقدمت فى رحلتها على الطريق ، ولكن سرعان ما لحقت بها القوافل المسرعة التى نقلها الزورق البخارى ، ولم تبد جماعة عزرا ميكر أى استياء بل أخذوا يقولون بعضهم لبعض : « لعلنا نستطيع اللحاق بها بعد قليل » . وهم فى الواقع قد لحقوا بها . ولكن أعداداً من الحيوانات كانت قد نفقت بسبب ضربها بالسياط لكى تعدو بسرعة وتستطيع تعويض ما ضاع من الزمن .

وبينما أخذ عزرا وأسرته وأصدقاؤه يواصلون رحلتهم إلى الغرب قابلوا على الطريق عربات مليئة بالمهاجرين العائدين إلى الشرق ، وكان هؤلاء القوم

ممن يئسوا من الرحلة وفى طريق عودتهم إلى البلاد التى هاجروا منها .. وكان التدفق العظيم على الغرب لامتلاك الأراضى قد حفز الكثيرين إلى الهجرة ممن لم يستطيعوا السفر مثل هذه المسافات الطويلة ، فمرض ومات بعضهم أثناء الرحلة ، وكان آخرون ممن هرعوا للسفر بسرعة كبيرة حتى أنهم لم يزودوا أنفسهم بما يكفيهم من الطعام أو ممن ألهبوا حيواناتهم بالسياط — مثل الجماعة التى لحقت وسبقت قافلة ميكر — فنفقت ، أو ممن باتوا يحنون إلى ذويهم وأصبحوا يعارضون فى مواصلة الرحلة ، فعزموا على العودة إلى أوطانهم الأصلية .

وشاهد عزرا مشهداً محزناً بحق .. لقد شاهد جماعة من النساء المنهوكات القوى عائدات إلى الشرق بعد أن مات جميع رجالهن فى الطريق .. لقد كن يحملن أطفالهن إلى ذويهم فى أرض الوطن فى قافلة طويلة تتكون من إحدى عشرة عربة .

ومع ذلك فقد واصل عدد كبير من الناس السفر غرباً .. وذات مرة حينما كان لزاماً على جماعة ميكر التوقف بضعة أيام للاعتناء بأوليفر الذى أصيب بالمرض فى الطريق ، أخذ عزرا يعد القوافل المارة فوجدها ألفاً وستمائة عربة .

وفى إيداهو انقسمت القافلة ، فأخذت بعض العربات تتجه إلى الجنوب الغربى عبر طريق كاليفورنيا ، ولكن جماعة عزرا واصلت المسير نحو أوريجون. ولم تكن لدى الجماعة قوارب يجتازون بها نهر سنيك ، فكان لابد للذين يودون الذهاب إلى أوريجون من أن يملأوا جميع الشقوق الموجودة فى العربات

بالثياب القديمة والقطران للحيلولة دون تسرب الميـاه .. وبعد ذلك شرع الرجال الأقوياء يعومون العربات عبر النهر، ويسوقون الثيران والماشية أمامهم، بينما النساء والأطفال داخل العربات أخذن يمسكن بأطرافها جيدا ويرتجفن من شدة الخوف .

وواصلت القافلة السير على درب أوريجون لأميـال عديدة على صخور صلبة ، وكان عدد العربات التي مرت فى هذه الطريق كبيرا جـدا يتجاوز الآلاف حتى أن عجلاتها شقت أخاديد فى الصخور لا تزال موجودة حتى وقتنا الحاضر .

ولما وصل عزرا وجماعته إلى نهر كولومبيا ، كانوا قد اجتازوا أسوأ مسافة من الرحلة وراحوا يسافرون عبر النهر فى سفن إلى أوريجون . وكانوا يبعدون عن أوطانهم الأصلية مسافة ألفى ميل ، فأخذ الكثيرون منهم يبكون بسبب الحنين إليها ، ولعلهم كانوا يعتقدون أنهم لن يعودوا أبدا إليها ، ومع ذلك فقد قدموا إلى الغرب يحدوهم الأمل فى تكوين حياة أفضل لأنفسهم ولأولادهم . وأمضى عزرا وقتاً طويلاً فى البحث عن مزرعـة تناسبه وشيد عليها منزلا جيدا وأقام علاقات ودية مع الهنود المجاورين . وحينما قـدم إلى المنطقة عدد وافر من المستوطنين ، بنوا مدرسة من كتل الأخشاب ليتلقى فيها الأطفال ثقافتهم .

وكان عزرا مولعاً بالكتابة ، فاحتفظ بمذكرات عن رحلته إلى أوريجون، نشرها فيما بعـد فى كتاب ظل يلقى رواجاً عدة سنوات .. وكان يبدى

اهتماماً كبيراً بالتاريخ ، فأخـذ بمرور السنين يلم بجميع ما يتعلق بالبلاد التى استوطن فيها .

وفى عام ١٩٠٦ ، أى بعد مرور أربع وخمسين سنةعلى هجرته إلىأوريجون عزم على أن يعود إلى الشرق متبعاً نفس الطريق التى قدم عليها إلى أوريجون ـ وكان يعتقد بأن « دربا » هى على قدر كبير من الأهمية بالنسبة للولايات المتحدة ، ولابد أن تخطط بعلامات مميزة بطريقة أو بأخرى ، فسافر فى عربة مغطاة يجرها زوج من الثيران متجهاً إلى واشنطن العاصمة،وكان كلما قطع بضعة أميال يتوقف عن المسير بعربته ليدهن بالطلاء بعض المعالم الموجودة على الطريق . . وحينما كان يصل إلى مدينة كبيرة الحجم ، كان يحث الأهـــالى على إقامة إحدى العلامات المميزة على طريق أوريجون ، وأقيمت نتيجة لذلك علامات مميزة عديدة ، ومع ذلك فقد ظل عزرا يعتقد بأنه يجب وضع المزيد من مثل هذه العلامات .. لقد قال لـكل إنسان التقى به « يجب أن توضع علامات واضحة على طول الطريق إلى أوريجون من أولها إلى آخرها » .

وكان كلما واصل رحلته شرقاً أبدى الناس اهتماماً كبيراً بذلك السيد النحيف العجوز ذى الشعر المبيض كالثلج ، المسافر بعربة مغطاة ، لاسيما أن الـكثيرين كانوا لم يروا من قبل عربة مغطاة أو زوجاً من الثيران . وترك عزرا طريق أوريجون خلفه ، وواصل رحلته عبر طريق ريفية متجهاً إلى مدينة نيويورك .. وهناك لفت منظر العربة المغطاة والثيران انتباه الـكثيرين من الأهـالى ، فتوقفوا عندها وأخذوا يحدقون بها حتى عطل ذلك حركة المرور لدرجة كبيرة .

وحينما وصل عزرا إلى واشنطون العاصمة وعده الرئيس تيودور روزفلت بأنه

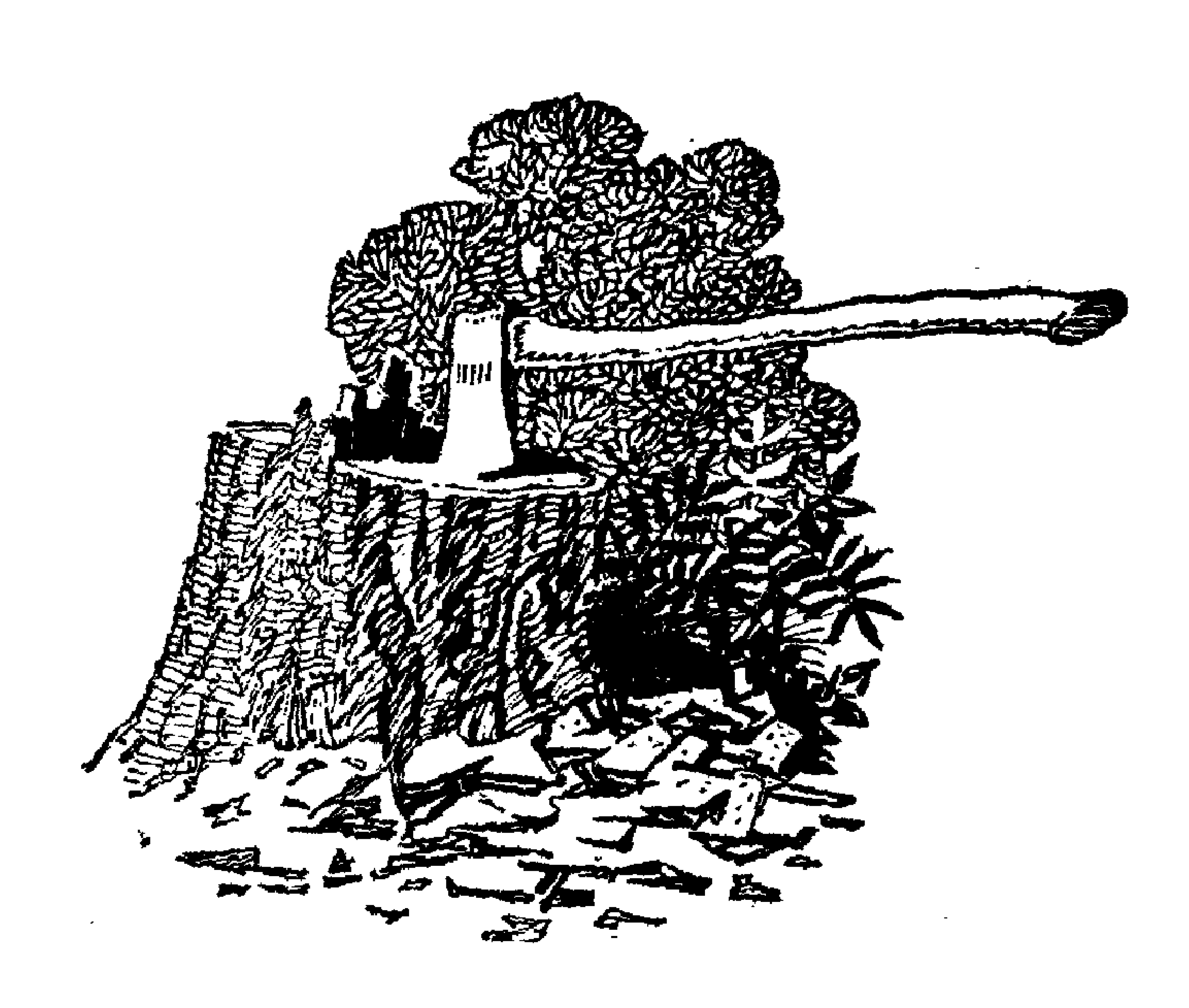
سيطلب إلى الكونجرس أن يصوت من أجل تخصيص مبلغ من المال للقيام بالمشروع .

ووجد عزرا أن مهمته قد كللت بالنجاح ، فقام بشحن ثيرانه فى سفينة إلى منزله فى أوريجون ، ثم سافر هو بالقطار .. وبعد ذلك أخذ يسافر على طريق أوريجون بالسيارة والطائرة لكى يجعل الرأى العام يهتم بهذه الطريق المشهورة . وحينما طار مسافة ألف وثلاثمائة ميل بالطائرة فوق طريق أوريجون، كان يبلغ من العمر أربعة وتسعين عاماً ، فقال له قائد الطائرة بحماس : « قل لى يامستر ميكر حين تشعر بالتعب لكى نهبط على البر من أجل أن تستريح » .

ولكن عزرا ميكر أجابه بنخوة على التو قائلا : « قل لى يا سيادة القائد متى تكون أنت متعباً حتى نأخذ قسطاً من الراحة . إنى لا أتعب بسهولة ! » لقد كان عزرا ميكر يعتز بصحته الجيدة ونشاطه ، كما كان يفاخر بأنه لم يمض يوماً واحداً طريح الفراش طوال حياته .

وتوفى عزرا ميكر فى عام ١٩٢٨ وهو فى سن الثامنة والتسعين ، وكان قبل وفاته بعامين قد أسس «جمعية طريق أوريجون التذكارية» التى وضعت المزيد من العلامات المميزة على الطريق القديمة ، ويوجد على طول الطريق من مدينة انديبندانس بولاية ميسورى إلى مدينة سيسايد بولاية أوريجون علامات تخلد هذه الهجرة العظيمة إلى الغرب .

كلمة ختامية



انطلق دانيال بون فى صباح يوم مشرق من أيام عام ١٧٧٥ حاملا فأسه ، وشرع يقطع أول شجرة لكى يمهد طريق البرية .. وبعد قرن ونصف القرن تقريباً ، أى فى عام ١٩٣٤ حلق عزرا ميكر فى طائرة فوق طريق أوريجون .. وفى خلال تلك الحقبة تم افتتاح قارة جديدة بأكملها ، واكتشف الآلاف من الناس أوطاناً ، وأقاموا لهم بيوتاً على تخوم مجاورة. ستظل قصتها تهز مشاعر الأمريكيين على الدوام .

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
تليفون ٩٠٥٢٩٦



دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع

عمارة رمسيس — ميدان رمسيس — (باب الحديد) القاهرة

تقدم

مشروع المكتبات العشرين

١ — المكتبة الثقافية	١١ — مكتبة « العقائد والدين »
٢ — المكتبة الدولية	١٢ — المكتبة الوطنية
٣ — المكتبة الطبية	١٣ — المكتبة العمالية
٤ — المكتبة العلمية	١٤ — المكتبة الصناعية
٥ — المكتبة السياسية	١٥ — المكتبة القانونية
٦ — المكتبة المسرحية	١٦ — المكتبة الاقتصادية
٧ — المكتبة الفنية	١٧ — مكتبة « الأعلام وأبطال التاريخ »
٨ — مكتبة « أطفالنا »	١٨ — دائرة المعارف العامة
٩ — مكتبة الحضارات	١٩ — المكتبة الأدبية
١٠ — المكتبة القصصية	٢٠ — المكتبة التربوية والفكرية

الثمن ٢٠ ص

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة . الفجالة
تليفون ٩٠٥٢٩٦